

تفسير سورة الرعد

الدكتور محمد صالح علي مصطفى

دار النفائس للنشر والتوزيع

في كتاب مكنون

تفسير سورة الرعد



تفسير سورة الرعد

مباحث تحليلية لغوية حول المفردات والتراكيب
مئة وستون مبحثاً موضوعياً حول المفاهيم الدينية والعلمية

الدكتور محمد صالح مصطفى

أستاذ التفسير المشارك بكلية أصول الدين والدراسات العليا



دار النفائس للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار النفائس للنشر والتوزيع
ص.ب : ٥٣٥٢٠
الرياض ١١٥٩٣
السعودية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ
عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ
رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ
ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِى ٱلْأَرْضِ
قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ
وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ
فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)
۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ
جَدِيدٍ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ
فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٥)

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ
أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ
﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ
وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ
ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ
بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ
مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ
وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا
وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا
مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا
كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ
إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا
وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ
نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي
ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ
عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ
يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا
يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ
لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ
مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ
لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ
قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾
وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ
بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ
وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ
مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟
لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم
بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ
ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ
أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى
ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ
بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا
جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾
يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾
وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ ك قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ح وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ م ﴿٤٣﴾

نص السورة مصور من المصحف بعد إزالة علامات الوقوف واستبدالها بعلامات أخرى هي:

ح: وقف حسن في نهاية جملة تابعة.

ك: وقف كاف في نهاية جملة تامة.

م: وقف تام في نهاية فقرة موضوعية.

الخطة العامة ومباحثها

المقدمة: مبحثان.

المدخل: ثمانية مباحث.

التفسير: مباحث تحليلية، ومائة وستون مبحثاً موضوعياً.

الخاتمة: مبحثان.

الفهرسة: مبحثان.

المقدمة

وتحتوي على:

١ ـ أهمية الموضوع.
٢ ـ طريقة التفسير.

— ١ —

أهمية الموضوع

لسورة الرعد تأثير كبير في النفس والحس، ولها جولاتها الزمانية والمكانية، معروضة في الآفاق والأنفس، ممدودة بين شواهد الدنيا ومشاهد الآخرة.

وحسب ترتيبها في المصحف فإنها الثالثة عشرة من بين السور، وفي الجزء الثالث عشر من أجزاء القرآن الكريم.

ومن عادة المفسرين أن يجمعوا همهم وعلمهم في أول ما يرد عليهم من موضوعات، وأكثرها مجموع في السور الأول من القرآن، فيطولون فيها ويفصلون. ثم يتخففون فيما تكرر منها وتأخر، فيكتفون من الاطالة بالإحالة، ويقتصرون على الإجمال والإشارة، وهذا الشأن هو الغالب في صنيع المفسرين، وإن كانوا قد ميزوا بعض السور بالاهتمام، ومن ذلك سورة الرعد، حيث فسروها مع الإجمال بالتفصيل والاستقلال، وتناولوا مبناها ومعناها، حتى توافر لها — إلى مالها — جملة من الرغائب والغرائب، والفرائد والشوارد، في جمع من المروي والمرئي، من النقول والاقاويل.

وأتساءل بعد هذا الفيض من التفاسير المجملة والمفصلة، المعادة والمبتكرة، عما يمكن أن آتيه من جديد مفيد... ولو أنني وزنت بضاعتي في التفاسير وعلوم القرآن والسنة، أو أني قدرت طاقتي على الضبط والفطنة، لترددت كثيراً في الإقدام على التفسير.

فلا غرابة إن قل العطاء في المعالجة، وضعف الإحكام في الأسلوب، فلست إلا مجتهداً بذل من جهده ما في وسعه، مكتفياً بنوال شرف الانتماء لمدرسة القرآن الكريم، مغتبطاً بصلة التدبر والتفكر في آيات الله العظمى. فما كان من خير فهو

من عند الله، وهو الوهاب مجزل الثواب، وما كان من تقصير فهو مني، وأسأله سبحانه الرحمة والرضوان، فهو الرحمن الرحيم، غفار الذنوب، ستار العيوب.

وها أنذا مع ضعف فكرتي، وقلة خبرتي، قد عزمت على الدخول في رحاب الكتاب، لأحمل من العطاء بمقدار ما أتحمل من العناء، فالقرآن كما تأتيه وتُؤتيه، فإنه يأتيك ويُؤتيك، ولديه مزيد...

أدعوه سبحانه أن يلهمني الحق ويعيدني إليه بنفس راضية مرضية، وقلب آمن مطمئن سليم.

ـ ٢ ـ
طريقة التفسير

أما الطريقة، فقد سلكت في التفسير المنهج الذي تلقيته في مرحلة الطلب بالأزهر من أستاذي الدكتور عبد الغني الراجحي حفظه الله وجزاه خيراً، وقد رأيت له تفسير سورة سماه «المنهج الحديث» وهو يقسم آيات السورة إلى مجموعات تبعاً للموضوعات، يفسرها تحت عنوان: «المباحث الجزئية»، وعنوان: «المباحث الكلية».

وقد نسجت على منواله في تفسير بعض السور والآيات، ثم بدا لي تعديل العنونة، فسميت مجموعات الآيات بالفصول، كما سميت المباحث الجزئية: «بالمباحث التحليلية»، والمباحث الكلية: «بالمباحث الموضوعية».

وخلاصة الطريقة أنها تعتمد على تقسيم السورة إلى فصول متتالية مع الالتزام بترتيب الآيات.. وكل فصل من هذه الفصول له نوع استقلال وتميز في الوحدة الموضوعية، والفصل الواحد يحوي عنوانين، الأول: مباحث تحليلية في اللغة من مفردات وتراكيب، ويندرج تحت التفسير التحليلي. والثاني: مباحث موضوعية: ويتجه نحو التفسير الموضوعي، ولعلني بهذا أكون قد جمعت بين حسنتين لنوعين من التفسير.

وميزة هذه الطريقة في التقسيم إلى فصول ومباحث تحليلية وموضوعية، أنها تترك باب التفسير مفتوحاً أمام التصحيح والتنقيح، كما تتيح المجال لاستدراك

المتأخر على المتقدم بالزيادة، فيضيف ما يشاء من موضوعات جديدة ومستحدثة.

واصطلاح الفصول مأخوذ من قوله تعالى في الآية الثانية من السورة ﴿ يفصل الآيات ﴾ ومن تسمية (سورة فصلت) وقوله تعالى فيها: ﴿ كتاب فصلت آياته ﴾[1]. وقوله: ﴿ لولا فصلت آياته ﴾[2].

ولقد تحصل لي في تقسيم سورة الرعد أربعة وعشرون فصلاً، وهو عدد من الفصول كبير، أردت تقليله للتنسيق مع سورة فصلت التي قمت بتفسيرها من قبل، ولم تبلغ فصولها نصف هذا العدد، ولكني آثرت الآن كثرة الفصول ووجدت أن ذلك أصلح في التأليف والمتابعة، وأيسر في البحث والمراجعة.

والموضوع الأول للمباحث الموضوعية هو المعنى العام لإلقاء نظرة إجمالية على الآيات من الوجه الذي أراه وأختاره، وليكون مفتاحاً لبقية الموضوعات. ولقد حولت جل اهتمامي إلى المباحث الموضوعية، وهي تقوم على إرشادات صريحة، وإشارات واضحة، تتعلق بالمسائل العامة، والمناقشات العلمية للتوفيق بين آيات الفصل وغيرها من آيات القرآن، والتوفيق بين الآيات وحقائق العلوم المعروفة، ولإزالة ما يظن فيه الترادف اللفظي أو التعارض المعنوي.

إلى جانب الإشارة للفوائد واستنباط الحكم والأحكام، وهذه الدعوى إن لم تتحقق بالوجه المرضي فحسبي أنني نويت فعزمت وحاولت فسعيت.

وقد عنونت للفصول وللموضوعات بعناوين مناسبة ما أمكن، بحيث يتناول كل عنوان غالب المضمون وأهمه أو أشهره...

فالعنونة مبنية على ضرب من التجاوز والتساهل ومن العسير وضع عنوان جامع مانع لمضمون كل منها.

ويُلحظ قلة المراجع التي اعتمدت عليها، وعذري أني أغوص مع نفسي في محيط القرآن، ولا أحتاج إلا قليلاً إلى الترجمان والأعوان. ولهذا لم ألتزم بمراجع معينة وأكثر ما رجعت إليه هو ما تيسر وجوده عرضاً باستثناء بعض المراجع التي سأشير إليها في الخاتمة.

---

(١) سورة فصلت الآية ٣.

(٢) سورة فصلت الآية ٤٤.

بقي أن أشير إلى المدخل والخاتمة والفهرسة.

أما المدخل فقد جعلته في ثمانية مباحث استحسنت التمهيد بها والتزود منها، قبل المسير في رحاب التفسير.

والخاتمة في مبحثين أولهما: كلمة اعتذار، وثانيهما: خلاصة تفسير السورة. ثم الفهرسة للمراجع والعناوين.

المـــدخل

ويحتوي على:

١ ــ الحاجة إلى الوحي القرآني لقصور العقل الانساني.
٢ ــ التفسير وعلوم القرآن.
٣ ــ جمع القرآن وخطه وترتيبه.
٤ ــ تعريف القرآن والسورة والآية.
٥ ــ تاريخ النزول، والتنزيل المكي والمدني.
٦ ــ تسمية سورة الرعد، وبيان فضلها.
٧ ــ بيان عددي بالآيات والكلمات والحروف.
٨ ــ الاستعاذة والبسملة.

ــ ١ ــ

الحاجة إلى الوحي القرآني لقصور العقل الإنساني

من رحمة الله بالانسان أن أنزل عليه كتباً، وأرسل إليه رسلاً، لأن الانسان لا يقوم وحده، ولا يكفيه عقله، فلا يكتفي بذاته للوصول إلى المعرفة اللازمة لإصلاح دنياه وآخرته.

يشهد لما نقول حال الشرق والغرب ممن يعتمدون على عقولهم وحدها، ولا يهتدون بغيرها، حيث أشقتهم عقولهم، وأنهكتهم علومهم ومعارفهم، فضلوا بأنفسهم، وأضلوا غيرهم.

ومعلوم أن العقل يخطيء لأنه لذاته محدود غير كامل ولا معصوم، ويخطيء لغيره لأنه يعتمد في حكمه على نقل الحواس القاصرة، ولذلك كان من أحكام العقل الشائعة، وتصوراته الذائعة، فرضيات ظنية، ونظريات ناقصة.

وعلى هذا فلا بد من الوحي ــ وهو الحق المطلق المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ــ. فالوحي ضرورة محتومة لوضع الأ وليات الصحيحة، والمعالم الواضحة، كي يقيم العقل البشري كيانه الفكري، ومساره النظري على أساس صحيح.

إذ أن العقل خلال كسبه في ظلمات الحياة ينحرف عن جادة الصواب، وينجرف نحو المألوف من الأعراف حتى يألف الفساد والباطل...

والوحي بعد ذلك يريح العقل بمدد من المعلومات المنقولة عن الغيوب المجهولة، مما لا يمكن بلوغه ومعرفته بالوسائل الحسية والعقلية.

ــ ٢ ــ

التفسير وعلوم القرآن

التفسير علم من علوم القرآن بل هو المقصود الأصلي من هذه العلوم، وإن كان

المصطلح المعروف: «علوم القرآن» لا يشمله، وبالمقابل فإن علوم القرآن تعتبر تفسيراً روعي فيه جانب الموضوع، بعد جمع جزئياته من القرآن والسنة، وآراء الأئمة. والجامع بين التفسير وعلوم القرآن هو الاشتراك في الغاية، إذ هما طريقان لفهم كتاب الله.

وأول مفسر هو الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه، فسر لأصحابه ما احتاجوا إليه مما خفي عنهم وهو قليل، بسبب علم الصحابة بلغة التنزيل، ومعرفتهم بأسباب النزول.

وأصبح الصحابة وكبار التابعين أصحاب مدارس في التفسير بسبب اجتماع الناس حولهم. وكانت الحاجة إلى التفسير ماسة بسبب تفشي العجمة والجهل باللغة والبعد عن بيئة النزول.

وهذا النوع من التفسير منقول إلينا بطريق الرواية وهو التفسير المأثور، وفي مقابل هذا التفسير نوع آخر عماده الاجتهاد والرأي هو التفسير المعقول، ومعظم التفاسير المعروفة مزيج من النوعين معاً بنسب متفاوتة.

واتجاهات التفسير القويمة والمنحرفة تمثل خلاف الفرق والمذاهب وصراع العصور على صعيد الاجتماع والسياسة. ولطالما كان التفسير مرآة للحياة العامة والخاصة حتى إن التفاسير الموجودة في مكتبة القرآن لتمثل تاريخ المسلمين بصحيحه النافع، وزبده الفاسد، فقد لجأ كل حزب ومذهب وفرقة وطائفة إلى القرآن يستدلون به على وجهتهم ومنهجهم، ويجعلونه شاهداً على ما يرون ويريدون، والخلاف ظاهر لدى المقارنة بين التفاسير كما نرى بين تفاسير السنة والشيعة، فقد يصل الحال إلى التضاد في الفهم والحكم.

ووجوه أخرى وراء اختلاف التفاسير، هي تغير اهتمام العصر، وتنوع بضاعة المفسر من نحو وبلاغة وفقه وعقيدة وتاريخ. ولذا امتلأت التفاسير بالمناقشات والافتراضات والردود والتأويلات الدائرة حول تلك البضاعة والإناء ينضح بما فيه.

والكم العددي للتفاسير كبير حتى قال فيها الزمخشري وهو ممن عاش في القرنين الخامس والسادس:

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد.....

وأقول إن العدد قد زاد ويزداد.

وهي كما قلت مثلت العصور باتجاهاتها المختلفة، القويمة والمنحرفة، كما كشفت عن اهتماماتها المستقبلية، وخلفيتها التاريخية، وعقليتها العلمية.

ولم يسلم نوعا التفسير من الآفات، من دخيل في المأثور، ومن زيادة ونقص في المتن والسند، وكذا شأن القياس والاجتهاد.

والتفاسير وكذا علوم القرآن ــ باعتبار ما بينهما من تلازم ــ هي أحوج ما تكون إلى التحقيق العلمي، والتوثيق التاريخي، ضمن منهج علمي موزون، وتقويم فكري وتربوي مضمون، ولذلك ينبغي إصدار التراث مرفقاً بالمقدمات والحواشي والملاحق والفهارس. للاستدراك على خللها، وتصويب خطئها، وتكميل ناقصها. ثم القيام بإعداد تفاسير عصرية من المأثور والمعقول، بما يناسب المستويات الفكرية من حيث التيسير والتبسيط مع استبعاد ما لا برهان له، ولا دليل عليه من الأقاويل، وما لا يصح سنده أو متنه من النقول والإسرائيليات. فليس كل ما يقال أو ينقل يقبل.

ويجدر التنبيه إلى أن غاية التفسير ليس تصوير العصر وحده، بل الغاية كذلك توجيه العصر خطوة إلى الأمام، بل خطوة إلى العلاء.

* * *

أما علوم القرآن فهي كثيرة مجموعة بإجمال، ومفصولة باستقلال، ومنثورة في بطون الكتب، وبخاصة في التفاسير. فقد يجمعها كتاب كالبرهان، والاتقان، وغيرهما، أو تكون منثورة مستقلة كل علم منها في كتاب أو في كتب.

والسيوطي(١) في مقدمة إتقانه يوصل علوم القرآن إلى ثمانين، ويقول هي كذلك على سبيل الإجمال، ويرى أنها بالتفصيل تزيد على ثلاثمائة، هذا مع ما استحدث وعرف في عصرنا من علوم قرآنية جديدة.

---

(١) أنظر مقدمة محمد أبو الفضل إبراهيم لتحقيق «الإتقان في علوم القرآن» لجلال الدين السيوطي ٩/١ ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وعلوم القرآن بحوث موضوعية تقوم على نص أو إشارة مباشرة أو غير مباشرة، مما له علاقة موضوعية أو تاريخية بالقرآن. ومن هذه العلوم: الناسخ والمنسوخ، والمكي والمدني، والمحكم والمتشابه، والأحرف والقراءات إلى آخر ما هنالك من علوم.

ومن الجدير بالتنبيه أن القرآن لم يعرض بعد عرضاً موضوعياً، بحيث يفي بحاجة العصر الذي نعيش فيه، بسبب عجز علمائنا أو قصورهم، مع التخلف الفكري العام في المجتمع الإسلامي.

فالمسلمون اليوم لا يعيشون عصرهم، والعلماء بسبب ضغط العامة يفقدون القيادة، ويعجزون عن الريادة والسيادة..

إن علماءنا اليوم لا يعالجون مجتمعاتهم لأنهم لا يعيشون عصرهم، إما بسبب بعدهم عن الواقع، أو بسبب ذوبانهم فيه. والحديث في هذا يطول، وهو ذو شجون.

ولا بد من القول: إن الكتابة في علوم القرآن وكذا في التفسير ليست منهجية علمية، ولذا حشي كثير من التفاسير بمروي لا يسلم نقلاً، وبأقاويل لا تصح عقلاً. وكان كثير من علوم القرآن قائماً على غير ما أساس سوى جمع الأقوال وسردها، وذكر المفترق والمحتمل فيها، وجعلها كتباً وأبواباً ومسائل. ولئن ضربت المثل على ذلك فإني أضربه في الناسخ والمنسوخ وهو أقدم العلوم وأخطرها، فبينما نجد قائلين بعدم النسخ بالكلية، نجد في مقابل هؤلاء النفاةِ من يثبت قرابة الثلاثمائة دعوى في القرآن، وبينهما من يقول بنسخ عشرين أو تزيد أو تقل لتكون سبعاً أو ثلاثاً، ويبقى العلم معلقاً.

ويحضرني بهذه المناسبة قول هو تساؤل لأحد الناس يقول: علوم التجريب تستقر على الخطأ والصواب بالموازين المنهجية الموضوعة، فما بال التفاسير وعلوم القرآن لا تصل إلى قرار...

ـ ٣ ـ
جمع القرآن ورسمه وترتيبه

جُمع القرآن حفظاً في الصدور على عهد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، كما جمع كتابة في السطور على عهده في حضرته بين يديه، وقد تمت الكتابة على ما

تيسر من مواد ما كانت متماثلة ولا متجانسة، بل كانت متفاوتة مختلفة في مادتها وهيئتها.

وجَمع أبو بكر رضي الله عنه فوحَّد كتابة المصحف في رقاع متماثلة. ثم جمعه عثمان في عدد من النسخ لحاجة الأمصار إليها.

وتعدد الجمع في المراحل الثلاث باعتبار ما أشرنا إليه من إثبات أصل الكتابة أولاً، ثم توحيد المكتوب عليه ثانياً، وأخيراً تعديد النسخ.

والجمع في مراحله الثلاث هو إثبات للمجموع في الصدور من قبل

* * *

وقد تواتر رسم المصحف الإمام وهو العثماني ــ المنسوب لعثمان بن عفان رضي الله عنه ــ إلا ما ينسب للعثمانيين الأتراك الذين غيروا في عهدهم من الرسم ــ.

وقد اختلفوا في حكم الرسم فأوجبه بعضهم، ومنعه آخرون. والموجبون يرون أنه توقيف، وهم يدافعون عما يخالف قواعد الإملاء، ويوجهون اختلاف الرسم باختلاف المعنى، والمانعون احتجوا بوقوع الجهال في تحريف القرآن.

وأرى التوسط في اعتماد الأصل من حيث المحافظة على الخط القديم بسبب تواتره وللاطمئنان على أصله وللاستفادة من نسخه، فإذا تعذرت القراءة به تحول إلى الخط الذي تتيسر القراءة به، ويندفع به التحريف عنه.

ولا بأس بصنيع من يجمع بين حسنتين فيكتب بالخطين أو يكتب بالخط القديم ويثبت فروق الخط المعهود[١].

* * *

أما ترتيب الآيات في السورة، وترتيب السور في المصحف، فهو على وفق ترتيب التلاوة المتواترة، لأن جمع السطور قيد لجمع الصدور، وهذا بالنسبة للمصحف الإمام الجامع.

أما المصاحف الخاصة المنسوبة لأشخاص من الصحابة فليست ملتزمة بالترتيب، إما بسبب كتابتها حسب نزولها، أو لتقدم سماع أصحابها.

---

(١) راجع البحث الخامس من مدخل تفسير سورة فصلت، لمحمد صالح، مخطوط.

— ٤ —

تعريف القرآن والسورة والآية

التعريف هو بيان موجز يضم ماهية الشيء المعرف، وقد يتضمن التعريف الأسباب والشرائط أو النتائج وأموراً ثانوية لا تدخل في الماهية دخولاً وثيقاً جوهرياً..

وقد حصل بعض هذا في تعاريف كثيرة من أصول العلوم الاسلامية وفروعها، وبغض النظر عن الصياغة اللفظية الركيكة بياناً، أو المسجوعة بلاغةً، فإن هذه التعاريف لم تكن دقيقة في الدلالة، ولم تكن جامعة للأركان والأصول الجوهرية، ولا مانعة من الاختلاط وتداخل الحدود. ومن أسباب ذلك أن بناء التعاريف كان في مراحل الصراع الفكري، والجمود النظري على امتداد خلافات المذاهب الفقهية، وشبهات الفرق العقدية.

وما يجب الوقوف عنده في قضية التعاريف هو الاختصار والاقتصار، أعني الاختصار في العبارة، ثم الاقتصار على الأركان التي تحدد الماهية، من جنس ونوع وصفات جوهرية، دونما اعتبار باللازم والمقتضي، أو السبب والأثر، ودون انحياز للدفاع عن مشرب، أو الاندفاع في الهجوم على مذهب...

ولو أننا ألقينا نظرة على التعريف المشهور للقرآن لعرفنا مدى القصور والتجاوز في التعريف. والتعريف المشهور للقرآن هو:

«كلام الله، القديم، المنزل، على الرسول محمد، الموحى به، بواسطة الأمين جبريل، المتحدَّى بأقصر سوره، المعجز للثقلين من الإنس والجن، المتعبد بتلاوته، المتواتر في نقله، المكتوب، المجموع بين دفتي المصحف، المبدوء بالحمدلة، المختوم بالناس.

ومما يرد على هذا التعريف جعله البداية بالحمدلة، وأكثرهم يرى البداية بالبسملة، وكذا إدخال القدم المقابل للخلق — وهو نزاع المعتزلة — بينما قضية التعبد والتواتر والتحدي والإعجاز والكتابة والجمع في المصحف..

.. كل هذه القضايا زائدة على الحد المفروض المشروط، وفي مقابل هذه

الزيادة أهملت قضايا جوهرية الأساس، نجدها لدى المقارنة بالتعريف الذي نراه للقرآن وهو: «آخر كتب الله، المنزل بواسطة جبريل، على آخر الرسل، بلسان العرب، لهداية الناس.

وقد تضمن التعريف الأصول الجوهرية، والجوانب الأساسية، من بيان للمصدر المنزِّل سبحانه. ومن نزل به، ومن أنزل عليه، ومن كلف به من الناس، ومبناه العربي لغة، ومعناه وغايته في الهداية بشارة ونذارة.

والتعريف المختار كما ينطبق على القرآن كله، فإنه ينطبق على أقله، فيشمل الآية الواحدة، كما يشمل السورة كذلك.

* * *

والسورة يحسن تعريفها بما يتناسب مع ما فوقها من القرآن كلاً، وما دونها من الآية جزءاً، ولذا نبدأ بتعريف الآية وهي: جملة من الحروف القرآنية مختومة بفاصلة. وقد روعي في التعريف الفاصلة وهي نهاية الآية، أو رأس الآية، وأهمية ذلك أن العدد يعتبر بها، والوقوف سنة عليها، وفيها ميزان التناسب الصوتي، كشأن الروي في الشعر، والقرينة في السجع.

والمراد من الحروف، الحروف الهجائية التي يبنى منها الكلام، وليس المراد المعنى الموسع الذي يدخل فيه القراءات المعروفة، أو يدخل فيه القرآن كله.

* * *

أما تعريف السورة بناء على التعريفين السابقين فهو:

جملة آيات قرآنية مفصولة بالبسملة.

ويخرج عن حد التعريف سورة براءة ـ التوبة ـ التي بدئت دون بسملة، حيث ألحقت بسورة الأنفال، وعدت معها من السبع الطوال. وقد علل ذلك بأن الرسول ﷺ توفي قبل بيان موضعها. والله أعلم.

ـ ٥ ـ

تاريخ النزول ـ المكي والمدني ـ

لا يوجد تحديد زمني دقيق لنزول كل سورة وآية إلا في القليل وأقل القليل، وحبذا لو وجد في جميع القرآن لأهمية التاريخ في التدرج في تربية الأشخاص، وفي

تشريع الأحكام. وما وصلنا محدداً كان بسبب اقترانه بذوات معروفة، أو أحداث مشهورة. ولذا لم يلق هذا العلم ــ على الرغم من أهميته ــ ما يستحق من اهتمام، والاهتمام يكاد ينحصر في التميز بين مرحلتين زمنيتين هما:

ــ ما نزل قبل الهجرة من مكة وهو التنزيل المكي.

ــ ما نزل بعد الهجرة إلى المدينة وهو التنزيل المدني.

ولكل من هاتين المرحلتين ضوابط وخصائص للتميز بينهما، ولكن العماد في التميز هو النقل التاريخي لا غير.

وقد دخل تاريخ النزول تحت علم من علوم القرآن هو أسباب النزول، ومعلوم أنهم لم يلتزموا في أسباب النزول، بالمنهج التاريخي، بل توسعوا فيها حتى جعلوا التفسير بالمناسبة، والتوضيح بالمثال من جملة أسباب النزول، ويعد مثل هذا من السبب الضمني. أما ما نصوا على سببيته فهو السبب الصريح كالجواب عن سؤال معين، والبيان لشخص معروف، والحكم في واقعه مشتهرة.

والقرطبي ممَّن ذهب إلى أن سورة الرعد مدنية إلا قوله ولو أن قرآنا سيرت... الآيتان ونسبه لابن عباس وقتادة (١).

وبعكس ذلك ما نقل أبو حيان عن عطاء أنها مكية إلا قوله: «ويقول الذين كفروا لست مرسلاً. وعن غيره إلا قوله: «وهو الذي يريكم البرق» إلى قوله: «دعوة الحق» (٢).

وزاد الرازي: سوى قوله تعالى: «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة». وقوله: «ومن عنده علم الكتاب» (٣).

وظاهر أن الاختلاف كبير يصل للمعارضة والمناقضة، ولا يحسمه الضوابط والخصائص الموضوعة للتميز بين المكي والمدني وإن كان يستأنس بها حتى تميل بنا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٧٨/٩ لمحمد بن أحمد القرطبي ط: دار التراث العربي.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ط دار الفكر ٣٥٨/٥.

(٣) التفسير الكبير «مفاتح الغيب...» للفخر الرازي ط العلمية بطهران ٢٣٠/١٨.

إلى القول بمكية السورة، ومن هذه الضوابط والخصائص ما هو موجود في المبنى اللغوي وأسلوب التعبير، كالمقابلات بين الصفات حيث تتكرر بصورة ثنائية.

ومنها ما هو في المضمون المعنوي كالعناية بأسس العقيدة، وتصوير مواقف الكافرين، وتثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم.

ولقد وددت لو استعمل تعبير «مناسبة النزول» بدلاً من «سبب النزول» لئلا يرد ما يرد من التعلق والملازمة بين السبب والمسبب وجوداً وعدماً، وليس كذلك نزول القرآن، لأن عدم وقوع هذه الأسباب لا يعني عدم نزول القرآن بالضرورة، بينما المناسبة عامة تشمل معنى السببية كما تشمل التفسير، ولست أعني بقولي هذا الغاء مصطلح «سبب النزول» فلا مشاحة في الاصطلاح.

وإنما المراد التنبيه إلى حقيقة مدلوله، وأن ظاهر السببية غير مراد.

وسورة الرعد من السور التي اختلف حولها، والخلاف فيها وصل إلى درجة الحكم بمكيتها، وبمدنيتها، وبمكيتها مع اشتمال المدني، وبعكسه، أي بمدنيتها مع اشتمال المكي.

ومثل هذا من العجائب الغرائب..

— ٦ —
تسمية سورة الرعد، وبيان فضلها

ورد التصريح باسم «الرعد» في الآية الثالثة عشرة في قوله تعالى: ﴿ويسبح الرعد بحمده﴾.

وفي معظم السور القرآنية نجد المناسبة بين التسمية وما يرد في السورة، سواء كانت التسمية اسماً علماً، أو فعلاً حدثاً، أو حرفاً، أو وصفاً من الأوصاف.

وقد تتعدد الأسماء للسورة الواحدة وذلك لتمييزها عن مشاركة غيرها، وللتعريف بمضمونها من خلال دلالات أسمائها.

وكذلك لتشريفها على حد قولهم: إن كثرة الأسماء دلالة على شرف المسمى.

* * *

أما فضل السور وفي ذلك أحاديث الفضائل وقد أثير حول رواياتها كثير من شبه الضعف والوضع...

والمفسرون عامة تساهلوا في نقلها والسكوت عليها.

فمما ورد في سورة الرعد الأثر الذي نقله الجمل في حاشيته، ومضمونه: تسهيل خروج الروح بقراءة سورة الرعد عند المحتضر، والله أعلم بالحق والحقيقة [(١)].

ونقل الطبرسي في تفسيره:

«عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: من قرأ سورة الرعد أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل سحاب مضى وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وكان يوم القيامة من الموفين بعهد الله تعالى. وقال أبو عبد الله (ع) من أكثر قراءة الرعد لم يصبه الله بصاعقة أبداً، وإن كان مؤمناً أدخل الجنة بغير حساب، وشفع في جميع من يعرفه من أهل بيته وإخوانه» [(٢)].

— ٧ —
بيان عددي بالآيات والكلمات والحروف

المشهور في سورة الرعد:
أن عدد آياتها أو فواصلها: ٤٣ ثلاث وأربعون آية، أو فاصلة.
وعدد الكلمات: ٨٥٥ ثمانمائة وخمس وخمسون كلمة.
وعدد الحروف: ٣٥٠٧ ثلاثة آلاف وخمسمائة وسبعة أحرف.

ولا يسلم العدد من عقدة الخلاف ههنا، والخلاف في عدد الحروف أكبر، وفي الكلمات كبير، أما في الآيات فدون ذلك.

وقد ورد في عدد آيات السورة غير ثلاث وأربعين أقوال: كأربع أو خمس أو

---

(١) أنظر الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان بن عمر العجيلي «الجمل» ٤٨٨/٢ وانظر فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لمحمد بن علي الشوكاني ط المعرفة والفكر ٦٣/٣.

(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن للفضل بن الحسن الطبرسي ٢٧٣/٦ ط دار إحياء التراث العربي ببيروت... وحرف العين بين القوسين بعد: أبو عبد الله (ع) رمز لعبارة عليه السلام.

ست أو سبع أو ثمان وأربعين، والاتفاق هو على إثنين وأربعين، والمواضع المختلف فيها ست، هي في قوله: ﴿أئنا لفي خلق جديد﴾ آية (٥). وقوله: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير﴾ آية (١٦). وقوله: ﴿أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ آية (١٦). وقوله: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ آية (١٧). وقوله: ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ آية (١٨). وقوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ آية (٢٣) [١].

والاختلاف ـ وبخاصة في الكلمات والحروف ـ يرجع حيناً إلى تعدد القراءات المبنية على الأحرف السبعة، وحيناً يرجع إلى تنوع المنهج المتبع، أو الأصل المعتمد في العدد، وذلك حسب اعتبارات: في كيفية الأداء، وطريقة الرسم، أو من حيث الفصل والوصل، وقد يكون الاختلاف سببه قلة الضبط، والخطأ في الإحصاء.

وبعض العلماء يرى أن العدد لهو وعبث ومضيعة للأعمار، ولا ندري كيف يسمع لرأيهم هذا، والشيء المفيد لا يكون لهواً، ثم إذا تعلق به الأجر لم يكن عبثاً ولا مضيعة للعمر، ففي الحديث: من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول: «الم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف [٢].

وللعدد مع هذا أهميته في حفظ القرآن من الزيادة والنقصان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [٣]. والله يقيض من الوسائل ويهيء من الأسباب ما به حفظ هذا الكتاب، وضبط العدد من جملة الوسائل والأسباب، فهو علم من علوم القرآن، يدخل ضمن ما كلف الله به حملة القرآن وخصهم به، لحماية كتاب الله وحفظه، وهذا على مستوى البشر مصداقه قوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ [٣].

---

(١) أنظر السراج المنير للخطيب الشربيني ٢/١٤٣ ط ثانية /المعرفة ببيروت. وانظر ص ٤٠ من: نفائس البيان شرح الفرائد الحسان لعبد الفتاح بن عبد الغني القاضي ط أولى، مكتبة الدار بالمدينة المنورة.

(٢) حديث عبد الله بن مسعود، رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح. أنظر التفسير الكبير ٢/٢ و٨/١١٥.

(٣) سورة الحجر الآية ٩.

ونحن لا نعلم أن الله ينزل ملائكة لحراسة القرآن بأقفال الحديد، ولا أنه يرسلهم يدفعون عنه الباطل من بين يديه ومن خلفه بقوة السلاح.

بل نحن نفهم الحفظ بأن يجعل الصدور أوعية حافظة له كما فعل عامة الصحابة، مع العناية بكتابته كما فعل عثمان ومن معه من خاصة الصحابة، وكذلك التعبد بتلاوته والتنافس في روايته بشكل متواتر مأمون، مع حزام من التفاسير وعلوم القرآن. وهكذا كان حتى غدا القرآن محفوظاً عزيز المنال.

— ٨ —

الاستعاذة والبسملة

الاستعاذة قولة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، كما في قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ [١]. أو قولة: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

كما في قوله تعالى: ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم﴾ [٢].

وظاهر النص في الآيتين مشروعية الاستعاذة عند نزغ الشيطان وعند قراءة القرآن.

والأمر في الدليلين عام فيشمل الصلاة وغيرها، كما يشمل مسمى القرآن قلَّ أو كثر، سواء كان في أول السورة أو في وسطها أو في آخرها.

وحكم الاستعاذة تابع لمقتضى الأمر هل هو الفرضية والوجوب، أم هو الندب والاستحباب، ويبعد أن يكون لمجرد الإباحة لأنه عبادة، والأمر في العبادات لا ينصرف للمباحات.

* * *

والبسملة في حكمها كالاستعاذة في أول كل قراءة على العموم دون تقيد بأولية السورة ودونما تحديد بالصلاة وغيرها.

---

(١) سورة النحل الآية ٨٩.

(٢) سورة فصلت الآية ٣٦.

ودليل المشروعية قوله تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾[١]. والصيغة المشروعة هي: ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

كما بينها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الفاتحة[٢].

وقد قام خلاف حول البسملة المكتوبة في المصاحف في أوائل السور، هل هي من القرآن، أم لا؟ والذين ذهبوا إلى القرآنية اختلفوا في موقعها هل هي آية مستقلة للفصل بين السور، أو هي جزء من الآية الأولى[٣].

---

(١) سورة العلق الآية ١.

(٢) حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أخرجه الحاكم في الإكليل، أنظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري لمحمود بن أحمد العيني. ط: دار إحياء التراث العربي ببيروت ٥/٢٨٩.

(٣) أنظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ط: المجلس العلمي بفاس ١/٥١-٥٣.
وأنظر عمدة القاري ٥/٢٨٦-٢٨٩.
ومزيد بيان عن البسملة والاستعاذة في مدخل تفسير سورة فصلت.

التفسير

ويحوي مباحث تحليلية وموضوعية لآيات السورة في أربعة وعشرين فصلاً:

الفصل	العنوان	الآية
الأول	آيات من التنزيل	١
الثاني	آيات في السموات	٢
الثالث	آيات في الأرض	٣-٤
الرابع	موقف الكافرين	٥-٧
الخامس	علم الله	٨-١٠
السادس	ولاية الله	١١
السابع	آيات في السحاب	١٢-١٣
الثامن	الدعاء والسجود	١٤-١٥
التاسع	الربوبية في الخلق والولاية	١٦
العاشر	مثل الحق والباطل	١٧
الحادي عشر	العمل والجزاء	١٨
الثاني عشر	تذكر أولي الألباب	١٩
الثالث عشر	صفات أولي الألباب	٢٠-٢٢
الرابع عشر	ثواب أولي الألباب	٢٣-٢٤
الخامس عشر	الملعونون	٢٥
السادس عشر	مشيئة الله	٢٦-٢٧
السابع عشر	ذكر الله	٢٨-٢٩
الثامن عشر	تلاوة القرآن	٣٠
التاسع عشر	هداية القرآن	٣١-٣٢
العشرون	القوامة على النفوس	٣٣-٣٤
الحادي والعشرون	مثل الجنة	٣٦-٣٧
الثاني والعشرون	الكتاب المنزل والدعوة	٣٦-٣٧
الثالث والعشرون	وظيفة الرسل	٣٨-٤٠
الرابع والعشرون	محاجة الكافرين	٤١-٤٣

الفصل الأول

آيات من التنزيل

الآية ١

قال تعالى:

ألمر.

تلك آيات الكتاب،

والذي أنزل إليك من ربك الحق.

ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

أولاً
مَباحِث تحليلية

ألمر: تكتب موصولة، وتقرأ مفصولة كما تقرأ أسماء الحروف الهجائية المعروفة، مع تسكين الأواخر وإسقاط الهمز. فيقال: ألف، لام، ميم كما يقال: را.
والمحققون محقون في تفويض علمها إلى الله. وهناك من قال فيها باجتهاد. أو حكى لها روايات. وسنجمل القول عنها في الموضوع الثاني.

تلك: اللام في تلك للبعيد، المفيد للتعظيم، لأن البعيد في علوه عظيم، ويرى كثيرون أن المشار إليه محذوف تقديره تلك آيات السورة أو القرآن (١).
ويحتمل أنه المذكور وهو آيات الكتاب على البيان أو البدل (٢).

آيات: هي آيات التكوين في الآفاق والأنفس، وكذلك آيات التشريع والتكليف بالأمر والنهي. والآية: العلامة الظاهرة، والحجة القاهرة.

الكتاب: بمعنى المكتوب من الكتب وهو الإيجاب والفرض، وقيل من الكتابة بالقلم.
والمراد عند مجاهد: التوراة والإنجيل، وعند قتادة: الكتُب التي كانت قبل القرآن (٣).
وقول الزمخشري في الكتاب أنه السورة مع كون الإشارة في تلك عنده للسورة أيضاً (٣) فيه تكرار وبعد، لأن المعنى يكون: تلك آيات السورة، آيات السورة.

---

(١) التفسير الكبير للرازي ١٨/٢٣٠ وأنظر الكشاف ٢/٣٤٨.

(٢) الفتوحات الإلهية ٢/٤٨٨.

(٣) أنظر الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود بن عمر الزمخشري ط ١ المعرفة ببيروت ٢/٣٤٨.

والذي: الموصوف محذوف تقديره وآيات الكتاب الذي، أو كما قدره القرطبي: وهذا القرآن الذي، واختار غير واحد أن تكون الواو زائدة[(١)].
أو عاطفة صفة على صفة[(٢)].

أنزل: النزول من علو إلى أسفل، إما من السموات باعتبار علو المكان، أو من الله: باعتبار العلو المطلق.
وفاعل الإنزال يأتي وهو قوله: من ربك، وأبهم اهتماماً بالإنزال.

إليك: مرجع الضمير محذوف لأنه معروف، وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

من ربك: «من» ابتدائية أو بيانية لبيان المصدر الحقيقي الأول، والإضافة للتعريف وتفيد التشريف بسبب التخصيص. والرب أو المربي هو الخالق الحافظ المُجازي المعبود.

الحق: مصدر حق يحق، أو هو وصف بمعنى اسم الفاعل معناه الثابت في نفسه المثبت لغيره.
أو هو اسم يراد به نقيض الباطل. وموقعه خبر المبتدأ «تلك آيات» وما عطف عليه «والذي أنزل إليك». ومن جعله خبراً للمعطوف وحده فقد اقتصر وقصر[(٣)].

ولكن: الاستدراك يفيد الاهتمام بما بعده لتهويله.

أكثر الناس: الناس والإنس بالكسر من الأنس بالضم وهو الإيناس لأن الإنسان اجتماعي يألف ويأتلف، أو من آنس بمعنى ظهر، ووجهه مقابلته بالجن المستتر.
والمراد من الناس خصوص أهل مكة، أو عموم الناس.

لا يؤمنون: لا يصدقون لأن الإيمان في الأصل هو الأمن، ولازمه التصديق والجزم بلا تردد أو تشكك.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٧٨/٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٩٩/٢ ط الفكر، وانظر معاني القرآن ٥٨/٢ ليحيى بن زياد الفراء ط /عالم الكتب ببيروت.
(٣) البحر المحيط ٣٥٩/٥.

ثانياً
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ الفواتح القرآنية بالحروف الهجائية.

٣ ــ آيات الكتاب في التشريع والتكوين.

٤ ــ الكتاب المنزل ومسألة الخلق والقدم.

٥ ــ الحق المطلق والحق النسبي.

٦ ــ القلة والكثرة في ميزان الايمان.

ـ ١ ـ
المعنى العام

فاتحة الرعد في آيات التنزيل وهو يتناسب مع خاتمة يوسف [١].

ونجد وجوه الارتباط بين الفاتحة والخاتمة ممثلة في الحديث عن القرآن وما تقدمه من كتب، وبيان موقف الناس.

وقد افتتح الله سورة الرعد بأربعة حروف هجائية لا علم لنا بمعناها.

وقرر تعالى أن ما أنزله على رسله من كتب هو الحق المطلق، ثم ختم الآية ببيان موقف الناس بين أقلية مؤمنة وأكثرية كافرة.

ـ ٢ ـ
الفواتح القرآنية بالحروف الهجائية

اختلف في الحروف الهجائية في فواتح تسع وعشرين سورة منها «المر» في سورة الرعد.

والخلاف النقلي لا يقل عن الخلاف العقلي بل يزيد، فقد تعددت الأقوال، وتنوعت الأفهام، وامتد الاختلاف حتى وصل إلى التناقض، واتسع التناقض حتى دخل في الكفر عند من يرى نفي قرآنيتها.

وهو كفر يوازي كفر من يرى قرآنيتها ويقول في معاني بعضها: ظهور الحق ـ يعني الله ـ في صورة محمد [٢].

---

(١) ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء. وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ (سورة يوسف الآية ١١١).

(٢) أنظر المبحث العاشر من مدخل تفسير سورة فصلت.

ويستدل بمثل هذا على الفناء بين الرب والعبد، وحلول الرب في الخلق، والقول بوحدة الوجود.

وفي مقابل هؤلاء ذهب آخرون إلى أن الفواتح من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

وبين الطرفين أقاويل ونقول كأن تكون الحروف رموزاً لكلمات ومن ذلك ما نسب لابن عباس رضي الله عنهما في «الر» قال معناه: أنا الله أعلم، وقال في رواية عطاء: أنا الله الملك الرحمن[١] ولكن الاقوال المحكية، والنقول المروية لا تصح نقلاً ولا تسلم عقلاً فالله أعلم بحقيقة المراد.

ـ ٣ ـ

آيات الكتاب في التشريع والتكوين

إن آيات الله الدالة على ذاته وصفاته، أو المبينة لحكمه ومراده، كثيرة لا يحصيها عدد: ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾[٢].

وفي كتاب الله المنزل عرض كبير للآيات، بعضها في الخلق والتكوين، وبعضها الآخر في التكليف والتشريع، وآيات التكوين في الآفاق من أرض وسموات، وفي الأنفس من فرد ومجتمعات. وآيات التشريع معروضة في الأمر والحظر. وتساق الآيات في كتاب الله دلائل حق وشواهد صدق فهي أدلة على أن الله في ذاته وأسمائه وصفاته وأخباره ووعده ووعيده حق، وأن نبيه المرسل أمين صادق فيما ينقله عن ربه وفيما يدعو الناس إليه.

وكل موجود في هذا الوجود دليل عليه سبحانه، شاهد له تعالى بأنه الرب الأحد في جلاله وجماله وكماله. ومن الذرة إلى المجرة آيات في الدقة والعظمة، ومن الخلية الحية إلى اختلاف الألوان والألسنة والطبائع آيات باهرات لقوم يؤمنون.

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٨/٢٣٠.

(٢) سورة الكهف الآية ١٠٩.

— ٤ —

الكتاب المنزل ومسألة الخلق والقدم

اشتهرت مقالة خلق القرآن في عصر العباسيين الذين اضطهدوا المخالفين لهم في الرأي مدفوعين في ذلك بآراء المعتزلة.

وقضية الخلق ليست معلومة من الدين بالضرورة بل هي اجتهاد غير ملزم لأحد، فالزام الناس بها وحمل العلماء عليها بالقوة هو تعسف في استعمال السلطان، واكراه بغير حق وبغي وطغيان.

ولقد ابتلي المسلمون قديماً وحديثاً بالطغاة البغاة الذين يتجاوزون حدود الحق تحت مختلف الأسماء منها اسم الإسلام نفسه. مع أن الإسلام دين الحق والعدل: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (١) والرأي دين، ولا إكراه من أحد على أحد: ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (٢). ﴿وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ (٣). ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾ (٤).

أما مقالة القِدَم فإنا لا نجد دليلاً صريحاً ينص على وصف القدم للقرآن، بل نجد صفات كثيرة أوصلها بعض العلماء إلى نيف وخمسين اسماً ليس من بينها اسم قديم. وأوصلها آخرون إلى مئة من الأسماء وهي في حقيقة الأمر صفات، ومن بين هذه الصفات صفة النزول، وذكرت في القرآن بصيغ منوعة من تصريفات مادة نزل وأنزل بالتخفيف والتشديد والإفراد والجمع والمعلوم والمجهول...

ويعذر من توقف في هذه المسألة الجزئية التي جرّت بلاء عظيماً. ومبنى الشرع في العبادة النص ولا نص في وصف القديم.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦.

(٢) سورة يونس الآية ٩٩.

(٣) سورة ق الآية ٤٥.

(٤) سورة الغاشية الآية ٢٢.

— ٥ —

الحق المطلق والحق النسبي

الحق باعتبار مصدره هو مطلق ونسبي.

ونقصد بالمطلق الثابت بذاته المثبت لغيره، دون أن يتغير بتغير الأزمنة، أو يتحول بتحول الأمكنة، أو يتعدد بتعدد الأشخاص. بخلاف حال الحق النسبي المنسوب لشخص أو زمان أو مكان.

والحق المطلق يكون في التنزيل كما يكون في التكوين. ومعنى أن التكوين حق مطلق هو أن السنن ماضية لا تختلف ولا تنتقض ولا تتحول ولا تتبدل.

﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [(١)] ومعنى أن التنزيل حق مطلق هو نقضه للباطل الزائل الزاهق ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [(٢)].

أما الحق النسبي فهو المنسوب إلى شخص قد يختص به وحده، أو ينسب إلى مكان أو زمان يتغير ويتبدل تبعاً لأحوال الناس في أعرافهم وظروف معاشهم وطبيعة أرضهم وبيئتهم.

والمقولة المشهورة: «إن الحق يتعدد» مقصود بها هذا الحق، لأن معناه الاجتهاد، والناس في الاجتهاد يختلفون حتى يكون لهم في المسألة الواحدة عدة أحكام أو حقوق تبعاً لوجهات النظر، وهذا يدخل في كثير من أحكام الفروع كما نجد في الفقه والعقيدة.

وينبغي أن لا يتجاوز الاختلاف الفروعَ إلى الأصول التي نسميها «المعلومة من الدين بالضرورة».

لأن الاختلاف فيها يعني تعدد الدين ولا يعني تعدد المذاهب في الدين الواحد.

---

(١) سورة فاطر الآية ٤٣.

(٢) سورة فصلت الآية ٤٢.

ـ ٦ ـ

القلة والكثرة في ميزان الإيمان

إذا كان للعدد أهيمة في ما فيه مجال للاختيار كانتخاب أمير لركب، وإمام لصلاة ونحو ذلك فإن العدد لا يعني شيئاً يذكر في تميز الحق عن الباطل، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾ [(١)]. وفي أعظم قضايا الحياة وهي قضية الإيمان تجد الأمر ذاته ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [(٢)].

ونظراً للتقارب بين الهوى والباطل فإن أهل الباطل كثيرون، أما الإيمان فهو حق فيه مرارة لا يستسيغها كثيرون، وفيه مشقات لا يطيقها إلا قليلون من الصابرين المؤمنين الذي تجاوزوا حظوظ النفس ودوافع الهوى، فلم يعمهم رياء ولا طمع، ولم يصمَّهم حمية أو جهالة أو جاهلية.

والالتزام بالايمان مع أداء حقه يعني العزيمة على القيام بجملة كبيرة من التكاليف تعتمد على إخلاص الباطن، واستقامة الظاهر من قلب ولسان وجوارح.

وليس ذلك بالمطلب اليسير أو المبلغ القريب، فقد يصل بذل الجهد إلى حد التضحية بالروح، وإلى حد تقديم المال شقيق الروح.

ولذلك فالقليلون هم الذين يوفون الإيمان حقه ممن رزقهم الله الإخلاص والصبر والشكر ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [(٣)]. ولقد روي أن النبي يأتي يوم القيامة ومعه الرجل والرجلان والنبي يأتي ليس معه أحد[(٤)].

والواقع شاهد لما نراه ونرويه: فسكان الأرض آلاف من ملايين البشر أقل من ربعهم مسلمون.

ونسبة المؤمنين في المنتسبين للإسلام أقل من ذلك بكثير.

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٧٠.

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٣.

(٣) سورة سبأ الآية ١٣.

(٤) أخرجه الترمذي عن ابن عباس في صفة القيامة، انظر سنن الترمذي «الجامع الصحيح» لمحمد بن عيسى الترمذي.

الفصل الثاني
آيات في السموات
الآيــة ٢

قال تعالى:

الله الـذي رفـع الـسـمـوات بـغير عـمـد تـرونها
ثم اسـتـوى على الـعـرش،
وسـخـر الـشـمـس والقمر، كل يجري لأجل مسمى،
يدبر الأمر،
يفصل الآيات،
لـعـلـكـم بـلـقـاء ربـكـم تـوقـنـون.

أولاً
مَباحِث تحليلية

الله: صدر بالذات العلية تعظيماً، والعظيم له الصدارة. وأصل «الله»: إله بمعنى مألوه أي معبود عرّف بأل وسهلت الهمزة. من أله يأله بالفتح: عبد،
ومنهم من يرى أنه من «ألِه» بالكسر بمعنى تحير وآخرون يرون أنه من «لاه» بمعنى احتجب. كما في المفردات.
والأول بعيد، والآخر وجيه.
ويرى الكوفيون أن «الـ» للتفخيم
ورُدَّ بعدم نظيره في كلام العرب(١).

الذي رفع: رفع الشيء: تعليته عن مقره أو تطويله أو تشريفه كما في المفردات وغيره.

السموات: جمع سماء ما علا الأرض، وإنما جمعت لتعدد جهات العلو في ذاتها لكونها طبقات، أو بالنسبة لأنحاء الارض المتعددة، وكل ناحية تعلوها سماؤها.
وإذا كانت «الـ» للعهد أمكن حملها على السموات السبع المذكورة في مواضع كثيرة من القرآن.

بغير عمد: العَمَد بفتحتين جمع عمود وعماد، وهو الخشبة التي ترفع الخيمة وتمسكها.

ترونها: من الرؤية البصرية و«ها» إما أن تعود إلى السموات وموقع جملة «ترونها» حال من السموات فتكون رؤية السموات مثبتة والعمد منفية،

---

(١) معنى لا إله إلا الله لمحمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق علي القره داغي ط: دار النصر بمصر.

وإلى هذا القول ذهب الكثرة. أو أن «ها» تعود للعمد وجملة «ترونها» صفة للعمد فتكون الرؤية منفية والعمد مثبتة، وإلى هذا ذهب القلة، منهم مجاهد قال بغير عمد ترونها أي: بعمد غير مرئية [(١)].

ثم: عطف يفيد التراخي في الزمن والرتبة فما بعدها معظم وإن تأخر زمنه، فرتبة الاستواء أعظم من رتبة رفع السماء.

استوى: من المساواة والمعادلة، تقول: استوى محمد وأحمد، أي تساويا، ومتى عدي بإلى اقتضى معنى الانتهاء، أو بمعنى استقام له الأمر، وكذا إذا عدي بعلى، كما أفاد الراغب في مفرداته وقال: ومتى عدي بعلى اقتضى معنى الاستيلاء، أقول وفيه نظر.

على العرش: العرش السرير الذي يجلس عليه العظيم، وظاهر أنه غير الكرسي، فقد ذكرا منفردين وهما في اللغة مختلفان وروي أن الكرسي موضع قدمي الرحمن [(٢)].

وسخر: كلف للخدمة على سبيل القهر والإلزام.

الشمس: نجم مضيء أصفر، وهو أقرب النجوم إلى الأرض.

والقمر: كوكب منير وهو التابع الوحيد للارض. وتسخير الشمس والقمر بنحو الدفء والضوء والحساب.... وغير ذلك كثير: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ [(٣)].

كل: التنوين بدل من مقدر أي كل واحد، أو كل مسخر معهما.

يجري: الجري كالسعي هو المشي السريع ومنه الجارية للسفينة على وجه الماء، والجارية البنت الصغيرة لأنها تجري.

لأجل: أي إلى أجل، والأجل: الوقت. ويستعمل في نهاية الوقت كالموت نهاية وقت الحياة.

---

(١) تفسير مجاهد ٣٢٣/١، تحقيق عبد الرحمن السورتي ط، المنشورات العلمية ببيروت.

(٢) أنظر الجامع لأحكام القرآن ٢٧٧/٢-٢٧٨.

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٤.

مسمى: من التسمية، والاسم أصله السمة والوسم بمعنى العلامة، والأجل المسمى: هو المعلوم المعلم أي المميز بعلامة وأمارة.
والمراد من الأجل المسمى: الليل والنهار الناشئان من دورة الأرض أمام ضوء الشمس ونور القمر، أو المراد: اليوم الآخر، وهو نهاية جري الشمس والقمر.

يدبر: التدبر هو النظر في دبر الأمور لرعايتها وإتمامها.

الأمر: هو أمر التكوين للإيجاد والإعدام كالإماتة والإحياء والبعث والجزاء.
ولفظه مصدر أو اسم جنس يراد به الجمع ليشمل أمور الدنيا والآخرة.

يفصل الآيات: التفصيل من الفصل أي التفريق بين الأشياء لإظهار كل على حدة، والآيات مفصولة عن بعضها كل واحدة مستقلة في دلالتها، كافية في شهادتها لربها. ومن الآيات آية السماء، أو آيات السماء، وآيات الأرض، وآيات الأنفس...

لعلكم: ترجية من الله واقعة لكماله، والترجية من غيره متوقعة لعجزه.

بلقاء ربكم: اللقاء المقابلة والمواجهة، وهو بعد الموت في اليوم الآخر.

توقنون: من اليقين وهو أخص من العلم لقولك: علم يقين، والمطلوب الأسمى في الإيمان بالله واليوم الآخر ليس مجرد العلم بل المطلوب أعلى مراتب العلم وهو اليقين.

ثانيــاً
مباحث موضوعيــة

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ أسماء الله وصفاته.

٣ ــ ماهية السموات.

٤ ــ وجود العمد وعدمها.

٥ ــ الاستواء المعلوم.

٦ ــ خضوع الكون.

ـ ١ ـ

المعنى العام

صدر السورة كان في آيات التنزيل، والحديث هنا في آيات التكوين، والمناسبة ظاهرة لاتحاد الموضوع في الموضعين.

والله يعظم ذاته بتعداد صفاته وآثار أفعاله، من رفع للسموات عالياً بعماد غير مرئية، ثم الاستعلاء على مخلوق عظيم هو العرش الذي يعلو على أرضنا وسماواتنا، وتسخير الشمس والقمر يجريان بحسبان لصالح الانسان.

وهذا كله بعض أمره وكل الأمور من تدبيره، وهو تعالى يفَصِّل الآيات فيفْصِل بعضها عن بعض، ليكون في كل شيء آية تقود الإنسان لمعرفة الرب، وبلوغ اليقين في الحساب والجزاء يوم اللقاء، حيث القيام بين يدي رب العالمين.

ـ ٢ ـ

أسماء الله وصفاته

سيق في الآية جملة من الأسماء والصفات، فن الاسماء: الله، والرب. ومن الصفات: رفع، واستوى، وسخر، ويدبر، ويفصل.

وسوق الصفات يراد منه التعريف بالرب، ومعرفة الرب هو أصل العبادة، وعلة الخلق: ﴿وما خلقت الجن والأنس إلاّ ليعبدون﴾[١]. وروي قراءة أو تفسيراً: (إلا ليعرفون)[٢] أي ليعرفوا أسماءه وصفاته.

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٣٨/٤ وفي طبعة الفكر ٢٣٩/٤.

وفي القرآن والسنة أسماء كثيرة تتضمن صفات تضاف إلى صفات أخرى مذكورة في القرآن والسنة. والمشهور من الأسماء تسعة وتسعون عدّدها الترمذي في سننه[١]، وأجملها غيره كالبخاري في صحيحه[٢]، وهذه الأسماء هي الحسنى التي شرع الدعاء بها كما قال تعالى: ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾[٣].

وحديث السؤال بالأسماء يشير إلى كثرتها وعدم تحديدها بعدد، بل منها المصرح به في القرآن، ومنها المصرح به في السنة، ومنها ما أنزل على الأنبياء السابقين ومنها ما خص به عباده الصالحين، ومنها ما استأثر به سبحانه في علم الغيب[٤].

والواجب إزاء الأسماء إثباتها بذواتها، وإثبات صفاتها، وإثبات آثارها.

والإيمان بكل ذلك على ما يناسبه تعالى في الكمال جمالاً وجلالاً.

ـ ٣ ـ

ماهية السموات

آية الأنبياء الثلاثون تشير إلى قرب السموات، وأنها تدرك كما تدرك الأرض التي يعرفها الانسان ويحيا عليها فواحدة فوقه مرفوعة، وأخرى تحته موضوعة.

قال تعالى: ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾[٥].

وآيات أخرى تدعو إلى النظر وإرجاع البصر إلى السماء كرة بعد كرة مع التصريح بالرؤية، وسواء أكانت رؤية بصرية أم علمية فهي لشيء يمكن إدراكه بذاته أو بآثاره.

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة في كتاب التوحيد، أنظر صحيح البخاري لمحمد ابن اسماعيل البخاري.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٨.

(٤) أنظر صحيح مسلم، لمسلم بن حجاج، ورواه أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود وانظر فتح القدير ٢٦٩/٢.

(٥) سورة الأنبياء الآية ٣٠.

فهل النجوم مما يمكن ادراكه بالحواس والإحاطة به بالفكر والله يقول: ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾[١]. ويقول سبحانه: ﴿ والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب ﴾[٢]...... إن الشمس تضيء السموات، والقمر ينيرها كذلك، كما تصرح به الآيتان من سورة نوح: ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾[٣]. أي سراجاً يضيء السموات كالقمر.

ومعلوم أن ضوء الشمس ونور القمر لا يصلان إلا إلى بُعْدٍ قريب، غير بعيد عن الأرض، وذلك لضعف ضوء الشمس وان كان أقوى من نور القمر، فهي نجم ضعيف الضياء بالنسابة للنجوم الزرقاء الأحدث تكويناً، وكذلك هي صغيرة بالنسبة لما هو أعظم منها في الكتلة والقوة، وحتى النجوم الزرقاء العظمى لا يصل إلينا من ضيائها إلا القريب منها إلى أرضنا.

وعلى هذا فإن فهم كون السماء هي النجوم أو أن النجوم دون السموات فيه إشكال كبير.

وقد أورد ابن كثير ــ رحمه الله ــ الأبعاد بين السموات قال:

وجاء عن بعض السلف أن ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبُعْدَ ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء... وبعد ما بينها (السماء الدنيا) وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية... الخ.

قال في التعليق:

«مسافة الأبعاد بين السموات والأرض... لا يصح منها شيء»[٤].

---

(١) سورة الواقعة الآيتان ٧٥-٧٦.

(٢) سورة الطارق الآيتان ١-٣.

(٣) سورة نوح الآيتان ١٥-١٦.

(٤) أنظر تفسير القرآن العظيم لأبن كثير ٤٩٣/٤ ــ ط المنار ١٣٤٦.

— ٤ —

وجود العمد وعدمها

يتوقف وجود العمد ونفيها — حسب المفهوم من اللغة — على إعراب لفظ «ترونها» هل هو صفة للعمد الموجودة والمنتفي هو الرؤية فحسب، أم هو حال من السموات، فالرؤية للسموات والنفي للعمد رؤيةً ووجوداً. والظاهر هو الأول لأمور منها:

— أنه يرد على الثاني أن السموات ترى وهي لا ترى بالبصر إلا إذا أريد الرؤية العلمية.

— إن نظام الأسباب في الكون يوجب وجود العمد تحت السماء المرفوعة فقد جعل الله لكل شيء سبباً، ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ [١].

﴿ان الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ [٢].

— إن أهل العلوم التجريبية ينفون الفراغ ويحكمون باتصال أجزاء الكون ويقولون: إن المادة ممتدة بين الأجرام تصل بعضها ببعض حاملة ومحمولة وإن كانت لا ترى بالعين نظراً لخفتها وتمددها.

— إن تفسير العمد بالجاذبية الفلكية قريب من العقل الصحيح، ولا ينقضه النقل الصريح.

اللهم إلا إذا صحت الرواية متناً وسنداً عن ابن عباس كما نقل صاحب البحر قال: «ليس من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها» [٣].

وهذا مقابل بقول من يرى أن العمد جبل تعتمد السماء عليه كما في البغوي «زعم أن عمدها جبل قاف وهو محيط بالدنيا والسماء عليه مثل القبة» [٤]. بل هو مقابل بما روي عن ابن عباس نفسه قال: وما يدريك أنها بعمد لا ترى [٥].

---

(١) سورة الحج الآية ٦٥.

(٢) سورة فاطر الآية ٤١.

(٣) البحر المحيط ٣٦٠/٥.

(٤) معالم التنزيل بهامش الخازن للحسين بن مسعود البغوي ط /ثانية الحلبي ٣/٤.

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لعبد الحق بن عطية ١١٠/٨ ط قطر ١٤٠٥-١٩٨٥.

ـ ٥ ـ

الاستواء المعلوم

المراد من المعلوم أنه معلوم في لغة العرب أو منقول عن الأولين، وقد ذكرنا أن الاستواء لغة هو التساوي، وان التعدية بعلى وبإلى بمعنى استقام له الأمر، أو هو بمعنى الاستيلاء، وأنكر القولَ الأخيرَ بعضُ الأجلةِ كابن الاعرابي ـ وهو إمام في العربية ـ.

والمنقول عن السلف من المعاني استقر وصعد وارتفع وعلا، والمعاني الأربعة والاستيلاء خامسها، هي المشهورة في معنى الاستواء. والاستيلاء أبعدها لأنها لا تكون إلا بعد ملك لغيره، وإذا دار اللفظ على أكثر من معنى وجب الإعراض عما اشتبه منها. وأقرب المعاني هو الاستعلاء فـ «استوى على العرش» معناه: أنه تعالى علا عليه وهو قول مجاهد[1]، وقرب هذا المعنى لكون العليّ من الأسماء الحسنى، فيرجع الوصف علا إلى الاسم العليّ. بينما لا نجد من الأسماء المعروفة: المستوي والمرتفع والصاعد والمستقر، ويؤكد المذهب التعديةُ بعلى.

والعلو في الاستواء مطلق يتنزه فيه سبحانه عن حد المكان، ومظلة الزمان. لأن المكان والزمان من قيود المخلوقين، والله قد خلقهما فلا يقيد بهما.

أما دعوى التنزيه الملجئة إلى الاستيلاء فرجوحة محجوجة، وذلك أن ما يوصف الله به يثبت له على ما يليق به، فلا ترد شبه الجهة والتجسيد.

ثم إن استواءه تعالى على العرش يعني استواءه على ما دونه بالأولى، لأن أرضنا وسماواتنا يحيط بها العرش ويعلو عليها.

ـ ٦ ـ

خضوع الكون

مضمون الآية أن هذا الكون خاضع طائع في جلية المنظور، وخفية المستور،

(١) انظر المحرر الوجيز. ط قطر ١١٣/٨.

من سموات مرفوعة، وعماد رافعة، وشمس وقمر يجريان بحسبان، ومسخران يمدان الأحياء بالدفء والضياء.

والمخلوقات كلها مدبَّرة، متصلة بآيات مفصلة، بل الكون كله مدبَّر «مبرمج».. كل خليّةٍ في حي، وكل ذرة في مادة، وكل هباءة.... واجتماع خلايا الحياة، وذرات الجمادات في أصغر وأكبر الموجودات، هو في غاية الدقة والإحكام، وهي في غاية الطاعة والخضوع.

وسيأتي مزيد من هذا الحديث في الفصل الثامن[1].

(١) أنظر الموضوع ٤ الفصل ٨ ص ١٣٧-١٣٨.

الفصل الثالث[٧]

آيات في الأرض

الآيتان ٣ ـ ٤

قال تعالى:

وهو الذي: مد الأرض،
وجعل فيها رواسي وأنهاراً،
ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين،
يغشي الليل النهار،
إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.
وفي الأرض: قطع متجاورات،
وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد،
ونفضل بعضها على بعض في الأكل،
إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.

أولاً
مباحث تحليلية

وهو الذي: أضمر لفظ الجلالة تعظيماً له سبحانه.

مد الأرض: أي جعلها ـ كما يقول ابن كثير ـ متسعة ممتدة في الطول والعرض[١] ويصلح القول باضافة البعد الثالث إلى الاتساع والامتداد وهو الارتفاع أو العمق، يقول الراغب وأكثر ما جاء الامداد في المحبوب والمد في المكروه.

وجعل فيها: أي في الأرض والجعل فعل عام يستعمل واسعاً «بمعاني شتى كخلق وقدر وأنزل وصير» وغير ذلك والمناسب هنا أنزل أو ألقى كما فسرت في قوله تعالى: ﴿وألقى في الأرض رواسي﴾[٢].
وقوله: ﴿وألقينا فيها رواسي﴾[٣].

رواسي: جمع راسية من رسا بمعنى ثبت واستقر، ومنه رست السفينة.
ويقدر معها «من فوقها» لقوله تعالى في فصلت: ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها﴾[٤]. والمفسرون فيما أعلم يقولون الرواسي هي الجبال مع أن الجبال ثابتة من تحت والرواسي ملقاة من فوق، ومنعها من الصرف لكونها نكرة منصوبة على صيغة منتهى الجموع، وتنكيرها للتعظيم أو التكثير كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات﴾[٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ط الفكر ٥٠١/٢٠ ومعاني القرآن للفراء ص/٥٨/٢.
(٢) سورة النحل الآية ١٥، سورة لقمان الآية ١٠.
(٣) سورة الحجر الآية ١٩، سورة ق الآية ٧.
(٤) سورة فصلت الآية ١٠.
(٥) سورة المرسلات الآية ٢٧.

وأنهاراً: جمع نهر، وأنهر الدم: أساله وصبه، وسمى النهر بذلك لأن الماء يسيل في واديه، والنَّهار كذلك لأن النور يسري في يومه.

ومن كل الثمرات: فيه تقديم للاهتمام بالثمرات، وتأخير ما بعده من الزوجية للقصر عليها والتشويق إليها، والثمرات جمع ثمر واحده ثمرة وهو نتاج الشجرة، ويطلق على حاصل كل شيء.

جعل فيها زوجين: الزوجان مثنَّى زوج، والزوج يطلق على الفرد متى كان له مقابل من جنسه، ويطلق على الاثنين. وهو يذكر ولا يؤنث إلا لغرض التميز بين الذكر والأنثى كما في علم الفرائض، فيقال زوج وزوجة.

اثنين: التنصيص على «اثنين» لدفع احتمال كون الزوجين أربعاً.

يغشي: يغطي، والغشاء هو الغطاء وزناً، ومعنًى.

الليل النهار: الليل في الظاهر غشاء النهار، فالمفعولان مرتبان الليل: المفعول الأول والنهار: المفعول الثاني، أو يكون في الكلام تقديم وتأخير فيكون النهار غشاء الليل، بدلالة قوله تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾ (١).

ظاهره أن النهار غطاء سلخ عن الليل كما يسلخ الجلد الذي يغطي البدن فيحل الظلام.

والقول الأول يؤخذ من طريق المفهوم المخالف، والمعنى أن الليل غطاء سلخ عن النهار فإذا هم مبصرون.

إن في ذلك: المشار إليه المذكور قبله من مد الأرض وجعل الرواسي وتعاقب الليل والنهار.

لآيات: اسم «إن» والتنكير والتأخير والتأكيد باللام لتعظيم الآيات.

لقوم: القوم هم الرجال لقيام الجماعة بهم في الحماية والإعاشة، ويدخل النساء تبعاً فاستعمل القوم بمعنى الجماعة ذكراناً وإناثاً.

---

(١) سورة يس الآية ٣٧.

يتفكرون: الفكر: وظيفة العقل ومقلوبه يفركون، والفكر فرك للعقل قيل كأنهم يفركون عقولهم ليعلموا ما جهلوه ويتذكروا ما نسوه، وعبر بالمضارع لإفادة استمرارهم في استعمال فكرهم لعظم الآيات، وكثرة ما فيها من عبر وعظات.

وفي الأرض: في تقديم الأرض وتصديرها تعظيم لشأنها وما فيها من آيات، وفي تأخير ما بعدها تشويق إليه وللتدبر في دلائله. والأرض: المكان في الجهة السفلى يقابل السماء في الجهة العليا.

قطع: جمع قطعة، والقَطْع: الفصل بين الشيئين، والأرض قطع لأنها مفصولة تبعاً لأنواعها وهيئاتها وألوانها.

متجاورات: التجاور والجوار: القرب مكاناً.

وجنات: جمع جنة وهي البستان سمي جنة لاختفاء الأرض عن العين بالشجر والعشب والبناء، ومادة «جنّ» تستعمل في الاختفاء والاستتار كالجنين في بطن الأم، والمجنون لاختفاء عقله....

أعناب: جمع عنب للثمرة المعروفة، ويقال لشجرتها الكرم، ويطلق على غيرها من الأشجار.

وزرع: مصدر عبر به عن المزروع. وفيها قراءتان بالرفع عطفاً على جنات، وبالجر عطفاً على أعناب.

ونخيل: جمع نخيلة، ونخل جمع نخلة.

صنوان وغير صنوان: بكسر الصاد وضمها قراءتان ولغتان [1].

والصنوان مثنى أو جمع، واحده الصنو بمعنى الفرع، أو هو بمعنى المثل كما ذكر الطبري وغيره، دليلهم حديث: أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه [2]، توجيهه أن العم مثل الأب وهما فرعان للجد. والصنوان ذات ساقين أو سوق كثيرة، وغير صنوان: القائمة على ساق واحدة.

---

(١) الكشاف ـ ١٥٩/٢.

(٢) جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ط: دار المعرفة ٦٤/١٣ الجامع لأحكام القرآن ٢٨٢/٩ تفسير القرآن العظيم ط الفكر ٥٠١/٢.

يسق: بالياء والضمير لما تقدم من زرع وأعناب ونخيل أو للأخير خاصة، وقرىء بالتاء والمرجع هو القطع أو الجنات.

بماء واحد: هو ماء المطر، واقتصر عليه لأن الماء أصل الحياة في النبات، وإن كان معه غيره كالتربة والهواء والضياء.

ونفضل: من الفضل وهو الزيادة والفضول كذلك، والأول غلب في المحمود والثاني في المذموم.

بعضها على بعض: مرجع الضمير في بعضها، ومعنى التنوين في بعض للقطع أو الجنات.

في الأكل: الثمرة أو المحصول، وسمي أكلاً لأنه يؤكل، وفيها قراءتان الضم والتسكين والمعنى واحد.

إن في ذلك: المشار إليه ما تقدم وهو التفضيل مع اتحاد الماء.

لآيات: تنوين النكرة للوصف المناسب أي آيات واضحات، أو هو للكثرة والعظمة.

لقوم يعقلون: العقل: الإمساك، ومنه عَقْل البعير أي إمساكه بالعقال، وعقل الانسان يمسكه فيمنعه عما لا يليق به.

وفي قوله: «إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» جملة مؤكدات هي: «إنّ» المؤكدة وتقديم خبرها «في ذلك» على اسمها «آيات» ولام التوكيد في «لآيات» والجملة الاسمية.

والذهاب من الإجمال «للعقلاء» إلى التفصيل في «لقوم يعقلون».

والتوكيدات التي ذكرناها في خاتمة هذه الآية تقال في خاتمة الآية السابقة عند قوله تعالى: (إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون).

ثانيا
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ المد والقبض.

٣ ــ المد والتكوير والدوران.

٤ ــ ماهية الرواسي.

٥ ــ الزوجية في الخلق.

٦ ــ الترتيب الذكري والوقوعي.

٧ ــ أسلوب التقديم والتأخير والحذف والذكر والإظهار والإضمار.

٨ ــ مناسبة الختم بيتفكرون ويعقلون.

ـ ١ ـ

المعنى العام

مناسبة آيات الأرض لما تقدم هو الاشتراك في عرض الآيات الكونية، آيات السماء أولاً، ثم التثنية بآيات الأرض.

والآيات الجديدة نوعان:

الأول: آيات فكرية لا يكفيها مجرد وجود العقل بل ينبغي إعمال العقل بالتدبر والنظر والتأمل، وهذه الآيات هي مد الأرض وجعل الرواسي وجري الأنهار وزوجية الثمرات وإغشاء الليل النهار.

الثاني: آيات عقلية يكفيها وجود العقل الذي يميز الانسان عن الحيوان وشاهد ذلك اختلاف المحاصيل في الثمرات، حيث تجد الأعناب والزرع والنخيل كلاً منها يحمل ثمراً خاصاً به متميزاً في كمه وكيفه، مع أن الماء الذي يسقيها جميعاً هو ماء واحد وكذلك الأرض التي تنبت فيها هي متجاورة.

«وسبحان الرب العظيم الأعلى».

ـ ٢ ـ

المد والقبض

المادة كما تمتد فإنها تنقبض،

في الحالة الأولى، يكبر حجم المادة ويتسع.
وفي الحالة الثانية، يصغر الحجم ويضيق.

وسبب ذلك أن المادة في صورها السائلة والغازية والجامدة هي مخلخلة، بين جزئياتها أو ذراتها من الأبعاد مثلُ الذي بين الأفلاك، مع مراعاة النسبة من أن

لكلٍ ما يناسبه من المسافات أو الأبعاد، فإذا تناقصت هذه الأبعاد تقلصت المادة وانكمشت حتى تلتحم الجزئيات والذرات، وإلى ذلك الإشارة في قوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ [1].

ويمكن تقدير حجم الأرض التي نعيش عليها بعد التحام جزئياتها وذراتها أو عند رتقها قبل فتقها بكرةٍ صغيرةٍ في يد طفل صغير. وبعكس هذا تباعد الذرات والجزئيات بالفتق والامتداد حيث يزداد الحجم ويتوسع إلى حد يصعب تقديره، والاشارة لذلك في قوله تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ [2].

والقرآن يستعمل تعبير المد تارة بالماضي وأخرى بالمضارع وذلك يشير إلى ظاهرة وجود امتدادين، الامتداد الأول عند بداية الخلق، وقد ورد ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ [3]. وكقوله: ﴿والأرض مددناها﴾ [4].

وورد في آيات أخرى معنى الامتداد كالمباركة في قوله: ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها﴾ [5].

أما الامتداد الآخر فهو الواقع في اليوم الآخر كما ذكر في قوله تعالى: ﴿وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت﴾ [6]. والامتداد الأخروي يعلم الله وحده مداه ومنتهاه.

— ٣ —

المد والتكوير والدوران

قال القرطبي في تفسيره [7]. «والذي عليه المسلمون وأهل الكتاب القول

(١) سورة الرعد الآية ٤١.
(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠.
(٣) سورة الرعد الآية ٣.
(٤) سورة الحجر الآية ٩، سورة ق الآية ٧.
(٥) سورة فصلت الآية ١٠.
(٦) سورة الانشقاق الآية ١٠.
(٧) الجامع لأحكام القرآن ــ ٩/٢٨٠.

بوقوف الأرض وسكونها ومدها».

ثم قال: «مد الأرض»: بسط الأرض طولاً وعرضاً.

ونقل مذهب من قالوا: هو دليل على عدم كرويتها.

أقول: قوله ونقله على خلاف ظاهر قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾[١].

وكذلك قوله: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾[٢].

فان هذا الظاهر هو جريان الأرض التي هي محلّ الليل والنهار.

وقوله: «يسبحون» لا يعني السكون والوقوف كما قال القرطبي وغيره، بل هو يعني الحركة من دوران وطيران.

وليس في المد دلالة على عدم الكروية واستدلالهم بالمد قاصر، لأن كمال المد ليس في الجهتين فحسب، بل في الجهات الثلاث كلها طولاً وعرضاً. وكذلك ارتفاعاً أو عمقاً وسمكاً.

فلا يلزم التحديد بالسطح ذي البعدين الطول والعرض وحدهما، فالسطح أو المساحة بعض الامتداد وليس كل الامتداد.

ثم هو مدفوع بالإجماع الذي نقله ابن الجوزي وغيره أخذاً من قوله تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾[٣]. حيث أجمعوا على أن السموات كرات مستديرة بدلالة أن التطابق في كلمة «طباقاً» لا يتم على الوجه الكامل إلاّ في الكريات الدائرية. ولما كانت السماء محيطة بالأرض من كل جانب لزم القول بكروية الأرض. يقول الرازي في تفسيره: «ثبت بالدلائل أن الأرض كرة فكيف يمكن المكابرة فيه»[٤].

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٣.

(٢) سورة يس الآية ٤٠.

(٣) سورة نوح الآية ١٥.

(٤) التفسير الكبير للرازي ١٩/٢-٣.

ـ ٤ ـ

ماهية الرواسي[١]

القول المشهور في الرواسي هو أنها الجبال، وفيه نظر لأن المذكور في النص أن وجود الرواسي كان بين مد الأرض من جهة، وبين الأنهار والأثمار من جهة أخرى، والجبال المعروفة ـ عدا البركانية منها وعدا الناشئة من تراكب القارات ـ تكونت بفعل المياه، ولا تزال تتكون.

ومرادنا أن الرواسي متقدمة في الخلق، فهي مع مد الأرض ذاتها، بينما الجبال متأخرة وجدت بعد وجود الماء.

ثم إن الجبال نفسها تحتاج إلى الرواسي فكيف تكون هي الرواسي دليله قوله: (والجبال أرساها) ولم يقل: (أرسى بها) فهي مرساة وليست مُرسية.

وإذا كانت الجبال أوتاداً كما في قوله: ﴿ والجبال أوتاداً﴾ [٢]. فمعناه أنها تحفظ توازن الأرض في حركتها دوراناً وطيراناً، وتنظم تحرك القشرة اليابسة فوق حشوة الأرض اللينة.

لكن الرواسي المقصودة تثبت كل شيء في موقعه متحركاً كان أو ساكناً، وتمنعه من الانتشار والاندثار.

وفي أكثر من آية قرآنية تصريح بالقاء الرواسي، وهو يكون من علوّ بل يرد التصريح بالفوقية ﴿ وألقى فيها رواسي من فوقها﴾ [٣]. مع التصريح أكثر من مرة بالظرفية «في» للدلالة على وجود الرواسي بباطن الأرض.

فالرواسي فوق الأرض شامخات، وهي في داخلها غائرات، والجبال من الأرض نفسها فلا يقال هي فوقها ولا فيها.

ثم إن القرآن قد استعمل الجبال في مواضع كما استعمل الرواسي، ووصف تعالى كلاً بما يناسبه، ولا تداخل بينهما إلا في قوله تعالى: ﴿ والجبال أوتاداً﴾ [٤].

---

(١) أنظر تفسير سورة فصلت: مبحث الرواسي. بالفصل الثاني.

(٢) سورة النبأ الآية ٧.

(٣) سورة فصلت الآية ١٠.

(٤) سورة النبأ الآية ٧.

حيث يفهم منه أن الجبل بمعنى الوتد يرسي الأرض، وقد بينا قبل قليل ما يدفع الإشكال، وأن الإرساء لا يتعلق بما يثبت تحت ثقل الجبال، وإنما الحديث عن تثبيت الأرض كلها بما في ذلك الجبال.

وينطبق نظام الجاذبية على الرواسي، فهي شامخات ملقاة بقدرة الله من الأفلاك العالية، وهي داخلة متمكنة في باطن الأرض والله يقول الحق، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً.

— ٥ —

الزوجية في الخلق

التناسل والتكاثر في الإنسان يكون بالزوجية كما قال تعالى: ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾[١]. وبيَّن تعالى الزوجين فقال: ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى﴾[٢].

وهذه السنة تتعدى الإنسان لتحكم النبات كما ذكر في سورة الرعد: ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾[٣]. وإذا كانت الزوجية تحكم الإنسان ومعه الحيوان وتحكم النبات فإنها تحكم الجماد وكل شيء، كما هو صريح قوله تعالى: ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[٤].

ومن هذه الزوجية السالب والموجب في الكهرباء، والإلكترون والبروتون في الذرة.....

وخلاصة القول أن التجاذب الزوجي يؤدي إلى التكوين حسب المقادير، كما يؤدي إلى التكاثر والتناسل.

وللزوجية مظهر آخر في المقابلة بين صفات المخلوقات. كالعلو والنزول في

---

(١) سورة النبأ الآية ٨.

(٢) سورة النجم الآية ٤٥.

(٣) سورة الرعد الآية ٣٣.

(٤) سورة الذاريات الآية ٤٩.

الجهات، والبياض والسواد في الألوان، والحلاوة والمرارة في المذاق، والخشونة والليونة في اللمس.

ومن فوائد التقابل الزوجي ظهور الفروق الدقيقة ــ والتمييزُ بين الأشياء إنما يتحقق حال المقارنة والمقابلة ــ.

ـ ٦ ـ

الترتيب الذكري والوقوعي

الترتيبُ في سورة الرعد ــ في ذكر الأعناب ثم الزرع ثم النخيل ــ مقصودٌ.

وكذلك الشأن في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين، جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب، وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ (١).

والترتيب المذكور في الموضعين مناسب لترتيب الوقوع، حيث تتوسط الأعناب لضعف أشجارها ولطافة أثمارها واحتياجها لمزيد العناية والرعاية، فكان إبعادها عن الأطراف حماية لها من الأتربة والرياح والوحوش وأيدي الناس.

أما الانتهاء بالنخيل فلمناعة ثمرته وقوة شجرته، بل هو سياج يحمي ما يليه.

أما الزرع فلا يحتاج لكبير عناية ورعاية، بل هو في ذلك وسط فتوسط بين النخيل والأعناب.

ـ ٧ ـ

أسلوب التقديم والتأخير والذكر والحذف والإظهار والإضمار

القرآن الكريم كلام حكيم تحلى بأحلى لفظ، وتجلى بأعلى نظم حتى ذهب كثير من أهل العلم إلى أن معجزته في بيانه العربي. ومما لا شك فيه أن أسلوب الذكر والحذف، والتقديم والتأخير هو الأصل في تفاوت الكلام.

وتفسير الرأي يقوم على ذكر المحذوفات، وإيراد المحتملات من التلميح والتلويح والإشارات، وتقدير المضمر، وتفصيل المختصر، وتكميل المقتصر.

---

(١) سورة الكهف الآية ٣٢.

وفي مقابل الحذف تجد الذكر بالتصريح والإطناب والتفصيل والتكرار، ومن أمثلة ذلك في هذا الفصل: قطع الأرض الموصوفة بالتجاور، والجنات المؤلفة من الأعناب والزروع والنخيل، والنخيل المكون من صنوان وغير صنوان مع تكرار لفظ صنوان، والماء الموصوف بأنه واحد، والثمرات المختلفة في الأكل، وكذلك كثرة المؤكدات في خاتمة الآيتين، كما ذكرنا في المباحث التحليلية.

— ٨ —

مناسبة الختم بيتفكرون ويعقلون

خُتمت إحدى الآيتين بقوله: (يتفكرون) وختمت الأخرى بقوله: (يعقلون).

فكان الختم تارة بالفكر وتارة بالعقل.

ووجه التنويع والمغايرة، أن الحديث لما كان عن مدِ الأرض وإرسائها، وأنهارها وزوجية أثمارها، وإغشاء ليلها ونهارها، ومثل هذه الآيات لا يمكن الوصول إليها ومعرفتها إلا بالاجتهاد والتدبر وإعمال الفكر، فناسب الختم بيتفكرون.

أما الآية الثانية فقد اشتملت على آيات قريبة من الحس، معروضة لجميع الإنس، بحيث يشتركون جميعاً في بلوغ معانيها وإدراك المرام منها، فلا تحتاج إلى إجهاد الفكر بل يكفيها مجرد العقل الذي يميز الإنسان عن الحيوان.

والكون كله آيات معروضات في صفحات الوجود، ونحن مطالبون بمطالعتها، والنظر إليها، والتحليق في آفاقها، والغوص في أعماقها، للكشف عن دقائق الصنعة، وعجائب الخلقة، وذلك ما يحقق الخشية، و ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ [1].

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكر إنما أنت مذكر﴾ [2].

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨.

(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧-٢١.

الفصل الرابع
موقف الكافرين
الآيات ٥ ـ ٧

قال تعالى:

وإن تعجب فعجب قولهم: أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد.
أولئك الذين كفروا بربهم،
وأولئك الأغلال في أعناقهم،
وأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون.
ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة،
وقد خلت من قبلهم المثلات.
وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم،
وإن ربك لشديد العقاب.
ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه؟
إنما أنت منذر
ولكل قوم هاد.

أولاً
مَباحِث تحليلية

وإن تعجب: المخاطب ابتداء من أنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم، ويدخل معه في الخطاب والتعجب كلُّ مكلف.

فعجب: مبتدأ خبره: قولهم أو عكسه أي الابتداء: قولهم والإخبار: فعجب، والتأخير والتقديم بغرض الاهتمام بالمقدم والتشويق للمؤخر.

قولهم: مقولهم الذي قالوه ومضمونه إنكار الخلق الجديد.

أئذا: الاستفهام لنفي تحول التراب إلى خلق جديد، وإذا بمعنى وقت، والعامل فيه مقدر أي نبعث ونخلق من جديد.
وفي «أئذا» وكذلك «أئنا» الآتية قراءات مشهورة في القرآن نذكرها في الموضوع الثاني.

كنا تراباً: الماضي في «كنا» للتحقيق والتنوين في «تراباً» للوصف أي تراباً جامداً ميتاً، والأجسام بعد الموت تتحلل وتتحول إلى تراب.

أئنا لفي خلق: الخلق هو التقدير، ويستعمل في إبداع الشيء، كما يستعمل في تصيير الشيء وتحويله، والأول كما يقول الراغب: «ابداع شيء من غير أصل ولا احتذاء» والتصيير عنده هو «ايجاد شيء من شيء آخر»، والمراد هنا التصيير بدلالة الوصف «جديد».

جديد: من الجد، وهو القطع. وثوب جديد لقرب عهده بقطع الخياط له، ثم جعل لكل ما أحدث إنشاؤه كما يقول الراغب في مفرداته وفي القاموس: «جده الحائك أي قطعه».

أولئك الذين كفروا بربهم: إشارة البعيد للتهويل، والمشار إليهم المنكرون للخلق الجديد. وصلة الموصول «كفروا» بيان لحكم الشك في الخلق الجديد، أو إنكاره، أو إخبار عن كفرهم بربهم. ويقدر مناسب أي بربوبيته أو رسالته ونحو ذلك.

وأولئك: التكرار هنا وفيما يأتي لتأكيد التهويل.

الأغلال في أعناقهم: «الأغلال»: جمع غل بالضم: طوق الحديد تشد به اليد إلى العنق، وجعلها في الأعناق لإذلالهم والتشهير بهم. «والأعناق»: جمع عنق الجارحة المعروفة، وناسب التعبير بالأغلال في الأعناق لأنهم غلّو عقولهم عن النظر والاستدلال.

وأولئك أصحاب النار: «أصحاب» جمع صاحب من الصحبة وهي الملازمة، ومنه قيل لمالك الشيء صاحبه لملازمته له.

هم فيها خالدون: «هم» ضمير فصل للتوكيد، والاسمية وتقديم الظرفية لزيادة التوكيد. «والخلود» هو البقاء الطويل، وفي اللغة خلد في المكان: أي أطال المكث فيه، والشيء الخالد هو الذي لا يطرأ عليه التغيير ولا الفساد والزوال، ومن ذلك تسمية الرجل باسم خالد لتأخر شيبته وطول حياته، وتسمية الحجارة التي تحت القدر بالخوالد لمناعتها وطول بقائها.

ويستعجلونك: يطلبون منك العجلة استخفافاً واستهزاء. والعجلة: إتيان الشيء قبل أوانه، وهو مذموم. وصيغة المضارع تفيد استمرارهم في طلبهم.

بالسيئة قبل الحسنة: أي بسؤال السيئة قبل سؤال الحسنة، وهما وصفان متقابلان، وسميت الحسنة بذلك لظهور الحسن على صاحبها، وسميت السيئة لأنها تسيء إلى صاحبها.
والحسنة والسيئة اسمان في الاستعمال، فإن كانا وصفين قدر معهما موصوفان أي يستعجلونك بسؤال العقوبة السيئة قبل سؤال المثوبة الحسنة.
كسؤالهم العذاب قبل الثواب، أو الهلاك قبل النجاة، أو النار قبل الجنة.

وقد خلت: حال أو استئناف، والمعنى يستعجلونك حالة كونهم مسبوقين

بالمثلاث، «وخلت» من الخلاء وهو المكان الذي لا نبات فيه ولا بناء، أو هو الزمان الماضي، واستعمل في المضي والذهاب مطلقاً، كما في قوله: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل(١) أي مضت.

من قبلهم: «قبل»: تستعمل في التقدم والإقبال وعكسه: بعد. ومنه القبيلة وهي الجماعة التي يقدم بعضها على بعض.

المثلات: جمع: المثلة، ومثلة: نقمة تنزل بالانسان فيجعل مثالاً يرتدع به غيره، أو سميت بذلك لوجود مماثلة بين الإثم والعقوبة.

وإن ربك لذو مغفرة: في الكلام عدد من التوكيدات لرفع شأن المغفرة، ومن هذه التوكيدات: الاسمية في الجملة، واللام المزحلقة، والاختصاص في إضافة ربك، وتنكير التعظيم والتكثير في مغفرة. و«المغفرة»: من الغفر وهو الستر، والمراد ستر الذنوب وتجاوزه تعالى عنها تجاوزاً كلياً أو إلى أجل، وهو ما يكون بالإمهال في الدنيا.

للناس على ظلمهم: قيل لفظ «على» بمعنى «مع» واستعمال اللفظ لغير معناه مجاز، ولذا فإن تقدير محذوف مع بقاء الحقيقة هو أولى من الذهاب إلى المجاز، والمعنى يصح بتقدير: للناس المقيمين على ظلمهم.

والظلم: تجاوز الحد مكاناً أو زماناً، والمراد تجاوز حد الشرع، وأعظمه الشرك كما دل عليه قوله: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾(٢) والشرك الأكبر ذنب لا يغفر في الآخرة لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾(٣). وإذا أريد بالظلم في النص الشرك الأكبر كان المراد بالمغفرة الإمهال الدنيوي.

وإن ربك لشديد العقاب: صيغة فعيل في «شديد» بمعنى اسم الفاعل أو اسم المفعول، والشد في اللغة الإسراع ويتصور فيه الإحكام والقوة فاستعمل «شديد» فيهما.

والعقاب مآل الشيء وخاتمته، ويستعمل في الشر، ومثله المعاقبة، أما الخير

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

(٢) سورة لقمان الآية ١٣.

(٣) سورة النساء الآيتان ٤٨ و ١١٦.

فيستعمل فيه العقبى ومثله العاقبة. ومعنى الآية ورد في مواضع من القرآن كما في قوله: ﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم. وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾ (١).

وكما في قوله: ﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ (٢).

وفي الحديث لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هنأ أحداً عيش، ولولا عقابه ووعيده لاتكل كل أحد (٣).

ويقول: عطف على يستعجلونك، واستعمال المضارع إشارة إلى مواظبتهم على هذا القول.

الذين كفروا: العموم في الموصول ليدخل جميع الكافرين مع المقصودين ابتداء، والصلة إظهار لوصفهم، حكماً عليهم، وتشهيراً بهم. والكفر هنا هو كفر بالرب حملاً على ما تقدم في قوله: «وأولئك الذين كفروا بربهم».

لولا أنزل عليه: لولا: أداة تحضيض بمعنى هلا، والإنزال يكون من علو إلى أسفل وهو عام في كل نزول جملة أو شيئاً فشيئاً منجماً، ومرجع الضمير في «عليه» للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يتقدم ذكره لمعرفته، ووجه إضمارهم له هو استهانتهم به.

آية من ربه: الآية: العلامة الظاهرة الدالة على صحة رسالته وصدق نبوته، والأداة «من» للابتداء بمعنى أن الآية مبتدأة من الرب. أو هي للبيان أي أن الآية ربانية، والبيان أعم لأنه لا يختص بالابتداء وحده.

إنما أنت منذر: «إنما» أداة حصر وقصر. والضمير للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والنذارة وما يقابلها من بشارة هي حقيقة دعوة الأنبياء وأتباعهم. واستعمال الإسمية لثبات هذه الوظيفة ودوامها، وإنما اقتصر على النذارة لمناسبة السباق في تخويف الكافرين.

---

(١) سورة الحجر الآيتان ٤٩-٥٠.

(٢) سورة المائدة الآية ٩٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢٨٥/٩.

و«منذر» اسم فاعل من أنذر، والإنذار والنذارة مصدر وهو الخبر المخيف ويقابل البشارة الخبر السار، والتنوين للتعظيم فهو خاتم النبيين وإمامهم صلى الله عليه وآله وسلم.

ولكل قوم هاد: «اللام» للاختصاص «والقوم» الجماعة من الناس، والعموم في التنكير لتأكيد معنى «كل» فيدخل جميع الناس خلقهم الله أقواماً من شعوب وقبائل.

وتأخير «هاد» للتركيز على ذاته، والاهتمام بهدايته، مع ما في الوقوف عليه من حسن في فاصلته.

وتنكيره لتعظيمه، أو وصفه بما يناسبه من بشارة ونذارة أي هاد مبشر ومنذر، أو أنه عام كما نقل الفراء في معانيه «وقال بعضهم لكل قوم هاد يتبعونه إما بحق أو بباطل»[1]،

وموقع «هاد» هو الرفع بالابتداء وسوغ الابتداء بالنكرة تأخيره ووصفه بما قدرناه،

ورفعه بالضم المقدر على الياء المحذوفة للتنوين، ومعنى هدى لغة: دل وبيَّن وأرشد.

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/٥٩.

ثانياً
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ قراءات قرآنية في أئذا وأئنا.

٣ ــ الخلود الأبدي والأمدي.

٤ ــ لم أنكروا الخلق الجديد؟

٥ ــ المفاضلة في العجب.

٦ ــ الاستهزاء للاستخفاف.

٧ ــ المعجزات من جنس ما يعلمون أو يجهلون.

٨ ــ الحسنة والسيئة عقلاً وشرعاً.

٩ ــ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة.

١٠ ــ أنواع الهداية.

١١ ــ لماذا لم يكتفوا بآية القرآن؟

— ١ —

المعنى العام

بعد ذكر الآيات التنزيلية والتكوينية من سماوية وأرضية، ناسب أن يذكر مواقف الكافرين من هذه الآيات الدالة على إثبات الرسالة، الداعية إلى تصديق الرسول.

وموقفهم عجيب لأنهم أنكروا الخلق الجديد بعد موتهم وتحولهم إلى تراب. وهذا الموقف كفر يوجب عذاب النار كما يوجب الإذلال وإحاطة الأعناق بالأغلال.

ومن مواقفهم استعجال العقوبة السيئة وخسارة المثوبة الحسنة دون أن يعتبروا بما حلّ بمن تقدمهم وعمل مثلهم من العقوبات التي أصبحت مضرباً للأمثال، ولكن في ستر الله وإمهاله فسحة لمن تاب منهم، أما من أصر وجهر فإن العقاب سريع الوقوع، أليم العذاب.

ومن مواقفهم أنهم طلبوا آية تشهد على صحة رسالته، وصدقه في دعوته، وكأنهم لم يروا في القرآن آية كاملة أو كافية.

وقد رد تعالى عليهم ببيان مهمـة الرسول في الإنذار بما في القرآن شأن كل دعوة ولكل قوم من الناس هاد يهديهم أو يغويهم.

— ٢ —

قراءات قرآنية في: أئذا وأئنا

في الهمزتين في كل من اللفظين التحقيق وتسهيل الهمزة الثانية وألف بينهما في الموضعين.. وكله من القراءات السبعية. وهو كذلك في القرآن كله، أو في غالبه.

والقراءات القرآنية دليلها الأحرف السبعة. والقراءات كثيرة تبعاً لنسبتها لأئمة القراء.

ويعود تحديد العدد إلى القرن الرابع عندما اختار ابن مجاهد قارئاً مجيداً من كل مصر يجتمع عليه الناس، وصدف أن العدد المختار كان سبعة فوافق الأحرف السبعة من حيث العدد، مع ما بينهما من اختلاف، إذ أن الأحرف محدودة في سبعة معدودة لا تزيد ولا تنقص وهي منزلة.

أما القراءات فمنسوبة إلى القراء الذين يختارون من بين الأحرف، ويقع الإختلاف بينهم بسبب تنوع اختياراتهم فيختلف العدد ولا يقف عند حد.

ومحاولة ابن مجاهد كانت لإيقاف الخلاف وجمع الناس على أقل عدد، والعدد الذي اختاره وإن كان قد انتشر واشتهر إلا أنه لم يمنع من وجود اختيارات أخرى تزيد على العدد السابق كالعشر والأربع عشرة، أو تنقص كالقراءات الست.

ولقد وضع العلماء ضوابط لقبول القراءة القرآنية، سواء كانت من القراءات السبع أو من غيرها وهي: صحة السند إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعدم مخالفة الرسم العثماني، وموافقة وجه في العربية.

وظاهر أن الشرطين الأخيرين إنما وضعا لمزيد الاحتياط في التحقيق والتوثيق، والأصل هو صحة السند وحده، بحيث يحصل الجزم واليقين من أن هذه القراءة صحيحة باعتبار حرف ما من الأحرف السبعة.

والقراءة التي تنطبق عليها الشروط يتعبد بتلاوتها، وتصح الصلاة بها، كما يتحدى بها... بخلاف ما عداها من قراءات محكية على الألسنة، ومنقولة في كتب القراءات والتفسير وهي القراءات الشاذة.

— ٣ —

الخلود الأبدي والأمدي

الخلود هو المكث الطويل إلى أمد محدود ينتهي، أو إلى أبد أزلي لا ينتهي، والعذاب والثواب الأخرويان موصوفان بالخلود، ولا خلاف يذكر في أن خلود عصاة المؤمنين هو أمدي وأن الله يتفضل عليهم ويتقبل الشفاعة فيهم.

والجمهور يذهبون إلى أن خلود الكافرين المشركين أبدي ووجهوا آيات

التحديد كما في قوله ﴿لابثين فيها أحقاباً﴾ [١]. فقالوا: المراد حقباً بعد حقب بعد حقب.. بلا عد، ومثله قوله تعالى: ﴿فارجع البصر كرتين﴾ [٢] أي كرة بعد كرة بلا حد، دونما تحديد بكرتين اثنتين.

ويرى الجهمية ــ نسبة إلى الجهم بن صفوان ــ نهاية الخلود بالنسبة للمؤمنين في النعيم، وبالنسبة للكافرين في الجحيم، واستدلوا بآيات التوقيت والتحديد، وبآيات الهلاك والفناء كقوله: ﴿كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ [٣]. وقوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [٤].

وهؤلاء لم يحملوا الفناء على التحول الواقع على الأجسام في الدنيا بعد الموت، وكذلك القول في الهلاك قالوا: ليس هو التحلل أو التحول وحده بل هو كذلك العدم بعد انقضاء الحياة الآخرة.

والذي في «رفع الأستار» عن ابن القيم، وهو محكي عن استاذه ابن تيمية، وقولهما منسوب لعمر وابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم كعبد الله بن عمرو بن العاص... قالوا بفناء النار دون الجنة.

ومن ذلك ما رواه الحسن البصري عن عمر قال: لو لبث أهل النار بقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك يوم يخرجون فيه [٥].

والذي يظهر لي أن الخلود يتعلق بالزمان والمكان وجوداً وعدماً وتغيراً، والزمان نسبي يتغير ويتبدل فيوم كألف سنة أو خمسين ألف سنة، واليوم الآخر ليس كأيام الدنيا... وقد يتوقف الزمان لينعدم المكان وهو معنى الفناء والأصل في هذا أن الله يختار ما يشاء فعال لما يريد.

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٣.

(٢) سورة الملك الآية ٤.

(٣) سورة الرحمن الآيتان ٢٦-٢٧.

(٤) سورة القصص الآية ٨٨.

(٥) أنظر رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار لمحمد بن اسماعيل الصنعاني، تحقيق الألباني، ط أولى، المكتب الإسلامي.

— ٤ —

لِمَ أنكروا الخلق الجديد؟

بعض المخاطبين بالقرآن كانوا دهريين يقولون: نحن كنبات الأرض ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً﴾[١].

والدهريون صادقون في أنهم كالنبات لكنهم كاذبون فيما وراء ذلك من إنكار العودة في خلق جديد، وحتى في النبات هم غير صادقين لأنهم حكموا بفناء الإنسان قياساً على النبات مع أن النبات باق في ثمرته، مستمر في تكاثره.

والدهريون اليوم ملحدون ينكرون مع الخلق الجديد الخالقَ القديم، فلا يثبتون له وجوداً، ولا ينسبون إليه صنعاً.

فأمرهم من العجائب، وكفرهم من الغرائب، وهم بذلك يستحقون ما توعدهم تعالى به من النار والإذلال والأغلال في الأعناق.

إن ضلال الدهريين واضح في ميزان العقل والنقل، واذا كان العقل يرى أن الإقرار بالبدء يستلزم الإقرار بالإعادة من حيث أن الإعادة أسهل... فإن النقل قد أكد على هذ الحقيقة كما قال الله في كتابه: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾[٢]. وقال: ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾[٣]. وقال تعالى لأحد عباده وهو زكريا في قضية مريم: ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل، ولم تك شيئاً﴾[٤].

فأين يذهب الدهريون الملحدون وربهم بهم محيط؟ ومتى يعرفون سبيل الحق وموقفهم منه وموقعهم عليه؟ وليسمعوا قول الله: ﴿فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر﴾[٥].

---

(١) سورة نوح الآيتان ١٧-١٨.

(٢) سورة الروم الآية ٢٧.

(٣) سورة ق الآية ١٥.

(٤) سورة مريم الآية ٩.

(٥) سورة الطارق الآيتان ٥-٨.

— ٥ —

المفاضلة في العجب

المأخذ قوله تعالى: ﴿وان تعجب فعجب﴾ أي فعجب أكبر وأعظم.

والمفاضلة هنا مقدرة، وفي مواضع أخرى صريحة كما في قوله عن بعث الخلق من جديد: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون علي﴾ (١) أي هو الأيسر ويقابله الأشق.

والمفاضلة في حق العبد مفهومة واضحة، لأن قواه الفكرية وكذا العضلية محدودة تتفاوت مواقفها باختلاف مواقعها تبعاً لنوع العمل ودرجته.

والعبد في أدائه يقع في تماس وخلطة مع العمل الذي يؤديه، فيلحقه من ذلك تعب ونصب، ويتناوب عليه الجهد خفةً وثقلاً.

أما الله سبحانه فشأنه مغاير إذ لا تماس بينه وبين المخلوق ولا خلطة، والخلق يتم بتوجيه الإرادة الممثلة بقوله: (كن) فيكون دونما اعتبار بثقل الكم والكيف وطول الوقت مهما عظم الخلق أو دق.

ولقد أنكر تعالى على اليهود زعمهم استراحة السبت فقال: ﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب﴾ (٢).

وقال: ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ (٣).

وقال: ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى﴾ (٤).

---

(١) سورة الروم الآية ٢٧.

(٢) سورة ق الآية ٣٨.

(٣) سورة ق الآية ١٥.

(٤) سورة الاحقاف الآية ٣٣.

- ٦ -

الاستهزاء للاستخفاف

المأخذ هو الاستفهام في قوله: ﴿ أئذا كنا تراباً ﴾؟

وقوله: ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾؟

فإن الاستفهام معناه الإنكار، وغرضه الاستهزاء والاستخفاف، وهو مفهوم التعجب في قوله: ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة ﴾ وكذلك مفهوم التحدي: ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾.

ومثل هذا من الحرب النفسية التي تهدف إلى أن يشعر المستضعف المستهدف بأنه حقير بلا وزن، ووضيع بلا جاه، وصغير بلا حجم، من أجل أن يتخلى عما يتحلى به، وقد يتجرد عن ذاته ليذوب في غيره.

والطغاة إنما يلجأون إلى هذا الأسلوب من التعامل لاستعباد العباد.

ولقد واجه موسى ـ وهو نبي من أولي العزم ـ طاغية زمانه وهو فرعون مصر الذي استعبد بني إسرائيل: فقال له: ﴿ وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل ﴾ (١).

وصنع فرعون مثل ذلك مع قومه القبط كما أخبر تعالى عنه وعنهم: ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ (٢).

وقد حذر تعالى المؤمنين ممثلاً في نبيه الكريم فقال له: ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ (٣).

وفي القرآن آيات بينات تكشف عن أحوال الطغاة البغاة، كما تكشف عن أحوال المستضعفين، ووسائل المستكبرين من المتبوعين في الترغيب والترهيب ليفتتن بهم الأتباع المقلدون.

---

(١) سورة الشعراء الآية ٢٢.

(٢) سورة الزخرف الآية ٥٤.

(٣) سورة الروم الآية ٦.

ومن ذلك ما حكاه تعالى عن عاد قوم هود وهم يتحدون الناس ويتعدون عليهم ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾ [١]. وما حكاه عن قوم نوح: ﴿ قالوا: أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ [٢].

ـ ٧ ـ

المعجزات من جنس ما يعلمون أو يجهلون

المأخذ قوله تعالى: ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ﴾.

وقوله: ﴿ إنما أنت منذر ﴾ يشير إلى أن معجزة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هي القرآن الكريم لأن الإنذار كان به.

والعلماء يذكرون وجوهاً كثيرة للإعجاز القرآني بين بيانية وموضوعية.

والإعجاز البياني المتعلق بالفصاحة والبلاغة والأسلوب والنظم، هو الوجه المختار عند كثيرين [٣]. وهو يناسب ما كان عليه العرب من اهتمام باللغة وعناية بالكلمة وتنافس في الشعر والنثر.

وهم يحملون آيات التحدي في القرآن على التحدي في البيان، ويستشهدون بالروايات المنقولة، التي تظهر تسليم القوم وعجزهم أمام بيان القرآن. وعلى هذا يمكن القول: إن المعجزة هي من جنس ما يعلمون، وعلمهم بها يمكنهم من معرفة حقيقة ما أوقعهم في العجز.

ونستدرك لنقول إن المقصود من الآية في هذا الموضع من سورة الرعد لا ينطبق على القاعدة السابقة من أن المعجزة من جنس ما يعلمون، لأن القوم لم يعتبروا القرآن آية فقالوا: ﴿لولا أنزل عليه آية﴾ يريدون آية حسية من خوارق الكون.

---

(١) سورة فصلت الآية ١٥.

(٢) سورة الشعراء الآية ١١١.

(٣) الإعجاز الموضوعي هو المقصود من الإعجاز أصلاً وآيات التحدي نص فيه كما ذكرت في: «مفاهيم» مخطوط.

ومن الأمثلة التي تنطبق على تلك القاعدة معجزات موسى وأهمها العصا التي تتحول إلى حية تسعى، واليد التي تنقلب بيضاء من غير سوء.

والسحرة في عهد موسى كانوا يأتون بأفعال ظاهرها كهذه وتلك فهي من جنس ما يعلمون.

ولذلك كان السحرة أسبق الناس إلى الإقرار، حيث ميزوا بما لديهم من علم، بين الحق والباطل، أي بين السحر والمعجزة.

وعلى أية حال فقاعدتنا ليست مطردة فقد نجد بعض المعجزات مما يجهلونه ولا يعرفونه، كطلب العرب من نبيهم أن يمطرهم الله بالحجارة كما قال في الأنفال: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ [١].

وكمعجزة صالح عليه السلام، طلب منه قومه ناقة عشراء تلدها صخرة صماء على ما روي [٢]، وكمعجزة عيسى عليه السلام في إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى [٣] وليس معروفاً في بني إسرائيل طب بسبب بداوتهم.

وخلاصة الأمر فإن التوسط يدعونا لقبول الأمرين، أي أن المعجزة تقع حسب الأحوال، فتكون تارة مما يجهلون، وأخرى مما يعلمون، وفي الحالين تؤدي المعجزة غرضها في التأثير وإقامة الحجة.

— ٨ —

الحسنة والسيئة عقلاً وشرعاً [٤]

المأخذ قوله: ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾.

---

(١) سورة الأنفال الآيتان ٣١-٣٢.

(٢) تفسير روح البيان ٣/١٩١ لإسماعيل حق البروسوي المتوفى ١١٣٧ ط: العثمانية ١٣٣٠.

(٣) ... وأبرىء الأكمة والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله... سورة آل عمران الآية ٤٩.

(٤) تقدم شيء من هذا الحديث في المبحث الأول من المدخل.

والحسنة أو الحسن يكون شرعياً وعقلياً وكذلك السيئة أو القبح وعماد الشرع النقل الصحيح، أما العقل فعماده الفطرة السليمة. وإذا سلمت الفطرة استقام حكم العقل، وأمكن التميز بين القبح والحسن في كثير من الأمور والأحوال. ولم نعمم الحكم بسبب عجز ذاتي في العقل يوقعه في الغفلة والسهو والنسيان، وإيلاف العادة وتأثير العرف، وبسبب عجز وظيفي نتيجة تعرضه للخطأ في الحكم بسبب الاعتماد في نقل المعلومات على الحواس القاصرة، ولذلك فإن العقل يحتار أمام كثير من المسائل، كما يخطىء في كثير من القضايا ويضل.

أما الشرع فحكمه قاطع وحقه مطلق لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه ولا تختلف أصوله باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

فإن اتفق العقل والشرع بتوافق الرأي المعقول مع الأثر المنقول فنعما ذلك، وهو نور على نور يوصل لدرجة الإطمئنان بعد اليقين.

وإن اختلفا أخذ بجانب الشرع وأهمل جانب العقل بسبب ما ذكرنا من عجزه وقصوره.

ومما يجدر التنبيه إليه أن سليم العقل لا يعارض صحيح النقل بسبب أن خالق الفطرة ومنزل الشريعة واحد، والشريعة لا تنسخ الفطرة وإنما تهديها فتسمو بها وتزكيها.

— ٩ —

ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة

المدوح من العجلة قليل قيل منه: ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ (١).

والأصل ذم العجلة لأن الدافع إليها في الغالب الشهوة البهيمية، والغريزة الأنانية.

والإنسان مطالب بالتأني والإتقان بحيث يلتزم بنظام الأسباب والمسببات التي

(١) سورة طه الآية ٨٤. والآية وما بعدها تذكر عجلة موسى عليه السلام، وعبادة قومه لعجل السامري.

تأخذ حدودها من الزمان وقيودها من المكان. وهو أي الإنسان يميل إلى العجلة متخطياً الزمان والمكان، وسنن الخلق وأطوار التكوين، ولذلك يسوء حاله، ويفسد ما حوله.

ولقد أخبر تعالى عنه فقال: ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾[١]. وهو لا يفلح إذا نمّى غريزة العجلة هذه، فعليه أن ينمي الصفة المقابلة وهي صفة الصبر والحكمة. والمتعجلون في قولهم المتسرعون في فعلهم، يجمعون بين ندمهم وذم الناس لهم، وتنفذ فيهم القاعدة المشهورة: من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

وقد ساق تعالى الحديث عن المتعجلين في خفتهم ورعونتهم حتى يصل الأمر بهم إلى استعجال الشر فقال: ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾[٢] وقال عنهم في سورة الرعد: ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾[٣]. وفصل سبحانه في سورة الأنعام فقال:

﴿ قل إني على بينة من ربي وكذبتم به، ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين ﴾[٤].

وأي ظلم أعظم من تخطي سنن التشريع وسنن التكوين.

— ١٠ —

أنواع الهداية

في سورة الرعد نسبة الهداية إلى الروّاد القوّاد من كل قوم «ولكل قوم هاد» ومن ذلك نسبتها للرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾[٥].

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٧.
(٢) سورة الإسراء الآية ١١.
(٣) سورة الرعد الآية ٦.
(٤) سورة الأنعام الآيتان ٥٧-٥٨.
(٥) سورة الشورى الآية ٥٢.

كما نسبت إلى القرآن: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [(١)].

وفي مواضع أخرى من القرآن نسبت الهداية للرب وحده دون غيره على سبيل القصر والتخصيص كما في قوله: ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [(٢)]. وقوله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [(٣)].

وقد وجهوا هذه النصوص وأمثالها مما ظاهره التعارض بتقسيم الهداية إلى هداية دلالة وإرشاد، ودلالة خلق وتوفيق.

الأولى تنسب لله ولكتابه ولرسله وكل صاحب دعوة.

والثانية خاصة بالله سبحانه وتعالى.

وليس هذا التقسيم خاصاً بلفظ الهداية ــ إذ يوحي بالاختصاص ــ بل أفعال العباد كلها من هذا القبيل فهي تنسب للرب تخليقاً وتوفيقاً، وتنسب للعبد سبباً وكسباً.

ومعلوم أن مادة «هدى» في اللغة بمعنى الدلالة والبيان، وعمومه يشمل كل هاد، لتبيين السبيل وتوضيح الرؤية، وبعدها: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ [(٤)].

أما هداية الرب الخاصة فلازمة لا فكاك منها ولا زوال لها، وعلى هذا فان الهداية المذكورة عن ثمود ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾ [(٥)]. هي من النوع الأول بمعنى دللناهم وبينا لهم وسيأتي مزيد البيان في موضعه [(٦)].

---

(١) سورة الإسراء الآية ٩.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٧٢.
(٣) سورة القصص الآية ٥٦.
(٤) سورة الكهف الآية ٢٩.
(٥) سورة فصلت الآية ١٧.
(٦) انظر موضوع ٤ فصل ١٦، وموضوع ٣ فصل ٢٠، وموضوع ٥ فصل ٢٤.

- ١١ -

لماذا لم يكتفوا بآية القرآن؟

لقد طلب الكافرون آية تدل على صحة الرسالة وصدق الرسول، وعجيب طلبهم والقرآن أكبر آية يسمعون مبناه، ويفهمون معناه، ويعجزون عن معارضته، والإتيان بسورة واحدة من مثله.

ومع هذا تراهم يستكبرون عليه يستهينون به، كما حكى تعالى عنهم ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا: قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾(١).

﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها﴾(٢).

﴿لولا أنزل عليه ملك﴾(٣).

﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾(٤).

﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾(٥).

إلى غير ذلك من الآيات والمطالبات بل قد وصلوا إلى المطالبة بتغيير الرسول أو تغيير الرسالة:

﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله﴾(٦).

﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾(٧).

والسبب في عدم اكتفائهم بمعجزة القرآن هو أنهم يريدون معجزات خارقة للحواس المعروفة.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣١.
(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠٣.
(٣) سورة الأنعام الآية ٨.
(٤) سورة الفرقان الآية ٢١.
(٥) سورة الإسراء الآية ٩٠.
(٦) سورة يونس الآية ١٥.
(٧) سورة الزخرف الآية ٣١.

ولا شك أن هذا قصور في الإنسان الذي يتميز بميزان العقل بحيث يغني عن الحسيات، ولكن العقل لا يسود دائماً كما هو الحال فيمن أخبر عنهم في السورة، فقد حجبهم عنادهم وحميتهم.

إلى جانب فئة أخرى لم تسمع القرآن فلم ترَ فيه آية، صدّهم كبراؤهم عن سماعه، أو أنهم سمعوه وعرفوه لكن حجبهم خفتهم وإيلافهم حتى رأوا الحق باطلاً فعموا وأصموا فلم يروا في القرآن آيةً ــ ولم يروا القرآن كله آيةً.

الفصل الخامس

علم الله

الآيات ٨-١٠

قال تعالى:

الله يعلم: ما تحمل كل أنثى،
وما تغيض الأرحام وما تزداد،
وكل شيء عنده بمقدار.
عالم الغيب والشهادة.
الكبير.
المتعال.
سواء منكم: من أسر القول،
ومن جهر به،
ومن هو مستخفٍ بالليل،
وسارب بالنهار.

أولاً
مَباحِث تحليلية

الله: البداية بالذات والإظهار دون الإضمار للتعظيم ـ وللعظيم الصدارة ـ.

يعلم: العلم إدراك الشيء على حقيقته، وهو أخص من المعرفة العامة.
ومتعلق العلم هو المعلوم وقد ساق تعالى وجوهاً له، والمضارع لاستمرار هذا الوصف في الحاضر وسرايته إلى المستقبل.

ما تحمل: «ما» مصدرية أو موصولة أي يعلم حملها أو الذي تحمله، والحمل: ـ بالكسر ـ ما كان ظاهراً ـ وبالفتح ـ ما كان في البطن غير ظاهر، والحمل في الإنسان يطلق على الحبل وفي الحيوان عام.

كل أنثى: الأنثى تقابل الذكر واعتبر في الأنوثة السهولة والضعف فقيل للأرض أنيث.

وما تغيض: غاض الماء: نقص حتى انتهى والغيض النقص، ويستعمل في الإفساد.

الأرحام: جمع رحم وهو في الأم معروف ويستعمل في الأقارب لكونهم من رحم واحدة.

وما تزداد: ازداد من الزيادة خلاف النقصان ومن غيض الأرحام وازديادها ما يكون في حجم الجنين وعدد الأجنة ومدة الحيض والحمل وغير ذلك[1].

وكل شيء: «شيء» مصدر شاء بمعنى اسم المفعول المشيء أي المخلوق.

عنده: ظرف زمان أو مكان حسبما يضاف إليه، ولازم العندية التشريف. وفي

(١) أنظر الأقاويل في «البحر» و «النهر الماد من البحر» لأبي حيان ٥/٣٦٨-٣٦٩ ط الفكر.

اللفظ إشارة إلى الذات. ومنه العنيد والمعاند الذي يرفع ذاته ويعتد بها فيصر على ما يراه.

بمقدار: الشيء المقدر في زمانه ومكانه، فهو محدود في حجمه ووزنه وعدده وفي بدئه وختمه كل ذلك بحسبان وميزان.

عالم الغيب: عبر بالاسمية «عالم» بعد الفعلية «يعلم» لثبات العلم بعد استمراره أو مع استمراره.
والغيب من غاب وهو بمعنى اسم الفاعل الغائب، أو اسم المفعول أي المغيب المحجوب عنك بحاجز عن حواسك وإدراكك.

والشهادة: مصدر بمعنى اسم الفاعل أو المفعول بمعنى الشاهد أو المشهود. والشهادة: الشهود وهو الحضور مع المشاهدة، وشهد بمعنى حضر وشاهد.

الكبير: خلاف الصغير ويستعمل في العظيم فيعتبر في الحجم والعدد.

المتعال: قرىء بإثبات الياء «المتعالي» وقفاً ووصلاً [١]. والمتعالي اسم فاعل من تعالى من العلو فعله «علي» بالياء ويستعمل في المحمود. أما «علا» بالألف الممدودة فعام يستعمل في المحمود والمذموم.

سواء منكم: مصدر كالمساواة بمعنى المعادلة والمماثلة بين شيئين وأكثر. وسوى بين الشيئين جعلهما متماثلين ويقدر بعد «سواء» اثنان أي يستوي اثنان من أسر ومن جهر. وسواء مبتدأ سوغ الابتداء به وصفه بقوله: «منكم» أو هو خبر مقدم لـ: مَنْ وما عطف عليه.

من أسر: الإسرار خلاف الإظهار وهو يقابل الجهر، والسر: الحديث في النفس يخفى عن غير صاحبه أو هو الخاص باثنين أو أكثر بحيث يخفى عن غيرهم.

ومن جهر: الجهر ظهور الشيء وهو المسموع أو المرئي بإفراط.

ومن هو مستخف: استخفى طلب الخفاء أي الاستتار، والخفي ضد الجلي.

بالليل: أي بظلمة الليل المقابلة لضياء النهار.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو في رواية، أنظر البحر ٥/٣٦٨-٣٦٩.

وسارب: يقدر معه المحذوف من جنس المذكور قبله أي من هو مستخف ومن هو سارب.

وجه الحذف الاكتفاء والاقتصار. والسارب: الظاهر فيقابل المستخفي المستتر كما قال فيهما ابن عباس[(١)].

وأصل السرب: الدرب والطريق تقول سار في سربه، ويدخل معنى الظهور لأن من سار على الطريق كان ظاهراً وليس يمنع أن يكون السارب بمعنى الخفاء كتسرب الماء ويكون المراد من المستخفي والسارب هو: المستتر بحاجز طبيعي من ظلام الليل، أو المستتر بحاجز صنعي يختفي السارب خلفه.

بالنهار: أصله: نهر، ومنه أنهر الدم: أساله. وسمى النهار به لأن الضياء يسري فيه، والنهر سمي به لأن الماء يسيل في واديه.

والنهار يعادل اليوم ويقابل الليل. واليوم عرفاً يطلق على مجموع الليل والنهار ويبدأ الليل من غروب الشمس إلى الفجر الصادق شرعاً، وإلى طلوع الشمس عرفاً. أما النهـار فمن طلوع الفجر أو طلوع الشمس إلى غروبها.

---

(١) أنظر البحر ٣٦٩/٥.

ثانيا
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.
٢ ــ صفات الله.
٣ ــ نوع الجنين.
٤ ــ مدة الحمل.
٥ ــ الغيب والشهادة.
٦ ــ الفذلكة.
٧ ــ وكل شيء عنده بمقدار.

— ١ —

المعنى العام

مناسبة الفصل لما قبله، أن الحديث في صدر السورة شغل العديد من صفات القدرة وهنا شرع في صفة العلم.

فالحديث سابقاً ولاحقاً هو التعريف بالله سبحانه وتعالى من خلال ذكر أسمائه وصفاته وأفعاله.

والله يعظم ذاته وعلمه المحيط بعظائم المخلوقات ودقائقها. ومن ذلك أنه يعلم أطوار الجنين ويعلم ما يطرأ في الأرحام من زيادة ونقصان. وكل شيء عنده معلوم المقدار ماهيةً وصفةً.

وعلمه يشمل المغيب المحجوب والشاهد المكشوف، وهو الكبير بذاته المتعالي على مخلوقاته بجميع صفاته، يستوي في علمه السر الخفي والجهر الجلي وصفاً. كما يستوي لديه ذوات الأشخاص سواء من استخفى بظلام الليل أو ظهر في ضوء النهار.

— ٢ —

صفات الله

في صدر سورة الرعد العديد من الصفات، فهو الله الذي أنزل الكتاب، ورفع السموات، واستوى على العرش، وسخر الشمس والقمر، ودبّر الأمور وفصل الآيات، ومد الأرض، وجعل الرواسي والثمرات، وأغشى الليل والنهار، وفضل الأكل، وهو صاحب المغفرة والعقاب، وهو عالم الغيب والشهادة الكبير المتعالي.

وقد تقدم حديث الصفات من قبل[١]. ولا يمنع العود للحديث فإن موضوع السورة بل القرآن كله ما هو إلا التعريف بالله سبحانه، وذلك للعلم بصفاته، والعمل بما تقتضيه تلك الصفات.

ويلحظ أن من بين هذه الصفات ما هو من الأسماء الحسنى وهو: الله، الكبير المتعالي.

والباقيات صفات، والأسماء الحسنى في ذاتها صفات. ـ والوصف متى غلب في الاستعمال أصبح اسماً علماً ـ.

والواجب نحو الأسماء هو الإيمان بها وينبغي أن يشمل الإيمان ثلاثة جوانب:

أولاً: الثبوت، أي نثبتها لله لأنه تعالى أثبتها لذاته.
ثانياً: المعنى، بإثبات الصفة التي يتضمنها الاسم.
ثالثاً: الأثر، بإثبات تعلق الصفة بما يناسبها من آثار.

واطلاق أسماء الرب وصفاته هو من باب الحقيقة وإرادة الكمال في الجلال والجمال. أما اطلاق بعضها على العبد فقيدة بما يناسبه من ضعف واحتياج والتقييد في صفة العبد يكون نصاً أو ضمناً أو عرفاً.

ـ ٣ ـ

نوع الجنين

الجنين في الرحم محجوب بظلمات ثلاث يتم تخليقه فيها طوراً بعد طور، وهو بهذا داخل في علم الغيب. ولكن هذا الغيب هل هو مما استأثر الله بعلمه، أو هو مما يعلمه العبد كذلك.

والظاهر أن الجنين ليس محجوباً بالكلية إذ يمكن إزالة الظلمات الثلاث عنه بشق الحجب وإزالة الحواجز، كما في العمليات الجراحية التي تكشف عن هوية الجنين.

---

(١) أنظر الموضوع الثاني الفصل الثاني.

وقد تتحقق المعرفة عن طريق اختراق الأشعة حتى يمكن رؤية الجنين وهو في الرحم وراء ظلماته.

ولا يبعد أن يعرف بتحليل آثار الجنين أو آثار أمه لمعرفة أمور عن الجنين كالذكورة والأنوثة والمرض والصحة وغير ذلك.

ولا يتعارض هذا مع علم الله لأن علم الله تعالى شامل لحمل كل أنثى وليس مقتصراً على حالة معينة، ثم إن علمه محيط بالجنين من لدن كونه نطفة وعلقة ومضغة وقبل ذلك وبعد ذلك. بينما علم الإنسان قاصر على بعض الجوانب محدود في بعض الاطوار.

— ٤ —

مدة الحمل [١]

مبنى هذا الموضوع قوله: ﴿ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾.

والمعنى أن مدة الحمل زيادة ونقصاً هي شيء مقدر التوقيت.

وأقل مدة الحمل ستة أشهر على ما فهم من قوله: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ [٢]. وقوله: ﴿وفصاله في عامين﴾ [٣]. والأشهر الستة هي حاصل طرح عامين أي أربعة وعشرين شهراً من ثلاثين شهراً.

ومدة الحمل مختلف فيها اختلافاً كبيراً يتراوح بين القول بنصف عام إلى القول بعشرة أعوام كما نقل القرطبي في تفسيره [٤]. وعلى هذا فالتفاوت بين القولين يبلغ عشرين ضعفاً. وبين الحدين أقوال مشهورة للأئمة المعروفين فمدة الحمل عند أبي حنيفة سنتان وعند الشافعي أربع وعند مالك خمس [٥].

---

(١) ٣/٨١-٩٥: أنظر حول مدة الحمل والحيض والنفاس تفسيرَ أضواء البيان في إيضاح القرآن لمحمد الأمين الشنقيطي ط الرياض ٣/٨١-٩٥.

(٢) سورة الأحقاف الآية ١٥.

(٣) سورة لقمان الآية ١٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٥/٢٨٦-٢٨٨.

(٥) أنظر أضواء البيان ٣/٨٥-٨٦.

والمختصون في شئون الحمل والولادة ينكرون ما زاد على المدة المعروفة وهي تسعة أشهر. وانكارهم لا يمنع ما وقع أو سيقع من حوادث ولد فيها أشخاص في المدد التي ذكرها الأئمة الثقاة.

اللهم إلا إذا كان مرادهم القطع بأن الرحم البشري لا يتحمل حضانة الجنين لأكثر من تسعة أشهر وعندئذ تكون الحالات التي تتجاوز هذه المدة حالات استثنائية خاصة.

وعلى هذا الخلاف تنشأ قضايا معقدة منها مثلاً أن من غاب عن زوجته عشر سنوات لا يحق له اتهام زوجته الحامل.. وفي الأمر غرابة.

ـ ٥ ـ

الغيب والشهادة

عالمنا المحسوس له بدايته المعلومة، ونهايته المختومة، وبين ذلك تظهر خصائصه الذاتية وظواهره الخارجية.

وكثير من المقاييس تنتظم ما انتشر حولنا، وعلا فوقنا، ونزل تحتنا، وركّب فينا. وإنك لتجد كل شيء موزوناً بحساب مقدراً في الكم والكيف والذات والصفة ويدرك بحاسة من الحواس، وهذا المحسوس هو عالم الشهادة.

أما عالم الغيب فهو المجهول ذاتاً أو صفة بسبب ما غطاه من حجاب الزمن فكان في الماضي المندثر، أو المستقبل المستتر، أو كان مفصولاً بحاجز كثيف يمنع الترائي والتلاقي..

والمغيب قد يكون غيابه على سبيل التوقيت أو على سبيل التأبيد، والأخير استأثر الله بعلمه.

أما الأول فأمثلته كثيرة، فالله الذي لا تدركه الأبصار في الدنيا يراه من يراه في الآخرة: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[1]. ويرى كما يرى البدر ليلة

(١) سورة القيامة الآية ٢٢.

التمام في الجنة[(١)]. والساعة التي قال فيها تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها﴾[(٢)]. ويوم يأتي تعرف الخلائق بدئها وأحوالها وأهوالها ونعيم جنتها، وعذاب جحيمها.

ومن الغيب في آيات التكوين ما نسخ من آيات ولم يبق لها أثر، وكان سبيل معرفتها إخبار الله عنها، كما هو الحال في معرفة غيب المستقبل. ويدخل في ذلك تاريخ الأمم البائدة والكائنات المنقرضة...

والإيمان بالغيب صفة من صفات المؤمنين وقد امتدحهم الله تعالى عليها، كما في قوله: ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب﴾[(٣)].

والمؤمنون بالغيب يمتازون عن غيرهم بمزيد الفضل بسبب زيادة علم من الغيب مع مشاركتهم لغيرهم في علم الشهادة.

والكافرون يقفون عند حدود المحسوسات فيشقَون لأن الظاهر وحده لا يكفي، وحضارة عصرنا المادية القائمة على التجارب الحسية شاهد على ذلك ودليل، حيث تصاب هذه الحضارة بنكبات من داخلها، وتقف عاجزة أمام مشاكلها، حائرة في تبيّن طريقها.

ـ ٦ ـ
الفذلكة

عبارة غريبة في لفظها، مجهولة في معناها عند كثيرين، وهي للعجمة أقرب منها للعروبة ويستعملها بعض المفسرين كالزمخشري في كشافه وهم يقصدون بالفذلكة خلاصة ما قُدِّم، أو مجمل ما فُصِّل.

والفذلكة في الفصل الذي نحن بصدده هي في قوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾. فالغيب والشهادة جمع لما تقدم من تفصيل في حمل غائض غائب، أو حمل ظاهر زائد، وكذا المقادير المحدودة التي تنتظم جميع الموجودات.

---

(١) البخاري: كتاب التوحيد، ومسلم: كتاب الإيمان.

(٢) سورة النازعات الآيتان ٤٢-٤٤.

(٣) سورة البقرة الآيتان ١-٣.

— ٧ —

وكل شيء عنده بمقدار

هذا باب في القدر، والقدر ركن من أركان الإيمان وله أهميته الكبيرة في حياة الناس أفراداً وجماعات.

وهو في أحد جانبيه يعني التوكل على الله، والاطمئنان إليه، والثقة فيه، والاستسلام لعدله ولفضله سبحانه وتعالى.

والجانب الآخر للقدر يخص سنن التكوين والتشريع القائمة على مقتضى الحكمة في وضع كل شيء في ظرفه المناسب له، مكاناً وزماناً.

ولقد وجه الله عقولنا وقلوبنا كما وجه حواسنا وخبراتنا للنظر والتدبر في هذا الكون الفسيح من آفاق وأنفس، لدراسة القدر بسننه ونواميسه ومقاديره وموازينه التي لا تزيد ولا تنقص، ومواقيته التي لا تتقدم ولا تتأخر، وهيئاته وذواته وصفاته التي لا تتحول ولا تتبدل.

وسواء كان هذا في فطرة الخلق والتكوين أم في وحي التنزيل والتشريع. فإن السنن ماضية دائماً إلى ما شاء الله أن تكون كما تكون.

وفهم هذا الجانب من القدر يعطي للمؤمن ميزاناً يستعمله في التعامل مع أحكام الشرع وظواهر الكون، فتعمر الحياة وتكون مزرعة مثمرة لآخرة عامرة.. وهذا الجانب ينمي الخشية في النفس إذ الوقوف عند الآفاق والتدبر في الأعماق يكشف عن أسرار العظمة ودقائق الحكمة فيورث الخشية ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (١). وهم العلماء بآياته في الخلق والتنزيل.

وأهل الخشية العلماء، لا يفسدون في أي منها، بل يحملون أمانة ربهم التي حملوها ولا يفرطون في الخلافة التي وُسِّدت إليهم ولا يبطرون ولا يكفرون بل يصبرون ويشكرون (٢).

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨.

(٢) أنظر «أصل القدر» في رسالة: «أصول التوحيد في القرآن الكريم». لمحمد صالح ط دار القلم بدمشق.

الفصل السادس

ولاية الله

الآية ١١

قال تعالى:

له معقبات من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه من أمر الله.
إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.
وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له.
وما لهم من دونه من وال.

أولاً
مَباحِث تحليلية

له: الضمير يرجع للإنسان العام، أو هو الإنسان المقدر في السياق الواقع موصوفاً لمن أسر وجهر واستخفى وسرب، ويحتمل على بعد أن يرجع إلى الله.

معقبات: مبتدأ أخر لتخصيصه والتشويق إليه، وعقبه: جاء على عقبه أي بعده، والمعقبات صفة لمناسب هو الملائكة، والتأنيث بتقدير الجماعة أي جماعات من الملائكة معقبات. والملائكة يتعاقبون أي يعقب بعضهم بعضاً فيتناوبون، أو يتعقبون عمل العامل بالضبط والحفظ والإحصاء والتدوين.
ويحتمل أن تكون المعقبات بمعنى الحرس والأعوان كما قاله ابن عباس واختاره أبو مسلم الإصفهاني والمعنى عليه: يستوي في علم الله السر والجهر والمستخفي بالليل والسارب بالنهار والمستظهر بالمعاونين والأنصار، والمراد أن المعقبات عاجزة عن حفظ أصحابها وعن منع أو دفع أمر الله، ويتوجه هذا المعنى بقوله الآتي وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له[1].

من بين يديه ومن خلفه: أمامه ووراءه زماناً ومكاناً، وكل من الأمام والخلف يصلح أن يراد به من حيث الزمان: الماضي أو المستقبل. كما يمكن أن يراد بهما ــ من حيث المكان ــ عموم الجهات لا خصوص الجهتين وحدهما، وذلك على سبيل المجاز في إطلاق البعض وإرادة الكل.
وخص البعض لأن غالب النفع أو الضر يأتي من هاتين الجهتين.

يحفظونه من أمر الله: الحفظ: صيانة الشيء وحمايته مما يضره ويكرهه وإبقاؤه على ما هو عليه، وذلك بالدفاع عنه وضبط أعماله والاستغفار له. و«من» إبتدائية أو بمعنى الباء عند من يجيز تناوب الحروف، قال مجاهد: يحفظونه من

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للحسن بن محمد القمي النيسابوري ط الحلبي ٦٩/١٣.

أمر الله: يعني بأمر الله [١]. و«أمر الله» ما أمر تعالى به وكان كما قال: ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ [٢] فهو بمعنى قدر الله في التكوين كما قال: ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها﴾ [٣]. والمراد هنا المصائب بدلالة التغيير وإرادة السوء في آخر الآية.

إن الله لا يغير: التغيير: التبديل من حال إلى حال، والمراد زوال النعمة وحلول النقمة.

ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم: «ما» في الموضعين بمعنى الحالة، أي لا يغير حالتهم الظاهرة حتى يغيروا حالتهم الباطنة فيكون تغيير أنفسهم سبباً لتغيير ظواهرهم.

واذا أراد الله: العامل في «إذا» مقدر أي لم يردَّ المفهوم من قوله فلا مردَّ له، ولم يعمل بسبب الفصل بالفاء، والإرادة هي المشيئة.

سوءاً: التنكير للتعميم فيشمل كل سوء صغر أو كبر، دنيوياً وأخروياً، والسوء ــ بالضم ــ اسم للعقاب المسيء إلى صاحبه، وهو ــ بالفتح ــ مصدر ساء.

فلا مرد له: الرد والمرد: الرجوع بمعنى أن عذاب السوء واقع ليس له دافع.

دونه: الدون: القليل، ومنه الأدنى: الأقل، ودونه هنا بمعنى غيره لأن غير الله هو دونه والله فوق كل شيء.

من وال: «من»: عند النحويين زائدة معنى، عاملة لفظاً. ومحل «وال» الرفع بضم مقدر على الياء المحذوفة للتنوين، وهو اسم الفاعل من ولي ومنه الولاية والولاء والموالاة بمعنى النصرة والتأييد.
ووليّك هو من يتولى أمورك ويرعاك.

---

(١) أنظر المحرر الوجيز ط قطر ١٤٠/٨ وفيه قال قتادة معنى بأمر الله أي يحفظونه مما أمر الله وعلق عليه ابن عطية بقوله: وهذا تحكم في التأويل. ثم أورد ابن عطية ١٤١/٨ قراءة يحفظونه بأمر الله ونسبها لعلي وابن عباس وعكرمة وغيرهم.

(٢) سورة يس الآية ٨٢.

(٣) سورة فصلت الآية ١٢.

ثانياً
مباحث موضوعية

١ ـ المعنى العام.
٢ ـ المعقبات.
٣ ـ سنة التغيير.
٤ ـ الولاية.
٥ ـ إرادة الله.

ـ ١ ـ

المعنى العام

تقدم الحديث قبل في صفة العلم وهنا شروع في صفات أخرى هي الولاية والإرادة والأمر.

أما ولايته فهي حفظ الإنسان بواسطة الملائكة الذين يتعاقبون عليه بالعناية والرعاية والتدبير.

وأما إرادته وأمره فاضيان نافذان من خلال سنن التغيير من النعمة إلى النقمة، وذلك واقع بسبب ظاهر هو كسب الإنسان في ظلمه وتعديه للفطرة أو الشريعة.

والله سبحانه وتعالى عادل في ثوابه وعقابه، حيث غير ظواهرهم لأنهم غيروا بواطنهم، فتمضي فيهم السنن والمقادير، وما لهم من دونه من وال.

ـ ٢ ـ

المعقبات

المأخذ قوله: ﴿له معقبات يحفظونه...﴾ الخ.

ولله جنود السموات والأرض وما بينهما.. بعضهم ظاهر محسوس، وآخرون مستترون غير ظاهرين للحواس.

والملائكة من أعظم هؤلاء الجنود المسخرين للإنسان، فهم موكلون بحفظه منذ نفخ الروح فيه إلى قبض الروح من بدنه في نهاية حياته الدنيوية.

ووصف المعقبات يشير إلى وظيفة عملية لهم، فهم يتناوبون من حيث الأمكنة

والأزمنة، أي أن لهم مواقيت مكانية وزمانية ينزلون فيها ويصعدون منها ويشهدون لها أو عليها.

وكلمة «معقبات» تفيد متابعتهم للمكلف وتعقبه لمراقبته ومرافقته في منامه ويقظته، لإلهامه ولتدوين أعماله والمحافظة عليه. وقد صُرِّح بذلك في كثير من الآيات منها قوله: ﴿تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة﴾ (١). وقوله: ﴿وإنَّ عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ (٢). وقوله: ﴿ويرسل عليكم حفظه﴾ (٣).

والحفظ يكون من المكاره الظاهرة والباطنة، من قلة وعلة وذلة كالحر والصر، والحرق والغرق، وغير ذلك من الأخطار والمضار، الخفية منها والجلية.

ومن حفظ النفس ما أوردناه قبل قليل في نزولهم لدفع الخوف والحزن عنهم.

ومن الحفظ حفظ المرسلين من الشياطين كما أخبر تعالى في قوله:

﴿... عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً﴾ (٤).

ومن لوازم الحفظ ومن فوائده أن المحفوظ يشعر أنه في حماية فيطمئن، وأنه تحت مراقبة فيستحي.

ـ ٣ ـ

سنة التغير

التغيير من حال إلى حال هو من عدل الله في التكوين والتقدير، والله سبحانه وتعالى قد بنى هذا الكون وقرر مقاديره بالحق على العدل، وأقام السنن الثابتة

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٠.

(٢) سورة الانفطار الآيتان ١٠-١١.

(٣) سورة الأنعام الآية ٦١.

(٤) سورة الجن الآيتان ٢٧-٢٨.

النافذة التي لا تتبدل ولا تتحول: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ [(١)] ﴿ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ [(٢)]. وآيات أخرى بمثل هذا اللفظ أو بمعناه.

فمن خرج على القدر وتعدى السنن فقد ظلم نفسه وحمل وزر التغيير من الصحة إلى المرض، ومن الغنى إلى الفقر، ومن العزة إلى الذلة إلى غير ذلك من أنحاء العسر. يقول الحق عز وجل: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ [(٣)].

والمسلمون ينطبق عليهم أمر التغيير في الارتفاع والسقوط، ففي قرون بلغوا القمم، وفي قرون أخرى هبطوا إلى القيعان، وكانوا في الحالين مرهونين بمدى تمسكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم:

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ [(٤)].

والجماعات البشرية التي سادت ثم بادت كانت تحكمها السنن: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ [(٥)].

﴿ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ [(٦)].

ونشير إلى أن التغيير عامة قائم على عدل الله سبحانه وتعالى فهو تعالى يعطي العبد بحكمته ما يليق به، كما يبتليه ليهيئه للدور الذي سيكلفه به.

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٢.
(٢) سورة فاطر الآية ٤٣.
(٣) سورة الشورى الآية ٣٠.
(٤) سورة النور الآية ٥٥.
(٥) سورة الأنفال الآية ٥٣.
(٦) سورة الأنعام الآية ١٤٧.

— ٤ —

الولاية

هذا الموضوع له شاهد صريح في قوله: ﴿وما لهم من دونه من وال﴾ وشاهده الضمني قوله عن المعقبات ودورها في الحفظ: «له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه»..

والولاية أو الولاء والموالاة بمعنى النصرة والتأييد وهي لله ولرسوله وللمؤمنين كما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ (١).

وولاية الله مذكورة في آيات كثيرة منها قوله: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ (٢).

وولاية الملائكة كما في قولهم: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ (٣).

وولاية المؤمنين كما في قوله: ﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ (٤).

وأولياء الله في حياتهم الدنيوية والأخروية سعداء كما أخبر تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (٥).

ولا شك أن الولاية من أعظم خصائص الربوبية، وأن حاجة الخلائق إليها من ألزم خصائص العبودية.

— ٥ —

ارادة الله

الله فعال لما يريد، وإرادته نافذة تقع على قوم فتصيبهم بالسوء، وتكون على

---

(١) سورة المائدة الآية ٥٥.
(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٧.
(٣) سورة فصلت الآية ٣٠.
(٤) سورة التوبة الآية ٧١.
(٥) سورة يونس الآية ٦٢.

آخرين رحمة وحسنى.

وقد أراد تعالى كتابة المقادير وهداية الخلائق فجعل لكل شيء سبباً، وأعطى كل مخلوق مناسباً.

﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (١).

﴿سبح اسم ربك الأعلى، الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾ (٢).

والقرآن في كثير من آيه يدلنا على توجه الإرادة على وفق الحكمة كما في قوله:

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾ (٣). وقوله: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ (٤).

والإرادة قريبة من معنى المشيئة وتختلف عن الرضى لأن الإرادة أو المشيئة عامة تتوجه لخلق الخير والشر والنفع والضر، أما الرضى فيتوجه إلى الخير والحسن والمعروف.

---

(١) سورة الملك الآية ١٤.

(٢) سورة الأعلى الآيتان ١-٣.

(٣) سورة الزخرف الآية ٣٦.

(٤) سورة الشورى الآية ٣٠.

الفصل السابع
آيات في السحاب
الآيتان ١٢-١٣

قال تعالى:

هو الذي: يريكم البرق خوفاً وطمعاً،
وينشىء السحاب الثقال،
ويسبح الرعد بحمده،
والملائكة من خيفته،
ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء،
وهم يجادلون في الله.
وهو شديد المحال.

أولاً
مَباحِث تحليلية

هو: مرجع الضمير «هو» الله، ولم يظهر اكتفاء بما صرح به في المواضع السابقة.

يريكم: من الإراءة، والرؤية بصرية وليست بصيرية لأن البرق يرى بالعين.

البرق: برَق وبرِق بالفتح والكسر، والبرق: اللمعان الحاصل بين السحب.

خوفاً: مصدر خاف، والخوف: ظاهرة نفسية يضطرب لها البدن بسبب توقع مكروه.

وطمعاً: مصدر طمع. والطمع: ظاهرة نفسية في الميل إلى الشيء بدافع التشهي.
والخوف والطمع متضادان معنًى متفقان إعراباً، وهما وإن كانا مصدرين جامدين لكنهما في موقع حالين أي خائفين وطامعين، وصاحب الحال مفعول يريكم.

وينشيء: التقدير وهو ينشيء، والإنشاء: تكوين الشيء مرتباً حالاً بعد حال.

السحاب الثقال: هو سحاب السماء، اسم جمع بمعنى السحب سمي الغيم به لأنه ينسحب أي يمتد في السماء، أو لأن الرياح تسحبها من مكان لمكان.
والوصف بالثقال ــ جمع ثقيلة ــ لأنها تحمل الماء الثقيل، وهي تقابل السحاب الجَهَام التي لا تحمل ماء.

ويسبح: من السبح وهو المر السريع في الماء والهواء كما يقول أهل اللغة، والمر السريع يعني الكثرة، وتسبيح الله كثرة ذكره ويفيد ذلك تعظيم المذكور، ومؤداه التنزيه. وقد استعمل فيه:
﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾[1].

---

(١) سورة الاسراء الآية ١٧.

الرعد: الصوت الناشيء من احتكاك السحب، الحدث منه: رَعد يرعُد رعوداً.

بحمده: الباء للملابسة لإفادة الحال، والمعنى أن الرعد يسبح حالة كونه حامداً ومثله قوله: ﴿فسبح بحمد ربك﴾[1].

والحمد بمعنى الثناء والشكر والفرق بينها أن الثناء باللسان، والشكر في مقابل النعمة، والحمد عام باللسان والجوارح وفي مقابل النعمة والنقمة.

والملائكة: جمع ملك، أصله ملأك سهلت همزته وحذفت بمعنى مرسل، والملائكة مصطفون من الجِنَّة كما أن الأنبياء المرسلين مصطفون من البشر. وموقع الملائكة العطف على الرعد أي يسبح الرعد ويسبح الملائكة.

من: للتعليل أي يسبحون بسبب خوفهم.

خيفته: الخيفة: حالة الخوف وهي أبلغ من الخوف للزومها ودوامها.

ويرسل: يبعث برسالة، ومنه الرسول: يقال للنبي المكلف برسالة، وهكذا الصواعق المكلفة برسالة الإصابة.

الصواعق: جمع صاعقة، والصعق هو الصوت الشديد من السماء، والصقع الصوت الشديد من الأرض، والصاعقة المعروفة: نار ناشئة من الاحتكاك بين السحب في التفريغ «الكهربي».

فيصيب بها: من الإصابة ومنه المصيبة في النقمة، وأما صاب ومنه الصيِّب فهو للسحاب الممطر.

من يشاء: أي من يريد، والمشيئة التكوينية بمعنى الارادة.

وهم: حال من متممات التعجب في قوله وإن تعجب والضمير للكفار والغيبة للإعراض عنهم.

يجادلون: الجدل: فتل الحبل لتقويته، والمشاركة في المفاعلة لأن كل فريق يقوي حجته لمغالبة خصمه.

---

(١) سورة النصر الآية ٣.

في الله: يقدر مضاف أي في ذات الله وصفاته ورسالاته...

وهو شديد المحال: «شديد» من الشدَّة بمعنى السرعة، وتستعمل في القوة. وَ «المِحال» كما في المفردات وغيره: إما أن تكون الميم أصلية فالمحال الكيد وفعله محل ومنه تمحل إذا تحيل وكاد. أو تكون من ماحل: أي جادل والمراد قويُّ الحجة. أو تكون الميم زائدة من الحول بمعنى القوة.. والصواعق من أمثلة محاله سبحانه وتعالى.

ثانياً
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ سبب النزول.

٣ ــ آيات في السحاب.

٤ ــ تسبيح الرعد.

٥ ــ الخوف والطمع.

٦ ــ الجدل والجدال.

٧ ــ الإضمار والإظهار.

ــ ١ ــ

المعنى العام

ذكر تعالى فيما سبق عدداً من صفات الجلال كالقدرة وهنا ساق دليلاً على القدرة ممثلاً في السحاب الممطر وما يرافقه من الظواهر المؤثرة في الحواس والنفوس، ومن هذه الظواهر:

ــ البرق المشاهد بالعين المؤثر في النفس خوفاً من الهلاك وطمعاً في الخير.

ــ ثقل السحاب المتراكب المركوم المشبع بالماء.

ــ صوت الرعد المسبح بحمده.

ــ خوف الملائكة من غضب الرب وإغراق الأرض.

ــ خوف أهل الأرض من إصابة الصواعق الحارقة.

وهذه الأمثلة سيقت للدلالة على قوة حجته تعالى وقدرته في شدة حوله وعظيم كيده.

ومع هذه المشاهدات فلا يزال الكافرون يمارون في قدرة الله على بعث الأموات.

ــ ٢ ــ

سبب النزول

روي أن النبي ﷺ بعث رجلاً يدعو إلى الله، فقيل له: وما الله؟ أمن ذهب هو؟ أم من فضة؟ أم من نحاس؟ فنزلت به صاعقة فذهبت بقحف رأسه [١].

وفي المرويات أن أربد بن قيس، وعامر بن الطفيل حاولا قتل النبي ﷺ

(١) الفتوحات الإلهية ٤٩٦/٢. وانظر جامع البيان ٨٤/٧.

حيث شغله عامر بالمجادلة، وجاء أربد من خلفه، واستل السيف ليضربه فدعا الرسول عليها فأصابت الصاعقة أربد وأصيب عامر بغدة فمات منها [١].

ومثل هذه المرويات تعد مناسبات تفسير الآية بالمثال ولا يلزم أن تكون أسباباً.

ـ ٣ ـ

آيات في السحاب

تتحول السطوح المائية والرطوبات، لتبخرها بالحرارة والهواء والجفاف، وتصعد الأبخرة الخفيفة إلى طبقات الجو العليا الباردة، وتتكاثف هناك مُشَكِّلة السحاب.

وتعترض الرياح للسحب فتدفعها من بلد إلى آخر حتى تسكن الرياح أو يحجزها جبل.

والسحب في علوها تتعرض للبرودة فيتحول البخار المتكاثف إلى حبيبات من الماء تجتمع في قطرات ثقيلة يعجز الماء عن حملها فتسقط على الأرض مطراً أو ثلجاً أو برداً.

وتفعل الكهرباء فعلها في السحب بتجاذب السالب والموجب والتفريغ الكهربي فيكون البرق المرئي والرعد المسموع والصاعقة الحارقة.

ولا يمنع أن وراء هذه الأسباب ــ وهي ظواهر تتجلى آياتها في أسبابها المعلومة ــ أسباباً أخرى خفية من ملك أو ملائكة يقومون في الخفاء بتكوين هذه الظواهر. فقد ساق المفسرون روايات في ذلك [٢].

وبعض من الأسباب الخفية يعد من الغرائب فقد زعم بعض الباطنية أن الذي في السحاب يزجرها بسياطه فيلمع البرق ويهدر الرعد، وتنقض الصاعقة، إنما هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهو غلو كبير.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢/٥٠٧.

(٢) أنظر فتح القدير ٣/٧٦-٧٧.

— ٤ —

تسبيح الرعد

تسبيح الرعد هو تعظيم الخالق، وفي ذلك تنزيه له حيث أفرد بطاعته وخص بتنفيذ أمره.

والرعد يسبح كما يسبح الملائكة ﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴾ بل يسبح جميع الخلائق، وإن من شيء إلا يسبح بحمده. ولكل من الخلائق تسبيحه المناسب له الخاص به وقد يخفى فهمه على غير جنسه ونوعه كما أخبر تعالى:

﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[١].

.. وتعليق فقه التسبيح على وجود الأذنين، وكذلك تعليق النطق بالتسبيح على وجود اللسان والشفتين والمجاري الهوائية.

.. والوصول إلى تعذر الحقيقة واللجوء إلى المجاز.
.. وأن التسبيح وغيره يراد به لسان الحال لا لسان المقال.
أقول إن مثل هذا التسلسل في الانتقال إلى المجاز خطأ.

ومعلوم أنه لا يصار إلى المجاز مع إمكان الحقيقة، بل أرى أنه لا يصار إلى المجاز إلا بعد معرفة الحقيقة، ومعرفة أنها غير مرادة. أما إذا كانت الحقيقة مجهولة فإن الواجب هو التفويض وعدم الخوض في المجاز وعلى هذا يكون جواب السموات والأرض وبكاؤهما:

﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾[٢]... ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾[٣].

فقولها وبكاؤهما على الحقيقة لعدم معرفة كنة هذه الحقيقة. وكذا حال كافة الغيبيات الخفية عن الادراك والحواس. ومن قال فيها بالمجاز فقد أخطأ.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤.
(٢) سورة الدخان الآية ٢٩.
(٣) سورة فصلت الآية ١١.

يدخل في هذا من أوّل الأسماء والصفات سواء أولها كلها أو بعضها بحجة لزوم التشبيه والتجسيم، وذلك أن الله لا يدرك بالأبصار، ولا يعرف كنهه بالأفكار. ولعلي أوضح هذا الموضوع في كتاب «مفاهيم» ومن الله التوفيق.

— ٥ —

الخوف والطمع

ظاهرتان في النفس متقابلتان، هما من فطرة الإنسان على حد قوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾[١].

وطبيعة الإنسان هكذا.. ميول وغرائز ودوافع إلى الخير والشر كامنة في النفس، تنتظر الانعتاق والانطلاق إن خيراً وإن شراً.

فإذا ما فك الحصار عن واحد وفتح له الباب انطلق من عقاله....

ولا شك أن التحكم فيها يقتضي تربية وعلماً وفق ميزان الخوف والطمع. والخوف: مانع والطمع: دافع.

والنفس المستقيمة هي التي تعتدل بين هذين الطرفين فتستقر بين الخشية والرجاء دون أن يطغى أحدهما على الآخر، فطغيان الأول يوقع في اليأس والقنوط، وطغيان الآخر يدفع إلى الجراءة وترك العمل.

وهذا التعليل يقف وراء المقابلة بين آيات الوعد وآيات الوعيد في ذكر الجنة والنار، والناجين والهالكين، وذم المسيئين ومدح المحسنين.

ولطالما استعمل المصلحون الترغيب والترهيب في تربية النشء وإعداد الرجال لحمل المسئوليات لصلاح الدنيا والآخرة.

— ٦ —

الجدل والجدال

المأخذ قوله: ﴿وهم يجادلون في الله...﴾.

---

(١) سورة الشمس الآيتان ٧-٨.

والجدل في الشر، والجدال في الخير هو الغالب في الاستعمال، والفرق بينهما هو في الوسيلة وفي الغاية، هل هو بالحق للحق فيكون من أعظم القربات؟ أم هو في الباطل للباطل فيكون من أكبر الكبائر؟

فمن الجدل المذموم المراء لمدافعة الحق بالسفسطة والتبرير بدافع من التعصب العرقي والطائفي والمذهبي كما قال قائلهم: «وعلى المرء نصرة مذهبه والذب عنه وذلك بإقامة الحجج على إثباته وتوهين أدلة نفاته»[1].

وقد بدأ الجدلَ إبليسُ في قياسه الفاسد فظن أن النار خير من الطين وبنى على ذلك أنه خير من آدم.

وهذا سبيل سنه علماء السوء وطغاة الحكام الذين يبررون لأنفسهم ويغسلون عقول الرعية من حولهم، وذلك لتضليلهم وتعبيدهم.

والحق تبارك وتعالى جادل بالحق في كتابه وعلم نبيه ومن تبعه الحكمة في الدعوة والمعاملة، فقال: ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾[2]. وقال: ﴿وجادلهم بالتي أحسن﴾[3] وهذا في بعض الأحوال. وفي أحوال أخرى شرع الغلظة والمجاهدة فقال: ﴿جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾[4]. والحكمة تحدد نوع المجادلة، ولكل مقام مقال.

— ٧ —

الإظهار والإضمار

لو ألقينا نظرة على الآيات السابقة من أول السورة لوجدنا الذات العلية تظهر تارة وتضمر تارة.

---

(١) القول للألوسي في تفسيره للبسملة من الفاتحة ثم ذكر تحوله من المذهب الشافعي إلى المذهب الحنفي. أنظر روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لمحمود الألوسي ط إحياء التراث العربي ببيروت ٣٩/١.

(٢) سورة سبأ الآية ٢٤.

(٣) سورة النحل الآية ١٢٥.

(٤) سورة التوبة الآية ٧٣ وسورة التحريم الآية ٩.

والإظهار أو الإضمار منوط بالحكمة حسب السياق المعنوي، والبلاغة البيانية، ومن مواضع الإظهار:

ـ الله الذي رفع السموات.
ـ الله يعلم ما تحمل كل انثى.
ـ إن الله لا يغير ما بقوم.
ـ وهم يجادلون في الله.

ومن المواضع التي أضمر فيها:

ـ وهو الذي مد الأرض.
ـ عالم الغيب والشهادة.
ـ يدبر الأمر.
ـ يفصل الآيات.
ـ هو الذي يريكم البرق.

والمتدبر في الحالين يجد أن الإظهار كان في الأصول بينما الإضمار كان في الفروع.

والقرآن يختار الكلمات ويضعها في مواضعها المناسبة، وهو الأسلوب البليغ في التعبير، والحكيم في التأثير.

الفصل الثامن

الدعاء والسجود

الآيتان ١٤ـ١٥

قال تعالى:

له دعوة الحق،

والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء ـــ

إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ـــ

وما دعاء الكافرين إلا في ضلال.

ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً،

وظلالهم بالغدو والآصال.

أولاً
مَباحِث تحليلية

له: لله وحده، والتخصيص به تعالىٰ مفهوم من لام الاختصاص ومن التقديم، وتأخير الدعوة يفهم منه التشويق.

دعوة الحق: «دعوة» اسم للحال التي عليها فعل «دعا» وهو: طلب الإقبال للنجدة أو البذل، أو هو: النداء مع الاستمالة بالترغيب أو بالترهيب. والمراد بالدعوة هنا العبادة. وإضافة الدعوة للحق من إضافة الموصوف إلى صفته، أصله الحق دعوة. ومثله كلمة التوحيد أصله التوحيد كلمة أي كلمة: لا إله إلا الله.

والحق ضد الباطل من حق بمعنى ثبت فلم يزل ووجب فلم يفسد، والمراد أن العبادة الصحيحة المشروعة ثابتة لله على سبيل الوجوب، والعبادة لغيره باطلة فاسدة.

والذين يدعون: هم العابدون الذين لا تستجيب لهم المعبودات بشيء. ويدعون بمعنى يعبدون.

من دونه: أي غيره، ووجهه أن كل ما سوى الله أدنى منه أي أقلّ.

لا يستجيبون لهم: استجاب قيل بمعنى أجاب من الجوب وهو قطع الجوبة أي الأرض قال في المفردات: وجواب الكلام هو ما يقطع الجوب فيصل من فم القائل إلى سمع المستمع... والاستجابة قيل هي الإجابة وحقيقتها هي التحري للجواب والتهيؤ له. أ. هـ.

بشيء: الباء لتعدية يستجيبون.

والشيء مصدر شاء، والتنوين بدل من وصف أي شيء نافع أو ضار، والسياق يخصه بالنافع لأنه المقصود من عبادة العابدين.

كباسط كفيه إلى الماء: الكاف بمعنى: مثل، وباسط وصف لمقدر أي مثل داع باسط، أو استجابة باسط، أو استجابة الماء لباسط. وبسط الكفين إلى الماء: التفريج بين أصابع اليدين في الماء أو مد الكفين إلى جهة الماء.
وفي الحالة الأولى لا يقبض على الماء وفي الثانية لا يصل إليه لكونه في بئر عميق أو نهر بعيد.
والمعنى أن الماء لا يستجيب لأن الوسيلة فاسدة، فكذا المعبودات بالباطل لا تستجيب لأن عبادتها غير مشروعة وهي جماد لا يضر ولا ينفع.

ليبلغ فاه وما هو ببالغه: الضمير المرفوع «هو» للماء، والضمير المجرور في بالغه للباسط أو بالعكس والبلوغ غاية الوصول.

وما دعاء الكافرين إلا في ضلال: عطف على والذين يدعون.
والاستثناء مفرغ لوقوعه بعد نفي ويفيد التوكيد وتعميم الضلالة وشمولها لكل دعاء صادر عن الكافرين. والضلال: الحيرة والضياع ومآله الهلاك ولذا يستعمل فيه.

ولله يسجد: عطف على «له دعوة الحق» وفيه تقديم لتعظيم الله وتأخير للاهتمام بالسجود. والسجود لغة: الخضوع وهو المراد هنا.

من: «من» موصول غلب في العاقل والموصول «ما» أعم، وقيل «ما» لغير العاقل ولا يسلم لقوله تعالى: ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض﴾ (١).
وقوله في سورة الكافرون: ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ (٢).

في السموات: أي الجهات العالية و «الـ» في السموات للجنس. أو أن «أل» للعهد، والمراد السموات السبع المعروفة.

---

(١) سورة النحل الآية ٤٩.
(٢) سورة الكافرون الآية ٣.

طوعاً وكرهاً: حالان بعد التأويل بالمشتق أي طائعاً وكارهاً والطوع: الطاعة أو الاستجابة رغبة بدافع المحبة والتعظيم.
وكرهاً: الطاعة أو الاستجابة اضطراراً لفوت مرغوب أو وقوع مكروب.

وظلالهم بالغدو: الضمير للساجدين، والظل مسقط الجسم تحت الضوء. والجملة حال من الظلال، والتقدير تسجد الظلال مرئية بالغدو، والباء للظرفية أي في وقت الغدو.
والغدو والغدوة والغداة من أول النهار إلى الزوال قبل انتصاف النهار.

والآصال: جمع الأصل واحده الأصيل المقابل للغدو وهو العشية من بعد الزوال أو من العصر إلى الغروب.
والمراد من وقت الغدو، والآصال: النهار بطوله من أوله إلى آخره، وفي ضياء النهار تُسقط الأجسام ظلالها ويتحقق فيها السجود.

ثانيــًا
مباحث موضوعيــة

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ الدعاء والعبادة.

٣ ــ الأمثال القرآنية.

٤ ــ سجود الكون طوعاً وكرهاً.

٥ ــ التشابه والمثاني في القرآن.

٦ ــ سجدة التلاوة.

— ١ —

المعنى العام

تقدم التعريف بالرب سبحانه وتعالى في سياق الكافرين: ﴿وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال﴾.

والآيتان ههنا في ذات الغرض والموضوع.

فهو تعالى المعبود بحق يستجيب لعابديه فيجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر، أما المعبودات الباطلة فهي عاجزة لا تستجيب بشيء.

فمثلها كمثل الظمآن الذي يغترف من ماء بيد مبسوطة الكف مفروجة الأصابع لا تجمع الماء فلا يصل إلى الفم.

وهكذا شأن الكافرين في ضياع عبادتهم.. فعليهم أن ينتظموا في سلك الكون العظيم في خضوعه طوعاً وكرهاً، بأرضه وسماواته، بذاته وظلاله، في جميع الأوقات من غدو وآصال.

— ٢ —

الدعاء والعبادة

المأخذ قوله تعالى: ﴿له دعوة الحق...﴾ الخ.

والدعاء أخص مقامات العبودية، وما من عبادة إلا والدعاء مخها، أو هو هي. ففي الحديث: إن الدعاء مخ العبادة، وفي رواية: الدعاء هو العبادة[١].

وذلك على سبيل المماثلة. أو على سبيل المداخلة، على أن الدعاء أعظم العبادات وأهمها.

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

وإنا لا نجد عبادة إلا وقد دخلها الدعاء رغباً أو رهباً، حتى شمل أبواباً من العبادات كالاستعانة العامة في قضاء الحاجات والاستغفار من تقصير، والاستعاذة والاستغاثة مما لا قبل به، والتوسل والشفاعة وغير ذلك.

بل فوق ذلك نجد القرآن قد استعمل الدعاء بمعنى العبادة في سورة غافر ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ [(١)]. فجعل سبحانه الدعاء والعبادة أحدهما في موضع الآخر.

والعبد في دعاء دائم لأنه في حاجة دائمة إلى الغني الصمد.

والله سبحانه قد فتح باب رحمته لإجابة عباده بل خلائقه: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ [(٢)]. ﴿يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن﴾ [(٣)].

— ٣ —

الأمثال القرآنية

المأخذ قوله تعالى: ﴿كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه﴾ حيث ضرب هذا مثلاً لما بين العابد والمعبود من دون الله في ضياع العبادة وعدم الاستفادة من العمل.

والأمثال أحوال سابقة، أو قصص قصيرة. وضرب الأمثال يتضمن قياس حالة مجهولة على حالة معلومة لتوضيح المجهول بما لدى السامع من علم في المثل المضروب. فالغرض هو التعليم إلى جانب الترغيب أو الترهيب.

وفي القرآن أمثلة كثيرة لأمثال مضروبة عن أحوال أخروية ودنيوية من شتى العوالم العاقلة وغير العاقلة، حتى الحيوانات والحشرات كالحمار والكلب والنحل والعنكبوت والبعوض: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما

---

(١) سورة غافر الآية ٦٠.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦.

(٣) سورة الرحمن الآية ٢٩.

فوقها﴾[1]. ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾[2]. ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾[3]. ﴿فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً﴾[4].

وقصص الانبياء المرسلين وما أصاب الهالكين والناجين من الأمم السابقين ما هي إلا أمثال مضروبة للتعليم والترغيب والترهيب.

ولقد شاع على الألسنة أن المثل لا تشترط صحته، وتجاوز بعضهم فحكم بأن الأمثال القرآنية غير حقيقية بل ذهبوا أكثر من ذلك... إلى الادعاء بأن ما في القرآن من قصص وأمثال هي محض خيال ولم يستثنوا حتى قصة أبي الأنبياء إبراهيم الخليل!!

— ٤ —

سجود الكون طوعاً وكرهاً

المأخذ قوله: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾.

والكون ساجد كله حيه وجامده، إنسه وجنه، علويه وسفليه. يسري فيه قضاء آخذ، وناموس نافذ، وسنن لا تتغير ولا تتبدل. ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون، ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾[5]. ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦.

(٢) سورة الجمعة الآية ٥.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٦.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٦٤.

(٥) سورة النحل الآيتان ٤٨-٤٩.

مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾[١]. ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين...﴾[٢] وآيات كثيرة في القرآن كقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده...﴾[٣] تتحدث عن خضوع الكون لأمر ربه سواء كان خضوعه في حالة طوع ورغبة، أو في حالة كره ورهبة.

وهذا التوجيه يوضحه قوله تعالى في الأنفال: ﴿كُتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾[٤]. ومعلوم أن المؤمن يجاهد طلباً لرضوان ربه، وهو يقدم طوعاً رغبة في رضوان الله وجنته، وإن كان كارهاً لما يلقاه من مشاق وجراحات.

— ٥ —

التشابه والمثاني في القرآن

القرآن متشابه مثاني بمعنى أن بعضه يشبه بعضاً، فيذكر الشيء ثم يثنى بما يكمله ويتممه، أو يعاد بذاته فيتكرر تأكيداً له، وقد يذكر الشيء وما يخالفه في مشهد واحد مما يعين على فهم المعنى وتحديده على نحو قولهم: «بضدها تعرف أو تتميز الأشياء». فتظهر الفروق الدقيقة حال التقابل والتناظر.

وفيما مضى وبخاصة في الفصل الخامس وكذا فيما بقي من السورة كثير من صور التقابل في التشابه والمثاني.

ونجد في الفصل تقابلاً ظاهراً بين دعوة الحق: ودعاء الضلال، والسموات: والأرض، وطوعاً: وكرهاً، والغدو: والآصال.

وهذه السمة قرآنية حتى سمي القرآن مثاني. ولعل سورة الرعد على الخصوص من أبرز السور التي تظهر فيها هذه السمة حيث ظهر التقابل في المتشابه والمتناظر من وعد ووعيد، وطاعة ومعصية، وطائعين وعاصين، ومصير هؤلاء وأولئك.

---

(١) سورة الحج الآية ١٨.

(٢) سورة سبأ الآية ٢٤.

(٣) سورة الإسراء الآية ٤٤.

(٤) سورة البقرة الآية ٢١٦.

— ٦ —

سجدة التلاوة

في القرآن مواضع كثيرة ذكر فيها السجود أمراً للمؤمنين أو زجراً للمستكبرين.

واختلف العلماء في مواضعها بين تحديد خمسة عشر موضعاً أو تزيد وتنقص.

وبعضهم يقيس هذه السجدة على سجدة الصلاة، ولما كانت الصلاة لا تكون إلا بطهارة فقد اشترط الطهارة لسجدة التلاوة كذلك.

ولست أرى — مع آخرين — اشتراط الطهارة ذهاباً إلى أن العبادات أنواع، ولا تقاس عبادة على غيرها.

أما حكم السجدة فهو مشروع مطلوب وإن كان أصحاب المذاهب اختلفوا، فيرى الوجوب المالكية وأبو حنيفة، وعند أحمد سنة، وأما الشافعي فيرى أن سجود التلاوة فضيلة فقط.

وقد أسفت لجمع تلوت عليهم الآيتين إلى قوله بالغدو والآصال، وهو موضع السجود وسجدت ولم يسجد معي منهم أحد وهم عدد... بحجة عدم الطهارة وعدم الاتجاه للقبلة وبسبب ضيق الوقت وعدم نظافة المكان الذي تطأه الأقدام، وأمثلهم لجأ إلى البديل عن السجود بالتسبيح..

وأذكرهم بأن الشيطان قد تكبر فأورده كبره المهالك، وأن من لجأ إلى القياسات والتخريجات وتتبع الرخص ذهب دينه.

الفصل التاسع
الربوبية في الخلق والولاية
الآية ١٦

قال تعالى:

قل من رب السموات والأرض؟
قل: الله.
قل: أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً؟
قل: هل يستوي الأعمى والبصير؟
أم هل تستوي الظلمات والنور؟
أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟
قل: الله خالق كل شيء،
وهو الواحد القهار.

أولاً
مباحث تحليلية

قل من رب السموات والأرض: القطع والإستئناف اهتمام بالربوبية وهو مفاد التعبير بقل. والاستفهام «مَن» لتقرير ما صرح به في الجواب وهو ربوبية الله.

قل الله: الحكم بالجواب لأنه لا بد منه أو هو حكاية عن إقرارهم.

قل أفاتخذتم: «اتخذ» متعد لمفعولين مثل جعل. أصله أخذ أي حصل على الشيء، والاستفهام للتوبيخ والإنكار، والفاء للعطف على مناسب تقديره: أكفرتم فاتخذتم.

من دونه: غيره ممن هو ادنى منه في ذاته وصفاته.

أولياء: جمع ولي بمعنى النصير ومنه الولاية، والجمع لتعدد أنواعها وكثرة أصحابها.

لا يملكون: صفة للأولياء والمِلك ـ بالكسر ـ هو التملك، ومنه المالك صاحب الشيء. والمُلك ـ بالضم ـ هو الحكم أو التصرف في الشيء، ومنه الملك لصاحب السلطان.

لأنفسهم: لذواتهم فلا يملكون لغيرهم من باب أولى.

نفعاً ولا ضراً: مهما قل أو كثر والتقليل مفاد التنكير يؤكده إعادة الأداة «لا». والنفع هو الخير والمصلحة، والضر هو الشر والمفسدة.

قل هل يستوي الأعمى والبصير: الاستفهام للنفي لعدم التساوي بين الأعمى فاقد البصر والبصيرة وبين البصير سليم النظر والفكر. والاستواء: التعادل والتماثل.

أم هل تستوي الظلمات والنور: أم بمعنى بل للانتقال والاستفهام للنفي كالذي قبله، وقرىء «يستوي» بالياء مذكراً [١].

والظلمات جمع ظلمة خلاف النور وهو الضياء. والظلمة مخلوق ضد الضياء. وبعضهم يقول الظلمة عدم الضياء.

والظلمات مثل مضروب لأنواع الكفر، والنور مثل الإيمان.

أم جعلوا لله شركاء: «أم» بمعنى بل للانتقال والاستفهام المفيد للتوبيخ. والتقديم والتأخير في «لله شركاء» للتهويل. والشركاء: جمع شريك، والشرك هو الحظ والمشارك، وجمع لتعدد من جعلوهم أرباباً في الذات والصفات.

خلقوا كخلقه: الجملة صفة لشركاء.

وفاعل خلقوا هو الشركاء، والكاف بمعنى المثل صفة لمصدر أي خلقوا خلقاً مثل خلقه.

وخلق: قدر الشيء قبل إيجاده، أو أوجده على وفق ما قدره.

والخلق هنا وفي الموضع الثاني بمعنى اسم المفعول المخلوق.

فتشابه الخلق: الشِبه والشَبه والتشبيه تستعمل في المماثلة من جهة الكيفية، كالتشابه في اللون والعلم والجهل والعدل والظلم...

ومنه الشبهة وهو أن لا يتميز أحد الشيئين عن الآخر لما بينهما من التشابه.

قل الله خالق كل شيء: والعموم في كل شيء مقيد بالممكن الذي يقبل طروء الخلق عليه من إيجاد وإعدام وتصيير من حال إلى حال.

وهو الواحد: الواحد الفرد لا ثاني معه، أو السابق لا شيء قبله، أو الغالب لا أحد فوقه.

القهار: مبالغة القهر بمعنى الغلبة بذاته وصفاته على مخلوقاته: ﴿قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾ [٢]. ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ [٣].

---

(١) عن حمزة والكسائي وخلف وأبي بكر، أنظر النشر في القراءات العشر لمحمد ابن محمد الجزري ٣/١٣١-١٣٢ ط مكتبة القاهرة.

(٢) سورة الرعد الآية ١٦.

(٣) سورة غافر الآية ١٦.

ثانيًا
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ الولاية بالحق وبالباطل.

٣ ــ عقيدة الكفار في الربوبية والإلهية.

٤ ــ التقديم والتأخير.

٥ ــ الجمع والإفراد.

٦ ــ دلالات قل في القرآن.

٧ ــ القدرية وأفعال العباد.

ـ ١ ـ

المعنى العام

في الآية خمسة أقوال في الربوبية، وهذا الحديث يتسق مع ما تقدم من صفات الله وخضوع الكون له.

والجديد هنا أو المزيد هو بيان موقف فريق من الناس الذين عرفوه وخالفوه، بل كفروا وأشركوا به ووالوا من هو دونه من الأولياء العاجزين.

وقد أنكر الله عليهم موقفهم بما ضربه لهم من الأمثال في الأعمى الفاقد للبصر والبصيرة، وكذا في فقدان النور والوقوع في ظلمات بعضها فوق بعض.

وهم لا يعذرون بالاشتباه في ربوبية الخالق لكون الخلائق كلها متميزة بعضها عن بعض، وفي كل مخلوق منها آية عليه سبحانه، وهو الواحد المتفرد بخلق كل شيء، وهو القاهر القادر على التسخير والتخيير.

ـ ٢ ـ

الولاية بالحق والباطل

وليّك: من تولاك بالنصرة والتأييد فدفع عنك المضرة وجلب إليك المنفعة. ويتنوع الولاء فيكون بحق أو بباطل تبعاً لمشروعيته أو عدم مشروعيته.

وولاية الحق هي لله ولرسوله وللمؤمنين: ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾[١].

(١) سورة المائدة الآية ٥٥.

وولاية الباطل هي لشياطين الجن والأنس ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾[١]. ﴿وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض﴾[٢].

والولاية تفرد وتجمع تبعاً لجهاتها وأصحابها، ولمَّا كان الأصل في ولاية الحق النسبة لله وحده غلب فيها الإفراد، بينما الأصل في ولاية الباطل الاختلاف والتعدد فغلب عليها الجمع.

والولاء يعتبر بالقلب ميلا ومحبة، كما يعتبر باللسان والسلوك نصرة وهجرة.

وآصرة الولاء لا تقل عن آصرة النسب في قوتها وفائدتها، ولكن الولاء الديني ضعف اليوم لتقوى أنواع أخرى من الولاءات للقوميات الجاهلية والتقاليد الموروثة وللمصالح والأهواء.

— ٣ —

عقيدة الكفار في الربوبية والالهية

المأخذ: التساؤل حول الربوبية والالهية في قوله: ﴿قل من رب السموات والأرض قل الله﴾.

وكذلك اتخاذهم الأولياء من دون الله.

وآيات أخرى في الربوبية كالخلق والرزق مثل قوله: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله، فأنى يؤفكون﴾[٣].

﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون﴾[٤].

﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[٥].

(١) سورة الأعراف الآية ٢٧.
(٢) سورة الجاثية الآية ١٩.
(٣) سورة العنكبوت الآية ٦١.
(٤) سورة المؤمنون الآيتان ٨٦-٨٧.
(٥) سورة الزمر الآية ٣.

﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله ﴾[(١)].

وكفار مكة مشركو قريش كغيرهم من الكافرين المشركين كانوا يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.. والآيات السابقة تعين نواحي إيمانهم في جانب الربوبية من خلق ورزق وتسخير للشمس والقمر، ثم كفر فيما وراء ذلك. كما تكشف عن أن تأليههم لغير الله كان من باب التقرب إلى الله بما لم يشرع فلم ينفع.. ولذلك فلم يكفهم تحقيقهم لجانب من الربوبية أو جوانب من الالهية: ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾[(٢)]. ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾[(٣)].

وإلى جانب ما آمنوا به وما كذبوه كثير مما جهلوه من أصل الربوبية ومن العبادات المفروضة.. فهم جعلوا الملائكة بنات الله فكفروا بالربوبية لأنهم عددوا الذات الواحدة بعدد الملائكة.

وغير العرب وقع مثلهم في شرك الربوبية وكفر العبادة كالنصارى الذين قالوا بالتثليث واليهود والمجوس قالوا بالثنائية، وآخرين ألهوا ظواهر كونية وقوى خفية ورموزاً وطقوساً، بل ألهوا ملوكهم وكبراءهم، فعبدوهم مع الله أو من دون الله...

ـ ٤ ـ

التقديم والتأخير

التقديم والتأخير من أساليب العرب في بيانهم وبلاغتهم. والقرآن إنما أنزل على أساليب العرب في البيان والبلاغة. وما قدمه هو لغرض معين وكذلك ما أخره.

والغالب أن يكون التقديم للتعظيم والتأخير للتشويق.

ـ وعلى هذا يوجه ما ورد في الآية من تقديم السموات على الأرض، والسياق للتعظيم بسبب تعداد أدلة القدرة فناسب تقديم أعظمها.

---

(١) سورة سبأ الآية ٢٤.

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٦.

(٣) سورة الواقعة الآية ٨٢.

ــ وكذلك تقديم ولاية الله على ولاية من دونه لأن ولاية الله أصل من حيث إنها حق يجلب النفع ويدفع الضر فأخر عنها ما لا يجدي ولا ينفع. فكانت الصدارة للثابت وأما الباطل فضار زائل زاهق يستحق التأخير.

ــ وكذلك قدم النفع على الضر، لأن المراد في التعامل المنفعة دون المضرة.

ــ وقدم الأعمى على البصير، لأن الخطاب مع الكافرين الذين لم يسلموا فشبهوا بالعمي، والتقديم لبيان سبق حالهم في الكفر.

ــ وقدم الظلمات على النور لأن الظلمة أصل سابق والنور طارىء كما أخبر تعالى: ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾ (١). فكان الترتيب الذكري على وفق الترتيب الوقوعي من سباق ولحاق.

ــ ٥ ــ

الجمع والإفراد

لـو ألقينا نظرة على الجمع والإفراد لرأينا إحكاماً في استعمال اللفظ في موضعه المناسب ومن ذلك.

ــ السموات والأرض: جمع السموات لتعظيمها وتعظيم من رفعها وكلما زاد العدد عظم الخلق فناسب الجمع.

أما إفراد الأرض فلأنَّ جمع المنافع لمعاش الناس في موضع واحد أقرب لتحقيق مصالحهم وإراحة أبدانهم.

وقيل لأن صيغة الجمع ثقيلة بسبب أن وزن الكلمة على صيغة المصادر!

ــ الولي والأولياء: والإفراد لأن ولي الحق واحد هو الله سبحانه.

أما الجمع فلأن أولياء الباطل كثيرون.

ــ الظلمات والنور يراد بالظلمات والنور الحق الواحد والباطل المتعدد وقد أشرنا إليه في الولي والأولياء.

---

(١) سورة يس الآية ٣٧.

ومعلوم أن الظلمات تتنوع بتنوع أسبابها ومظاهرها، أما النور فواحد لا يتعدد...

والرسول الكريم قد جعل للحياة رمزاً: خط خطاً للحق وجعل على جانبيه خطوطاً كثيرة للباطل.. فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثم قال: هذا سبيل الله مستقيماً، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: وهذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه. ثم قرأ: وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله [١].

وبهذا المعنى حديث الفرقة الناجية من بين ثلاث وسبعين فرقة منسوبة إلى الإسلام [٢].

ـ ٦ ـ

دلالات قل في القرآن

افتتحت سور قرآنية بلفظ «قل» كما في القصار من أواخر القرآن وهي المعوذتان والإخلاص والكافرون... وتكررت في مواضع كثيرة. وفي هذه الآية تكررت خمس مرات.

والحكمة تتجلى في عدد من الوجوه:

ـ تتصدر «قل» عظائم الموضوعات القرآنية.

ـ التمهيد لتفريغ الذهن والقاء السمع للإفهام والاهتمام.

ـ التعليم المباشر بطريق الأمر والإلزام.

ـ تسلية الرسول ﷺ وإيناسه بالتوجه إلى صاحب الدعوة سبحانه، وإزاحة الثقل عن الداعية والتسرية عنه وكأنه يقول له: دعهم لي فأنا سأكفيكهم.

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي والحاكم وآخرون. انظر فتح القدير ١٧٩/٢. وأخرجه ابن ماجة في سننه عن جابر بن عبد الله. انظر الجامع لأحكام القرآن ١٣٨/٧.

(٢) سنن أبي داود عن أبي هريرة في كتاب السنة ـ باب شرح السنة.

ـ نقل الخصومة لتكون مع الله وفيه تهويل للأمر وتهديد.

ـ القرآن كلام الله وأن الرسول هو الناقل وليس القائل، ولو كان القائل لما احتيج لكلمة «قل».

ومن غرائب هذه الأيام أن يحذف وأن يأمر بحذف كلمة قل تلاوة وكتابة من كتاب الله بعضُ الطغاة الذين وجدوا في ضعف المسلمين جراءة، وتمادوا في غيهم وباطلهم وكانوا أظلم وأطغى ممن حمل الناس على خلق القرآن في أيام ماضية.

ـ ٧ ـ

القدرية وأفعال العباد

المأخذ قوله تعالى: «الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار». وكل شيء: يشمل أفعال العباد فهي مخلوقة لله الواحد القهار.

لكن القدرية وهم نفاة القدر يقولون: إن العبد يخلق فعله وإن الله يعلمه بعد وقوعه، حسب ما يقتضيه أصل العدل. ومذهب القدرية لا يتفق مع عموم آية الرعد، ويعارض خصوص آية الصافات: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[١].

ومجال هذا كتب العقيدة والأصل في مثل هذا الموضوع الوقوف فأجملت واقتصرت.

(١) سورة الصافات الآية ٩٦.

الفصل العاشر

مثل الحق والباطل

الآية ١٧

قال تعالى:

أنزل من السماء ماء،
فسالت أودية بقدرها،
فاحتمل السيل زبداً رابياً،
ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله.
كذلك يضرب الله الحق والباطل،
فأما الزبد فيذهب جفاء،
وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض
كذلك يضرب الله الأمثال.

أولاً
مَباحِث تحليلية

أنزل: المنزل هو الله سبحانه، والنزول يكون من علو إلى أسفل من السحب العالية إلى الأرض الدانية.

من السماء: «من» ابتدائية أو بيانية بمعنى أن ابتداء نزول ماء المطر هو من السماء، أو أن من بيانية لبيان نوعه وهو أنه ماء السماء لأنه تكوّن في السماء.
«والسماء» السحاب حقيقة وقيل مجازاً.
والسحاب سماء باعتبار العلو فالكلام على الحقيقة وقيل هو على المجاز اطلق السماء وأراد السحاب الذي بجهتها.

ماءً: التنوين للوصف لبيان النوع أو لإفادة الكثرة أي ماء المطر أو ماء غزيراً.
فسالت: الفاء: للتفريع أي تفرع عن النزول السيلان. وسالت: جرت.

أودية: «كثيرة» كما يفيد تنوين التنكير، أو «خاصة» يصلها الماء النازل إليها.
والأودية جمع الوادي، وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء، وعليه عامة المفسرين [(١)] واستعمل للماء الجاري فيه.
ونقل الرازي عن بعضهم قوله: يسمى الماء وادياً إذا سال [(٢)].

بقدرها: القدر: التقدير. قال الواحدي: «القدْر والقدَر» مبلغ الشيء، يقال: كم قدر هذه الدراهم وكم قدرها ومقدارها، أي كم تبلغ في الوزن، فما

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٣٥/١٩.
(٢) المرجع السابق ٣٦/١٩.

يكون مساوياً لها في الوزن فهو قدرها [١].

وليس المراد هنا الوزن خاصة بل هو على العموم أي بمقدارها في الحجم والاتساع طولاً وقصراً، كبراً وصغراً، ضيقاً وسعة.

فاحتمل: بمعنى حمل، ومن يقول: ان زيادة المبنى دلالة على زيادة المعنى، يفرق بينهما فيجعل «احتمل» للحمل بمشقة.

السيل: اللام للعهد المفهوم من سالت.

زبداً: الزبد: كما يقول أهل اللغة هو: وسخ الدسم الذي يعلو القدر، وهو في السيل الغثاء، وفي المعادن الخبث. ويسمى مطلقاً الزبد، ومنه الزبدة لأنها تعلو.

رابياً: عالياً مرتفعاً. والربا: الزيادة. والربوة والرابية: المرتفع من الأرض. ونقل الرازي عن الزجاج قوله: «طافياً عالياً فوق الماء ونقل عن غيره قال: زائداً بسبب انتفاخه يقال ربا يربو إذا زاد» [٢].

ومما يوقدون: من لابتداء الغاية، أو للتبعيض مدغمة في ما الموصولة، والإيقاد: الإشعال.

في النار: في: ظرفية أي في داخل النار بحيث تحيط النار بها من كل جانب هذا في المعدن، أما في غيره فيكفي وصول النار إلى طرفه.

ابتغاء: مفعول لأجله، وابتغى: طلب الشيء بإلحاح وحرص.

حلية: والحلية الحلي: ما يتحلى به أي يتحسن ويتجمل.

أو متاع: المتاع: الماعون أو الإناء الذي يتمتع به في الاستفادة والانتفاع.

---

(١) المرجع السابق ٣٦/١٩.

(٢) المرجع السابق ٣٦/١٩.

زبد مثله: تقدير الضمير في مثله أي مثل زبد السيل وهو أقرب مذكور، أو زبد الماء وهو الأول.

كذلك: الكاف الأخيرة للخطاب، واللام للبعد، وذا اسم إشارة لما سبق، والكاف الأولى بمعنى المثل يراد به ما يأتي والمعنى: هذا المثل المضروب في الماء والنار وزبدهما مثله مكث الحق وذهاب الباطل.

يضرب: يبين، والضرب في الأرض أبلغ من المشي عليها لما يحصل من أثر في الضرب.

الحق والباطل: أي مثل الحق والباطل، والباطل: خلاف الحق، والبطلان: الهدر بخلاف الحق الثابت.

فأما: الفاء: للتفريع، وأما: للتفصيل بين الزبد الفاسد المهمل وبين المعدن والماء النافعين.

جفاء: موقعه الحالية، ومعناه ما أجفاه القدر أو ما أجفاه الوادي بمعنى طرحه وأبعده.

ومنه قوله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ (١) أي تبتعد.

فيمكث: أي يبقى ويستمر.

في الأرض: في طبقات الأرض مخزوناً في جوفها، أو محوزاً في مصانعها (٢).

كذلك: هذا الذي تقدم خاصة مثله ضرب الأمثال عامة والتقدير على النحو الذي بيناه فيما تقدم.

يضرب الله الأمثال: والأمثال: جمع مثل وهو تمثيل حالة بحالة للتعريف بها أو مدحها أو القدح فيها.

---

(١) سورة السجدة الآية ١٦.

(٢) المصانع جمع مصنع وهو حوض الماء.

ثانياً
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ المياه النازلة مخزونة وسائلة.

٣ ــ المعادن الذائبة متاعاً وحلية.

٤ ــ الأمثال في التعليم والتربية.

٥ ــ التفسير الإشاري.

ـ ١ ـ

المعنى العام

حديث الآية حول التمثيل للحق والباطل بمثلين مناسبين لما تقدم الحديث عنه، وعرض لآيات القدرة المشاهدة المحسوسة.

والمثل الأول مضروب بماء المطر النازل من السماء، يملأ الأودية، ويجرف سيله الهشيم أو الوسخ الذي يرتفع فوق مستوى الماء غثاء طافياً، وزبداً زائداً.

ومثله زبد آخر زائد يرتفع على سطح المعدن المذاب بالنار لغرض صياغة الحلية وصناعة الآنية.

وفي الحالين يقذف الزبد بعيداً ويرمى لعدم الاحتياج إليه أو الاستفادة منه.

أما ما ينتفع به من الماء الصافي أو المعدن الخالص فيبقى في الأرض محفوظاً في حرزه لحين الاحتياج إليه.

ـ ٢ ـ

المياه النازلة مخزونة وسائلة

من حكمة الله ورحمته ما جعله في آية الماء فهو تعالى يرفع الماء بخاراً إلى السحاب ليتكاثف ثم يدفعه بالرياح إلى حيث يريد أن يخرج الودق من خلاله لينزل على الأرض سالكاً طريقه إلى الوديان حتى تمتليء بها ثم يجري ماؤها حاملاً للزبد فوقه.

والمياه إما أن تسيل في الأنهار ظاهرة للعيان، أو تتسرب للأعماق مخزونة في الأجواف العميقة التي يبلغها الحفر «الارتوازي» أو الآبار التي تنالها الدلاء، أو تسلك مجاري منحدرة تحت الأرض حتى تتفجر ينابيع ترفد النهر والبحيرة ثم البحر

لتعود من جديد إلى حالة البخار والتكاثف في السحاب في دورة جديدة لرحلة الماء الدائمة.

— ٣ —

المعادن الذائبة متاعاً وحلية

تختلف خصائص المعادن «الفيزيائية» و«الكيميائية».

ومعرفة الإنسان لهذه الخصائص يحقق الانتفاع بثمراتها، والسيطرة على قواها الكامنة، لتوجيهها الوجهة النافعة المفيدة، مع تجنب أضرارها ومخاطرها.

وفلزات المعادن مختلطة بغيرها، تذاب لتنفصل عن شوائبها، ثم يصاغ الذهب والفضة، وتصب المعادن المختلفة في قوالبها، وتعالج بطرقها وتشكيلها حسب الطلب زينة لمن تحلى بها، وآنية لمن استخدمها في شئون معاشه وطعامه، أو سلاحاً لبأسه وحروبه.

— ٤ —

الأمثال في التعلم والتربية (*)

الأمثال في مبناها: عبارة موجزة محكمة اللفظ، سهلة التحمل والأداء تدور حول قصة أو حكاية مشتهرة على الألسنة يتناولها القاصي والداني والمتقدم والمتأخر.

وضرب المثل بها يعني استحضار صورتها الذهنية لنقل تأثيرها إلى واقعة جديدة، وللاختصار في المقال اكتفاء بدلالة المثال.. ومعروف أن ضرب المثل ينقل المدح أو القدح المتعلق بالاذهان... لغرض الترغيب والترهيب.

ولذلك وجدنا الممثل به أنواعاً عديدة، من شجرة طيبة إلى شجرة خبيثة، إلى الأنفس والحشرات وغير ذلك من الأمثال المضروبة في القرآن.

والتعليم بالتمثيل يجسد المعاني ويقرب البعيد للاذهان. وتأثير المثل مرهون بمدى ما يحمله من أثر اجتماعي، وكلما كان المثل أشهر كان وقعه أكبر وتأثيره أعمق.

(*) انظر الموضوع الثالث من الفصل الثامن.

وإذا لم يحذر في الاقتصار على الجانب المشترك بين الممثل له والممثل به فقد يحمل المثل إلى السامع خلاف المقصود فيكون الأثر معكوساً.

ـ ٥ ـ

التفسير الإشاري

أورد القرطبي قولاً في تفسير الآية مفاده أنه مثَّل القلوب بالأودية ومثَّل المحكم بالصافي ومثَّل المتشابه بالزبد[١].

ومع أن القرطبي ليس من أهل الإشارة، ولا تفسيره من التفاسير الإشارية، لكنه لم يسلم شأن معظم التفاسير التي جمعت ما وجدت فتسرب دخيل من الروايات والإشارات والحكايات.

ومعظم التفاسير الباطنية ـ كما هو الحال عند غلاه الصوفية والشيعة ـ هي من نوع التفسير الإشاري..

والتفسير الإشاري معنى ينقدح في الباطن لعلاقة ما دون التزام بالطرق المعروفة في التفسير: كتفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، ثم تفسير القرآن بلغة العرب التي أنزل بها القرآن.

والعلاقة بين الباطن النفسي والظاهر الشرعي علاقة خاصة بالمفسر لا يدركها غيره، وكثيراً ما كانت العلاقة تنم عن ذكاء، وإن كان في أحيان أخرى تكشف غباء يدفع إلى الضحك.

ولقد قسموا التفسير الإشاري إلى مذموم متى صادم الشرع، وإلى ممدوح مقبول. ولست أراه ممدوحاً ولا مقبولاً بحال من الاحوال، بل أراه لغواً. أشبه بالسفسطة اليونانية التي تقوم على التبرير وتصيد الأدلة، ومآل ذلك غياب الحقائق وإخفاؤها بل قلبها وتغييرها.

والخطر في التفسير الإشاري أنه يجعل الخيالات البحتة والاحتمالات البعيدة

---

(١) أنظر تفسير القرطبي للآية في الجامع لأحكام القرآن ٩/٣٠٥-٣٠٦.

تفسيراً للقرآن، ويعطيها صفة التشريع وحكم الإلزام، بسبب مقارنتها للقرآن. وهذا واضح فإن إدخال هذا التفسير إلى دائرة القرآن ينقله من دائرة الخواطر وأحاديث النفس إلى دائرة الحقائق الغيبية التي يسلم بها.

إلى جانب أن التفسير الإشاري يصبح بديلاً للتفسير القرآني والنبوي والعقلي، وهو بديل يلهي صاحبه حتى يَضيع عن الحقيقة أو يُضيّع الحقيقة.

الفصل الحادي عشر

العمل والجزاء

الآيــة ١٨

قال تعالى:

للـــذيـــن اســـتـــجـــابـــوا لـــربهـــم الحـــسنى،
والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به.
أولـــئـــك لهـــم: ســـوء الحـــســـاب،

ومـــأواهـــم جـــهـــنـــم،
وبـــئـــس المـــهـــاد.

أولاً
مَباحِث تحليلية

للذين استجابوا لربهم: استجابوا بمعنى أجابوا كما أفاد الراغب. ويقال إن السين والتاء زائدتان، أو للتوكيد!
وقد تكون استجابوا على ظاهر بابها بمعنى طلبوا إجابة ربهم فاستجابوا بمعنى دعوا والدعاء لربهم بمعنى أنهم أخلصوا فيه والله أعلم.
وتقديم الاستجابة للاهتمام بشأنها لكونها موجهة للرب سبحانه أي لدعوة ربهم أو لرسالة ربهم فاللام داخلة على مقدر مناسب.

الحسنى: مبتدأ مؤخر للتشويق إليه، وهو اسم للجزاء على صيغة المفاضلة في الحسن، وهو ضد السوء والقبح. و«الـ» في الحسنى للجنس فيشمل الدنيا والآخرة كما يدل عليه قوله: آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة [1]. وقد تكون للعهد بمعنى الجنة أو رؤية الله.

والذين لم يستجيبوا له: بدىء بهم توبيخاً لهم، وعدم استجابتهم هو كفرهم بالربوبية وتكذيبهم بالرسالة.

لو: أداة امتناع لامتناع معناها التمني أي امتنع الفداء لامتناع ملكهم. وقد امتنع الفداء لأنه تكليف ولا تكليف في الآخرة بل حساب وجزاء.

أن لهم ما في الأرض جميعاً: اللام في «لهم» للملكية. والتعبير بالموصول «ما» للتعميم أي كل الذي في الأرض، «وجميعاً» يؤكد العموم في «ما» فيدخل فيه المكنوز في الأرض النفيس والرخيص، والأوزان ما خف وثقل، والحجوم ما كبر وصغر.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠١.

ومثله معه: المثلية هي المساواة الكاملة من كل الجوانب

لافتدوا به: اللام: جواب «لو» أي لجعلوهما فداء وأنى لهم الفداء. والله لا يتقبل لهم حسنة ولا يتجاوز لهم عن سيئة، والفداء والفدية: عوض يدفع للتحرير من الأسر، والإنقاذ من القتل.

أولئك: الإشارة بالبعيد لبعدهم عن ربهم، وفيه تحقير لهم لأن البعيد يرى صغيراً حقيراً.

لهم: تقديم هم مع لام الاختصاص لحصر السوء فيهم وحدهم.

سوء الحساب: الحساب السيء من باب إضافة الصفة للموصوف وعبر بالمصدر لتقوية الكلام مبالغةً.
والسوء كل ما يسيء لصاحبه.
والحساب: العد والضبط، والمراد عد أعمال الناس وضبطها ﴿وقالوا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ [١].

ومأواهم: المأوى المكان الذي يأوون إليه، وتقديمه لتهويله.

جهنم: وصف للعذاب الأخروي باعتبار عمقه، ومنه بئر جهنام أي بعيدة القعر عميقة الغور، وقيل هي كلمة فارسية.

وبئس المهاد: المهاد: فاعل بئس والمخصوص بالذم محذوف أي مصيرهم وهو جهنم كما قال تعالى:
﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين﴾ [٢].
والمهاد المكان الممهد، ومنه مهد الصغير سمى به فراشه الوثير.

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٩.
(٢) سورة الأعراف الآية ٤١.

ثانيـًا
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ الجزاء الوفاق من جنس العمل.

٣ ــ الحساب بين العرض والمناقشة.

٤ ــ أسلوب القرآن في البيان.

٥ ــ دعوى العجمة في القرآن.

ـ ١ ـ

المعنى العام

ختم تعالى الآية السابقة بقوله: كذلك يضرب الله الأمثال وهنا ذكر من ضرب فيهم الأمثال، وهم المستجيبون والذين لا يستجيبون.

وفي الآية تقابل بين العمل والمصير لكل من المحسنين والمسيئين. فالمحسنون استجابوا لدعوة ربهم بالسمع والطاعة في الدنيا، فكانت لهم العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة.

أما الآخرون الذين لم يستجيبوا لدعوة ربهم، فلم يعبدوه مخلصين له الدين، فحالهم يوم القيامة ما أخبر تعالى به في قضية الفداء المرهون بالمستحيل، حيث لو فرض أن لأحدهم ملك الأرض بكنوزها وأقواتها وخيراتها وثمراتها وأكثرَ من ذلك فيما لو ضوعف وجعل فداء لما قبل، فكيف بمن لا يملك في ذلك اليوم شيئاً البتة.

فمآله على أية حال هو الحساب العسير المؤدي به إلى جهنم وبئس المصير.

ـ ٢ ـ

الجزاء الوفاق من جنس العمل

حكمه تعالى فصل وعدل كما هو مقرر في الوعد والوعيد، ومناسب موافق لا يزيد، فلكل مكلف جزاؤه من العقاب أو الثواب، وعقاب المسيئين وكذا ثواب المحسنين هو من جنس العمل، أو هو ذات العمل، يرد على صاحبه لينعم به أو يعاقب فيه.

إن من سنة التكليف أن يكون العقاب عادلاً على وفق العمل وبمقداره. كما في إخباره تعالى: ﴿إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً لابثين فيها احقاباً لا

يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً جزاء وفاقاً ﴾[١]. أي موافقاً لمرتبة العمل وعلى مقداره.

وكذلك الثواب كما في محكم الكتاب:

ــ ﴿إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً وكواعب أتراباً وكاساً دهاقاً لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً، جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾ أي محسوب المقدار والمرتبة.

ــ وفي سورة الزلزلة بأخبارها الرهيبة بيان عن مآل الحساب العظيم: يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[٢].

ــ ٣ ــ

الحساب بين العرض والمناقشة

في العنوان إشارة للمروي عن عائشة رضي الله عنها. وفيه: من نوقش الحساب يهلك[٣].

وأما من يخبر به ويقرر عليه فهذا يغفر له في الآخرة كما ستر عليه في الدنيا وذلك هو العرض..

ومأخذ الموضوع هو الحسنى في جزاء من استجابوا، والتصريح بجزاء الذين لم يستجيبوا وهو سوء الحساب. والحساب وُصف بالسوء لأنه يسيء إلى صاحبه أعظم إساءة لكونه في مقابل الشرك الذي هو أعظم جريمة.

وقد أخبر تعالى أن الشرك ذنب لا يغفر فقال:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[٤].

---

(١) سورة النبأ الآيتان ٢١-٢٦.

(٢) سورة الزلزلة الآيتان ٦-٨.

(٣) البخاري في كتاب العلم ــ باب: من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه. ومسلم في كتاب الجنة ــ باب: اثبات الحساب.

(٤) سورة النساء الآية ٤٨.

والمشركون ترد حسناتهم إن وجدت فلا تعد في الحسبان ولا تدخل في الميزان، كما أخبر تعالى في سورة الفرقان ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾[١].

وقد أوجز ابن عباس حالهم بقوله:

«لا تقبل حسناتهم ولا تغفر سيئاتهم».

ـ ٤ ـ

أسلوب القرآن في البيان[٢]

القرآن كلام الله المنزل بلغة العرب وعلى أسلوبهم في البلاغة والبيان.

وفي مواضع مما سبق أشرنا إلى التقديم والتأخير والاسمية والفعلية والإفراد والجمع والإظهار والإضمار ونحوه.

وفي هذا الفصل نماذج كالتقديم والتأخير لغرض يفهم من السياق، من تهويل وتعظيم أو قصر وتشويق، كما في قوله: «للذين استجابوا لربهم الحسنى». قدم الذين استجابوا وأخر الحسنى.

ـ وقوله: «لهم ما في الأرض». قدم لهم وأخر ما في الأرض.

ـ وقوله: «لهم سوء الحساب». قدم لهم على سوء الحساب. كما قدم سوء على الحساب وأصله الحساب السوء.

ومن ذلك المقابلة والطباق في قوله: «للذين استجابوا» وقوله: «الذين لم يستجيبوا».

وكالفعلية: «استجابوا» و«لم يستجيبوا» لغرض التحقيق في الماضي بينما غرض المضارع المنفي بقاء الأمل في تحولهم إلى الاستجابة.

---

(١) سورة الفرقان الآية ٢٣.

(٢) أنظر الموضوع السابع من الفصل السابع. والموضوع الرابع والموضوع الخامس من الفصل التاسع.

وعبر بالإسمية لغرض الثبات والدوام كما في الموصول «الذين» وهو مفيد للعموم و«الحسنى» لثبوت الجزاء ودوامه ومثله «سوء الحساب». وكذلك «مأواهم جهنم»..

— ٥ —

دعوى العجمة في القرآن

روي أن «جهنم» بالمعنى المعروف للعذاب الأخروي كلمة «أعجمية» قالوا هي كلمة فارسية وقيل عبرانية[١]. وقد ذكرنا أصلها العربي. وأنها من بئر جهنام أي بعيدة القعر، عميقة الغور، إشارة إلى اتساعها كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد﴾[٢].

وسواء كان اللفظ عربي الأصل كما ذكرت، أو كان أعجمياً ثم عرب فالأمر سواء، لأن المعرب يعد عربياً في واقع حاله وفي استعماله وإن كان يعد أعجمياً بالنظر لأصله البعيد.

والألفاظ التي يقال بأعجميتها، ونزل القرآن بها كان مما يستعمله العرب وكان يعد عربياً.

ولا مانع بين اللغات أن يأخذ بعضها من بعض، فكل لغة تؤثر وتتأثر وكلها آيات جليلة لله تعظم ولا تظلم.

وقد شدد الشافعي النكير على من قال بوجود الأعجمي في القرآن[٣]. بينما ادعى آخرون بوجود كل لسان في القرآن. كالسيوطي الذي جمع في الإتقان أكثر من مئة كلمة، أرجعها إلى مختلف اللغات[٤]. وصنف كتاباً عنون له بقوله: المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية.

---

(١) أنظر الإتقان ١٣٨/١ ط المكتبة الثقافية ببيروت.

(٢) سورة ق الآية ٣٠.

(٣) أنظر الإتقان ١٢٥/٢.

(٤) أنظر الإتقان ١٢٦/٢-١٣٣.

والصحيح أن القرآن أنزل بلسان عربي مبين ولا يمكن أن يكون عربياً وغير عربي في آن واحد. ووجود الألسنة الأخرى فيه يعني أنه غير عربي. ولكن لا يمنع أن توجد أصول كلمات غير عربية ثم عربت، وحينئذ لا توصف بالعجمة، لأنها عند العرب وفي لغة العرب تعتبر عربية خالصة.

ومعلوم أن اللغات تتجاور وتتأثر وتؤثر كما ذكرنا وليس ذلك بنقص ولا عيب..

الفصل الثاني عشر

تذكر أولي الألباب

الآيــة ١٩

قال تعالى:

أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق، كمن هو أعمى.
إنما يتذكر أولو الألباب.

أولاً
مَباحِث تحليلية

أفمن: الفاء للعطف على محذوف تقديره أمستويان من لا يعلم ومن يعلم.
والجواب: لا يستويان، لذا فإن الاستفهام معناه النفي.

يعلم: العلم: معرفة الشيء حق المعرفة، ولازمه التصديق. ومن يعلم هو العالم وإنما عبر بالموصول للعموم فيدخل كل من اتصف بالعلم، وعبر بالمضارع لإفادة الاستمرار.

أنما: «أن» المؤكدة مدغمة في «ما» الموصولة كتبتا خطاً كالكلمة الواحدة، والجملة مفعول يعلم..

أنزل إليك من ربك الحق: تقدم مثله: في أول السورة: و﴿الذي أنزل إليك من ربك الحق﴾. وعبر في أنزل بالمجهول لإفادة تعظيم النازل، وهو الوحي القرآني.
والإضافة في الموضعين للتعريف والتكليف والتشريف. و«من» ابتدائية أو بيانية. بمعنى أن ابتداء النزول منه، مع بيان مصدره الرباني. والرب: مصطلح واسع يتضمن الأسماء الحسنى والصفات العظمى على سبيل الاحتواء والاقتضاء. وأصول معانيها أربعة: الخالق، الحافظ، الإله، المُجازي.

الحق: من حق يحق حقاً فهو حاق وهي حاقة بمعنى ثبت. والحق مصدر أو اسم فاعل بمعنى الثابت خلاف الباطل الزائل، أو بمعنى الثابت في ذاته المثبت لغيره.

كمن هو أعمى: لم يقل كالأعمى بل أطنب لأن السياق في التهديد فناسبه

التفصيل، والكاف بمعنى مثل خبر من يعلم، والأعمى فاقد البصر، والتمثيل به لتقبيح الممثل له، ويستعمل في فاقد البصيرة بمعنى الجهل وفقد العلم.

إنما يتذكر: «إنَّ» المكفوفة مدغمة في «ما» الكافة فلا تعمل في الجملة الاسمية، ومعناها القصر أي القصر الإضافي في أولى الألباب، وفيه تعريض بالمشركين. والتذكر: إعادة المنسي إلى الذاكرة، وعبر بالمضارع ترغيباً في تحصيل الاتصاف به أو لاستمرار الاتصاف به.

أولو الألباب: «أولو»: ملحق بجمع المذكر السالم كأسماء العقود وهي عشرون وثلاثون إلى تسعون. و«الألباب»: جمع لب، واللباب: هو العقل والخالص من كل شيء. و«أولو الألباب» يعني أصحاب العقول السليمة التي تعرف الحق وتقف عنده ولا تنجرف مع الألف ولا تنحرف نحو العُرف.

ثانياً
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ هل التمثيل بالأعمى لتحقير الممثل به.

٣ ــ أعمى البصر والبصيرة.

٤ ــ الإنزال بحق وبباطل.

٥ ــ الإشادة بالعقل وأهله.

ـ ١ ـ

المعنى العام

الحديث عن أولي الألباب من المكلفين، وسبقه معرفة الرب من خلال كثير من أسمائه وصفاته..

والتناسب واضح في أن المعرفة ـ وهي العلم ـ توجب العمل، كما يشير إليه وصف التذكر. وهو إجمال فصّل في الآيات التالية من صفات أولى الألباب.

والآية التي نتشرف بتفسيرها تفرق بين العالم المؤمن بالتنزيل الرباني وهو يختلف عن الجاهل الجاهلي الذي هو كالأعمى المحجوب عن رؤية معالم الطريق.

وأصحاب العقول الراجحة يتذكرون فيتعلمون بعد جهل أو يعودون إلى العلم بعد نسيان.

ـ ٢ ـ

هل التمثيل بالأعمى لتحقير الممثل به

الممثل به في السؤال هو الأعمى، والجواب: لا، ليس التحقير للأعمى وهو الممثل به، وإنما التحقير لمن ضرب المثل له.

وسبب ذلك أن الله قد جعل لكل خلق وظيفته الخاصة به، وطبقته أو رتبته التي تميزه عن غيره.

والخلائق عوالم تتكون من مجموع الأجناس والأنواع، فاذا خرج عالم أو جنس أو نوع فدخل في غير ما ينتمي إليه وينتظم فيه، كان مذموماً لذلك.

وعلى هذا قوله:

ــ ﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾[١].
ــ ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾[٢].
ــ ﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾[٣].
ــ ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾[٤].

ويتبع هذا تشبه النساء بالرجال وتشبه الرجال بالنساء.

وعلى هذا فإن الأنعام والحجارة والكلب والحمار... ليست مذمومة لذاتها، وكذلك الرجال والنساء من الجنس الإنساني لا يذم كل وهو داخل نوعه وجنسه، بل يذم إذا نزل إلى رتبة دون رتبته كأن يتشبه الكافرون بالأنعام، فليس الذم للأنعام فلها وظيفتها، وهي نعم مهداة من الله وآيات عظمى من آيات الله.. ولكن لكل من الأنعام وغيرها عالمها وهي محمودة فيه، فقلوب الكافرين مذمومة لخروجها عن وظيفتها الإيمانية.

وحاملو التوراة، والذي آتته الآيات، هؤلاء خرجوا عن وظيفة العلم والعمل إلى وظيفة الحمل دون تفكر أو تدبر، وكذلك الرجل والمرأة لكل منهما دوره ومهمته، وتبادل الأدوار وتشبه الرجال بالنساء أو تشبه النساء بالرجال، مخالفة لسنن الخلق، واختلاط في دوائر التكوين، وفساد في التدبير كبير.

ــ ٣ ــ

أعمى البصر والبصيرة

الأعمى يقابل البصير، وقوله: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[٥] إشارة إلى نوع خاص من العمى لا يتعلق بوجود العينين وعدمهما.

---

(١) سورة الفرقان الآية ٤٤.
(٢) سورة البقرة الآية ٧٤.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٧٦.
(٤) سورة الجمعة الآية ٥.
(٥) سورة الحج الآية ٤٦.

وإذا كانت العين ــ آلة البصر ــ وسيلة لإدراك آيات الله الموصلة إلى العلم كان البصر بذلك بصيرة وعلماً.

أما إذا لم تؤد العين دورها ولم تقم بوظيفتها لم يكن لوجودها معنى، وكان العمى قائماً مع قيام العين بآلية الرؤية...

ومثل هذا يقال في بقية الحواس من شم وذوق ولمس وسمع، والحاسة الأخيرة عليها تنصيص وتخصيص، وشأنها كشأن حاسة البصر بل هي أعظم منها لما يتعلق بها ويترتب عليها من هداية وغواية، فالسمع أعظم وسيلة للعلم.

وعامة الحواس ما ظهر منها وما بطن، خلقت لاستعمالها فيما قدّرت له، لا لتعطيلها أو استعمالها في غير مجالها.

ــ ٤ ــ

الإنزال بحق أو بباطل

مادة «نزل» استعملت في القرآن لبيان كيفية الوحي ومن ذلك «التنزيل» في صدر عدد من السور.

كقوله تعالى: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾(١) وآيات أخرى كثيرة حول نزول القرآن. وفي سورة الشعراء قوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾(٢).

وفي هذه السورة إشارة للإنزال الآخر وهو المقابل للحق، وهو ما يكون بالباطل تتنزل به الشياطين، كما يبين تعالى ذلك في قوله:

﴿وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين﴾(٣).

وقوله: ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنـزل على كل أفاك أثيم يلقون

(١) سورة الزمر الآية ١، سورة الجاثية الآية ٢، سورة الأحقاف الآية ٢.

(٢) سورة الشعراء الآية ١٩٢.

(٣) سورة الشعراء الآيتان ٢١٠-٢١٣.

السمع وأكثرهم كاذبون﴾ [١].

وإذا كان المنزلون مختلفين بين ملائكة مرحومة، أو شياطين مرجومة، فكذلك الناس مختلفون بين من يتلق الحق ليهتدي به، وبين من يتلق الباطل ليضل به، ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾ [٢].

— ٥ —

الإشادة بالعقل وأهله

المأخذ قوله تعالى: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ مع ما في الآية من دلالة على امتداح أهل العلم وتميزهم عن العمي.

ولقد ذكر العقل في كتاب الله بلفظه، وبلفظ اللب والقلب وما في معناها من التدبر والتفكر... كثيراً.

وهذا النهج من خصوصيات هذا الدين، ويختلف الحال مع الأديان الباطلة التي تحجر على الفكر والقلب وتعطل الحواس.

وإعمال العقل يعني التذكر ــ بمعنى التعلم ــ سواء كان التعلم الذي هو خلاف الجهل، أو كان تذكر المنسي مما ركز في الإنسان من علوم فطر عليها عند خلقه...

والله سبحانه يحض على التذكر والتعلم كي يسمو الإنسان بنفسه فيزكيها، ويعالج النسيان بالتذكر فيحميها، ويمنعها من المعصية.

والشيطان إنما يتمكن من الإنسان متى نسي حتى صار النسيان طبيعة له.. ولا سلطان له على من ذكر الله...

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٢٢١-٢٢٢.

(٢) سورة الأنعام الآيتان ١١٢-١١٣.

الفصل الثالث عشر

صفات أولي الألباب

الآيات ٢٠ ـ ٢٢

قال تعالى:

الذين يوفون بعهد الله،
ولا ينقضون الميثاق،
والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل،
ويخشون ربهم،
ويخافون سوء الحساب،
والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم،
وأقاموا الصلاة،
وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية،
ويدرؤون بالحسنة السيئة،
أولئك هم عقبى الدار.

أولاً
مَباحِث تحليلية

الذين: نعت لأولي الألباب، أو استئناف للابتداء به، خبره قوله: ﴿ لهم عقبى الدار﴾ كما أورده الرازي[١].

يوفون: وفاؤهم: أداء ما عليهم وافياً، أي كاملاً تاماً بلا نقص ولا خلف كما في قوله تعالى عن الخليل: ﴿ وإبراهيم الذي وفى﴾ [٢].

بعهد الله: العهد: وعد مؤكد بعزم أو يمين. وأصله حفظ الشيء ورعايته حالاً بعد حال. والإضافة تعريف وتشريف أي تعريف للعهد بنسبته لله سبحانه، وتشريف بسبب اقترانه في الذكر مع الله تعالى.
وهي من إضافة المصدر لفاعله أو مفعوله، والمعنى على الأول عهد الله به إليهم، وعلى الثاني عاهدوا الله. واختلفوا في المعهود به على أقوال سنشير لبعضها في الموضوع الثاني.

ولا ينقضون: هذا توكيد لقوله: «يوفون»، أو صفة ثانية. والنقض: خلاف الإبرام، ويستعمل في نقض البناء أي هدمه، ونقض الحبل أو العقد أي حله.

الميثاق: أو الموثق عهد مؤكد، أصله وثق به بمعنى سكن إليه واعتمد عليه، يقال أو ثقته شددته بالوثاق.

والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل: الوصل: ضم الشيء إلى غيره وخلافه الفصل والقطع. و«ما»: موصولة للعموم يخصصه السياق بمناسب من ذات

(١) أنظر التفسير الكبير ٢٠/٤٠.
(٢) سورة النجم الآية ٣٧.

أو صفة، كصلة الأرحام، وأنواع البر والخير. والأمر: طلب من الأعلى إلى الأدنى.
ويقدر المفعول أي ما أمرهم.
وقوله «أن يوصل» مؤول بمصدر هو بدل من الضمير في به أي بوصله.

ويخشون ربهم: الخشية: خوف مع تعظيم، فهي أخص من الخوف. والإضافة في «ربهم» تعريف بأهل الخشية، وتخصيصهم تشريف لهم.

ويخافون: الخوف: توقع حصول المكروب أو فقدان المرغوب.

سوء الحساب: تقدم أنه من إضافة الصفة للموصوف، والوصف بالمصدر للمبالغة، والمراد منه المناقشة في الحساب.
وخشيتهم وخوفهم من معاصيهم على العموم، أو بسبب ما ذكر من قطع الصلة وخلف العهد ونقض الميثاق.

والذين صبروا: الصبر: حبس النفس عن ما تحب أو على ما تكره، والماضي على أصله فيراد به تقدم الصبر لأنه أساس لغيره من الأعمال.

ابتغاء: مفعول لأجله، والبغي: التجاوز في الطلب والابتغاء: الاجتهاد في الطلب. والأول مذموم والآخر محمود.

وجه ربهم: الوجه: الجارحة المعروفة، ويستعمل في كل ما يستقبلك، وفي أعلا كل شيء، وأوله، وأشرفه، والمراد من ابتغاء وجه الرب: الإخلاص في عبادته لذاته، وخوف عقابه، ورجاء ثوابه.

وأقاموا الصلاة: أدوها قويمة من القيام وهو الاستواء والاعتدال. والصلاة القائمة تقوم على أركانها تسبقها شروطها وتتبعها آثارها.
والصلاة: الدعاء على الوجه المعروف في الوقوف والركوع والسجود.
وفي صيغة الجمع إشارة إلى تأديتها جماعة.

وأنفقوا: نفقت الدابة: ذهبت بالهلاك. والنفق: الحفرة الذاهبة النافذة في الجبل، والمنافق: من ذهب إيمانه، وأنفق المال: أخرجه وأذهبه.

مما: «من»: للتبعيض مدغمة في ما للعموم، سواء كانت موصولة أو مصدرية، أي جميع الذي رزقناهم، أو جميع رزقهم.

رزقناهم: الرزق هو العطاء الجاري من المال والعلم والجاه... ويخص المعتزلة الرزق بالحلال [(١)].

سراً وعلانية: حال السر والعلن، وهما متقابلان. والسر خبر محفوظ في النفس أو خاص بين عدد من الناس يخفى عن غيرهم، والعلن بمعنى المكشوف المنشور على الناس.

ويدرؤون: الدرء: الدفع والطرد والإبعاد ومنه قوله: ﴿ ويدرأ عنها العذاب ﴾ [(٢)].

بالحسنة السيئة: اسمان بالاستعمال، أو صفتان لمقدرين أي الفعلة الحسنة والفعلة السيئة.

وقدم الحسنة اهتماماً بها ورعاية لها وحضاً عليها، لأنها تدرأ السيئة وتمحوها كما في حديث «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» [(٣)].

أولئك: إشارة البعيد للتعظيم لعظمة ما اتصفوا به، والشيء إذا بعد في ارتفاعه عظم.

لهم: عظمهم بتقديمهم، واللام للاختصاص ويفهم التشويق إلى ما أخفاه عنهم بتأخير ذكره وهو عقبى الدار.

عقبى الدار: عاقبة الدار الحميدة، أصله من العقب وهو مؤخر الشيء، يراد بها الجزاء مطلقاً ثواباً وعقاباً، وقد غلبت العقبى والعاقبة في المحمود من الجزاء، أما العقوبة والمعاقبة في الجزاء المذموم. والدار مجموعة غرف ومرافق محاطة بسور، والمراد دار الآخرة.

---

(١) التفسير الكبير ٤٣/٢٠.

(٢) سورة النور الآية ٨.

(٣) رواه الترمذي عن جندب بن جنادة ومعاذ بن جبل.

ثانياً
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ العهد والميثاق.

٣ ــ صلة المأمور.

٤ ــ الخوف والخشية.

٥ ــ الصبر الجميل.

٦ ــ درء السيئة بالحسنة.

٧ ــ الإخلاص في العمل.

٨ ــ الصلاة والإنفاق.

ـ ١ ـ
المعنى العام

تقدم الحديث عن أولي الألباب مع صفة عامة وهي التذكر، وهنا فصل صفاتهم، فذكر منها تسعاً وهي:

ـ الوفاء بالعهد
ـ والالتزام بالميثاق
ـ وصلة المأمور به
ـ وخشية الرب
ـ والخوف من الحساب
ـ والصبر على المكروه
ـ وإقامة الصلاة
ـ والانفاق من الرزق
ـ والمعاملة الحسنة بدرء السيئة بها.

وناسب بعد ذلك أن يختم بالجزاء الحسن في قوله: (أولئك لهم عقبى الدار).

والصفات المذكورة لأولي الألباب بيان لما يجب في مقام العبودية وقد سبق عرض صفات لمقام الربوبية من أول السورة.

وصفات أولي الألباب مقابلة بما يخالفها في الآية التالية.

ـ ٢ ـ
العهد والميثاق

نهى تعالى عن نقض الميثاق في بضع وعشرين آية كما يقول قتادة [١]. وأكد

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن ٣٠٩/٩.

تعالى على الوفاء بالعهد ﴿ إن العهد كان مسئولاً ﴾ [١] وامتدح أبا الأنبياء الخليل عليه السلام بالوفاء في قوله: ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ [٢].

وهل المراد بالعهد والميثاق أداء المأمور واجتناب المحذور على العموم الشرعي أو يراد شيء معين كالأمانة في قوله: ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ﴾ [٣] أو هو العهد في قوله تعالى لبني آدم: ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان ﴾ [٤]. أو قوله لبني آدم وهم في عالم الذر: ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا: بلى شهدنا ﴾ [٥].

أو هو ما أوحاه الله من كتاب منزل، أو فطرة سوية على العموم المطلق، فيعم ما ذكرناه مما هو بين الله والعباد، وما بين العباد أنفسهم من تعامل يقوم على الأداء والوفاء، والبعد عن الخلف والنقض.

يقول الرازي: ويدخل فيه الإتيان بجميع المأمورات والانتهاء من جميع المنهيات ويدخل فيه الوفاء بالعقود في المعاملات ويدخل فيه أداء الأمانات [٦].

ـ ٣ ـ

صلة المأمور

دائرة العهد والميثاق التي توسعنا في مفهومها تشمل هذا الموضوع وإن كان المتبادر هنا هو صلة الأرحام في النسب والسبب.

ولكن يدخل في هذه الدائرة صلة المأمور عامة، فيشمل ما بين العبد وربه بطاعته، وصلته بالرسول باتباعه، وصلة المؤمنين بموالاتهم.

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٤.

(٢) سورة النجم الآية ٣٧.

(٣) سورة الأحزاب الآية ٧٢.

(٤) سورة يس الآية ٦٠.

(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٢.

(٦) التفسير الكبير ٢٠/٤٠.

ومن وجوه الصلة ما في باب الإحسان في التعامل مع الناس عامة ومع المؤمنين خاصةً، من إطعام الطعام وإفشاء السلام وإجابة الدعوة وعيادة المريض وتشييع الجنازة، ومقابلة الناس بوجه طلق وكلام لين.

وليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها وإن حرمته أعطاك، وان ظلمته عفا عنك، بل إن الصلة تصل إلى البهائم من الإحسان إليها، والرفق بها ورعايتها، وكذلك إحسان الانتفاع بنعم الله الجليلة والدقيقة في الحدود المشروعة.

— ٤ —

الخوف والخشية

الخوف والخشية هما جانب الوعيد والترهيب، والجانب المقابل هو الرجاء في الوعد والترغيب.

ولا يستقيم الإنسان على طريق الحق إلا بمعالجة النفس من هذين الجانبين، وأحدهما يتضمن الآخر من باب المقابلة.

ووجه التصريح بالخوف والخشية وحدهما أن السياق فيهما، فما تقدم من السورة كله في صفات العظمة والجلال والقدرة، وإظهار ذلك في خلق السموات والأرض وظواهر الكون.

ومعلوم أن الإنسان ينسى عندما يستغني فيطغى ﴿إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى﴾[1].

والخوف والخشية يمنعانه من الطغيان والنسيان، أي يعيدانه إلى حاله فلا يطغى، ويذكرانه بمآله فلا ينسى.

ولهذا كثر حديث القرآن عن اليوم الآخر ومشاهد القيامة وأهوال الساعة ومصير الخائنين ممن ينقضون المواثيق ولا يوفون بالعهود، كما كثر سرد الوقائع التي حلت بالأمم السابقة في الأيام الخالية — كل ذلك التخويف لتربية النفوس لئلا تتمرد

(١) سورة العلق الآيتان ٦-٧.

أو تنحرف ـ ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ [(١)].

ـ ٥ ـ

الصبر الجميل

خلق الإنسان عجولاً فكان هلوعاً، جزوعاً منوعاً، حتى غلب عليه الكفر والبطر والظلم والطغيان إلا من رحم ربك من الصابرين.

ولقد كان الصبر شاقاً على النفس شديداً على الإنسان، وكانت خصلة من أعظم الخصال بسبب ما يبذل لها من جهد لكبح جماح النفس ومعاناة اندفاع العاطفة.

ولذا وعد الله الصابرين بأعظم أجر فقال: ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [(٢)]

وجعل الدفع بالتي هي أحسن في التعامل مع الناس سيداً للأخلاق فقال: ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ [(٣)].

وللصبر الجميل وجهان الأول على الطاعات وما فيها من كلفة ومشقة، والثاني عن المعاصي وما في ذلك من ثقل العادة وتحكم الهوى.

والصبر وسيلة الدعاة لإعداد أنفسهم، وتربية عامة الناس وقيادتهم، وما من عمل إلا والصبر أصله وأساسه.

ولذلك ابتلى الله من يختاره بأنواع من الشدائد كما نرى في هذا المشهد القرآني بين الوالد والولد: «فلما بلغ معه السعي قال: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى. قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين

---

(١) سورة الإسراء الآية ٥٩.

(٢) سورة الزمر الآية ١٠.

(٣) سورة فصلت الآيتان ٣٤-٣٥.

فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين[١].

ولذلك نجد البداية بالصبر في أول ما أنزل تعالى:

ـ ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر﴾[٢].

ـ (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً، إن لك في النهار سبحاً طويلاً واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً[٣].

والمشاهد الطويلة الثلاثة تبرز مشاق التكليف، كما تبرز حقيقة التربية وإعداد الرجال للمهام الثقال في الجهاد والدعوة.

وحديث الصبر والصابرين، ووجوه الابتلاء والجزاء كثيرة في القرآن ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلوة إن الله مع الصابرين ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[٤].

ـ ٦ ـ

درء السيئة بالحسنة

العنوان مأخوذ من آخر صفات أولي الألباب في قوله: ﴿ويدرؤون بالحسنة

(١) سورة الصافات الآيتان ١٠٢-١٠٦.

(٢) سورة المدثر الآيتان ١-٧.

(٣) سورة المزمل الآية ١٠.

(٤) سورة البقرة الآيتان ١٥٣-١٥٧.

السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾.

وهذا باب في إحسان المعاملة ـــ والدين المعاملة ـــ.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن﴾[(١)].

وقد ذكر تعالى ثمرة هذه المعاملة وبين تأثيرها العاجل في الناس. ﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾[(٢)].

والمربي الأول عليه السلام عندما كان في موقف القدرة والقوة يوم الفتح، وكان قومه قد عذبوه وطردوه، واجتمعوا على قتله وحربه وعادوه بكل السبل، لم يقل لهم إلا خيراً: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[(٣)].

وصحيح أن مقام العدل هو المعادلة والمماثلة، في الجزاء والمعاقبة. ولكن التوجيه الرباني للتربية الخلقية كان في تقديم العفو والصلح، كما في قوله: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[(٤)].

وقوله: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾[(٥)].

وقوله: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾[(٦)] ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾[(٧)].

وخلاصة القول: إن الدفع بالتي هي أحسن فيه تنمية للفضيلة، وهذا يعني قطع الحياة عن الرذيلة، كي تعقم بذورها، وتجف جذورها، وتموت شجرتها.

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٤.

(٢) سورة فصلت الآية ٣٤.

(٣) السيرة النبوية ٥٧٠/٣ لاسماعيل بن كثيرط الحلبي.

(٤) سورة الشورى الآية ٤٠.

(٥) سورة البقرة الآية ٢٦٣.

(٦) سورة الفرقان الآية ٦٣.

(٧) سورة الفرقان الآية ٧٢.

— ٧ —

الإخلاص في العمل

المأخذ قوله في وصف الصابرين ومديحهم: ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم...﴾.

وإذا كان الصبر عاماً دخل فيه أنواع التكليف جميعاً. والإخلاص هو أصل ذلك كله.

وقد يعبر عن الإخلاص بالنية وذلك لاجتماعهما في القلب، وأنهما عملان باطنان لا يظهران وفي ذلك الحديث المشهور ﴿إنما الأعمال بالنية أو بالنيات﴾[1].

والإخلاص في حقيقته هو أساس النية، كما هو أساس لكل عمل ظاهر أو باطن من فعلٍ أو ترك..

والنية عمل يقبل أو يرد كغيره من الأعمال، فيتوقف صلاحها وقبولها على توافر الإخلاص فيها.

وقد ورد التصريح بمصطلح الإخلاص في القرآن كما في قوله: ﴿مخلصين له الدين﴾[2]. وفي مواضع كثيرة[2]، والذي في سورة الرعد: «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم» بمعناه.

— ٨ —

الصلاة والإنفاق

هذان رفيقان متلازمان لا يكادان يفترقان في القرآن، وإذا كانت الصلاة عبادة بدنية فإن الإنفاق أو الزكاة عبادة مالية.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ متقاربة.

(٢) سورة الأعراف الآية ٢٩، سورة يونس الآية ٢٢، سورة العنكبوت الآية ٦٥، سورة لقمان الآية ٣٢، سورة غافر الآية ١٤ و ٦٥، سورة البينة الآية ٥.

وفي الصلاة راحة للإنسان كما قال الرسول الكريم: «يا بلال أرحنا بالصلاة»[1]. وهي صلة بين العبد وربه خشوعاً في القلب، وتطهيراً للذات، وراحة للنفس.

وأما الإنفاق ـــ والمال شقيق الروح ـــ فمن أنفق فقد اقتحم العقبة وأفلح ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[2]. ﴿فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبه أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة﴾[3].

والإنفاق إذا كان من حله في محله، وقام على الإخلاص ولم يبطله المن والأذى، أعطى ثمراته في الدنيا والآخرة. وما سمى الإنفاق زكاة إلا لتطهيره النفس والمال. والمزكي يتغلب على الأنانية فيحسن إلى الآخرين، ولا يخاف الفقر فيحسن التوكل على رب العالمين.

وكذلك الصلاة الصادقة إن سبقتها شرائطها، ورافقتها هيئاتها، وتبعتها آثارها، أثمرت في الدنيا والآخرة. والنفس إنما تصلح إذا اتصلت بالله كل يوم خمس مرات، يجدد المصلي فيها عهده، ويدفع نسيانه بتجدد اللقاءات، وتكرر الصلوات.

كما يرتبط المصلي بالحياة الإجتماعية في المسجد فيكون عوناً، كما يجد العون من إخوانه المسلمين.

---

(١) رواه أحمد في مسنده.

(٢) سورة الحشر الآية ٩، سورة التغابن الآية ١٦.

(٣) سورة البلد الآيتان ١١-١٦.

الفصل الرابع عشر

ثواب أولي الألباب

الآيتان ٢٣ ـ ٢٤

قال تعالى:

جنـــاتُ عـــدن يـــدخـــلـــونهـــا،
ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم،
والملائكة يدخلون عليهم من كل باب،
ســـلام عـــلـــيـــكـــم بمـــا صـــبـــرتم.
فـــنـــعـــم عـــقـــبى الـــدار.

أولاً
مَباحِث تحليلية

جنات: مبتدأ خبره يدخلونها، أو هو بدل من عقبى الدار على سبيل التفسير والبيان.

والجنات أخروية، والجمع لتعدد ذواتها، أو درجاتها، أو أبوابها.

ومقابلة هذا الجمع بالجمع في قوله يدخلونها يقتضي أن يكون لكل واحد من الداخلين جنة أو جنات أو جنتان كما في قوله: ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾[1]. والجنة البستان تختفي أرضه بالأعناب والزروع والنخيل وكذا بالديار والأسوار.

عدن: عدن في المكان أقام فيه طويلاً إشارة إلى خلود الجنة وخلود أصحابها.

يدخلونها: الدخول: الولوج، وهو وما بعده أحوال لأولي الألباب من الدخول بأنفسهم ودخول الملائكة عليهم وصالحي ذويهم.

ومن صلح: صلح: خلاف فسد والصالح: خلاف الفاسد والواو تعطف الظاهر بعدها على الضمير المرفوع في: يدخلونها، وسوغ العطف الفصل بالضمير المنصوب.

من آبائهم: الآباء مفرده: الأب، والجمع: يشمل الأجداد وإن علوا وتدخل الأم والجدات وإن علون تغليباً.

وفي اللغة الأبوان للأب والأم بتغليب الأب ودخول الأم.

وأزواجهم: جمع زوج وهو الواحد المقابل بمثله، فيستعمل للذكر والأنثى معاً، والسباق في الذكور فيكون المراد هنا الإناث، يؤكده ذكر الآباء من الأصول،

---

(١) سورة الرحمن الآية ٤٦.

والذريات من الفروع، وهما قرابة النسب، فبقيت قرابة السبب وهي الزوجية.

ولا يبعد أن يراد بالأزواج الأشباه والقرناء من الأصحاب والأحباب.

وذرياتهم: الذر: الإلقاء مع التفريق كما في قوله: ﴿ والذاريات ذرواً ﴾[(١)].

والذرة: النملة الصغيرة من الدواب، وتكررت في قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[(٢)]. وتطلق على الهباءة ألتي ترى في الضياء، والمراد من الذريات هنا الفروع من الأولاد والأحفاد وإن نزلوا.

والملائكة: الابتداء بهم لتكريمهم ولثبوت الخبر عنهم وهو دخولهم. «والملائكة» جمع ملك أصله ملأك يسهل إلى ملاك ويخفف إلى ملك، معناه: مرسل.

قال صاحب اللسان في مادة ألك، والملك مشتق منه. وأصله مألك نقلت الهمزة إلى موضع اللام فقيل ملأك ثم خففت الهمزة بأن القيت حركتها على الساكن الذي قبلها فقيل ملك....

.. والجمع ملائكة دخلت فيها الهاء لا لعجمة، ولا لنسب.....».

يدخلون عليهم: المضارع لاستمرار دخولهم إشارة إلى تكرر دخول أحدهم، أو دخول طوائفهم.

سلام عليكم: مفعول لقول مقدر أي يقول الملائكة، أو يقول الله: السلام عليكم، لقوله تعالى: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾[(٣)].

والاسمية للدوام فهم في سلام دائم، والتنكير للتعظيم. والسلام هو الأمان لأنهم أمنوا من غضب الله وعذابه وفازوا بجنته ورضوانه.

بما صبرتم: «الباء» سببية: و«ما» مصدرية، والمعنى بسبب صبركم في الدنيا، بدلالة الماضي في الفعل. والصبر: حبس النفس عن المعصية وعلى الطاعة مما كلف الله به، وقدره وقضاه سبحانه.

---

(١) سورة الذاريات الآية ١.

(٢) سورة الزلزلة الآيتان ٧-٨.

(٣) سورة يس الآية ٥٨.

فنعم عقبى الدار: «الفاء»: لترتيب المنعم به على الصبر. ونعم من أفعال المدح، وفاعله «عقبى» والمخصوص بالمدح محذوف تقديره الجنة.

وكرر «عقبى الدار» مع الإظهار بدل الإضمار اهتماماً وإعظاماً لدار النعيم.

و «الـ» في الدار للعهد، وهي الدار الآخرة كما سبق. ويحتمل في الموضوعين أن تكون للجنس، فتدخل دار الدنيا حيث يجد المؤمن في حياته الدنيوية راحة وطمأنينة لا يجدها غيره من الناس.

ثانياً
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ نعم عقبى الدار.

٣ ــ اجتماع الأمثال والأسباب والأنساب.

٤ ــ السلام تحية الإسلام.

٥ ــ الملائكة في ذواتهم وصفاتهم.

ـ ١ ـ

المعنى العام

بعد تعداد صفات أولي الألباب ناسب أن يذكر ما يستحقونه من جزاء أخروي:

في جنات دائمة البقاء والعطاء، يدخلونها ويستقرون بها خالدين فيها إلى الأ بد بذواتهم وصفاتهم.

ويلحق بهؤلاء أصولهم وفروعهم وأزواجهم، أو أمثالهم ممن صلحوا مثلهم.

وقد أكرمهم تعالى جميعاً بدخول الملائكة عليهم من أبواب الجنة، وللجنة ثمانية أبواب، أو من أبواب غرفهم الكثيرة، يهنئونهم بالسلامة والكرامة بسبب صبرهم الجميل في حياتهم الدنيا «فنعم عقبى الدار» في الآخرة.

ـ ٢ ـ

نعم عقبى الدار

ونعم عقبى دار الدنيا فإن أولي الألباب المتذكرين هم أسعد الناس في الدنيا بسبب أمنهم واطمئنانهم ورضوانهم ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[١]. وفي الآخرة عقبى الدار جنات بمياه وخضرة ونضرة، وأزهار وأثمار، وقد ورد في صفتها من النعيم: «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٢]، وذلك على سبيل الإجمال، مع ما

(١) سورة فصلت الآيتان ٣٠-٣١.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة.

أخبرنا تعالى به في كتابه، وأخبر عنه الرسول في سنته، مما اعد للصالحين المحسنين على سبيل التفصيل.. من طعام وشراب وفاكهة ولباس وحلي وحور ودور ومقام أمين كريم.... والكريم يقول: ﴿ولدينا مزيد﴾[(١)].

وللجنة أبواب ثمانية بعدد طبقاتها القاصية والدانية، أو أنها أبواب كبرى وصغرى، أو أنها أبواب خاصة بنوع من الأعمال وزمرة من العاملين.

والجمع والإفراد في الجنة مقصود، فالجنة بالإفراد للنعيم تقابل نار الجحيم.

وأما الجمع فلطبقاتها المتعددة، ودرجاتها المتنوعة، وزمر الداخلين فيها.

وللجنة أسماء كثيرة منها هذه التسمية المشهورة التي ذكرت في بداية الفصل ﴿جنات عدن يدخلونها﴾... الآية، ومنها ما ذكر في آخر الفصل وهو «الدار» وهذه الأسماء هي صفات لتعريفها وتشريفها....

والجمهور على أن خلودها إلى أبد لا إلى أمد، وقوله تعالى: «عدن» في وصف الجنات يؤكد ذلك.

ـ ٣ ـ

اجتماع الأمثال والأسباب والأنساب

الإنسان كائن اجتماعي بطبيعة فطرته، لا يستطيع أن يعيش منفرداً لوحده، لأنه لا يستطيع أن يقوم وحده.

والناس يكمل بعضهم بعضاً في معاش الحياة، يعيشون زمراً ويعملون جماعات فيتشابهون في فكرهم وفي سلوكهم.

وهم يحشرون يوم القيامة على ذلك، فيثابون أو يعاقبون. والناس إنما يحملون دنياهم لأخرتهم، فإن أحسنوا وجدوا الحسنى، وإن أساؤوا أصابتهم السوءى. ومن تمام الحسن والسوء اللقاء بين المحسنين والمسيئين من الأمثال والأشباه، ومن الأرحام والأقارب أسباباً وأنساباً.

---

(١) سورة ق الآية ٣٥.

وقد أخبر تعالى عن يوم الجمع في سورة يس: ﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾ (١).

وفي سورة الطور: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ (٢).

وهذا كله مقيد بالصلاح فقد جمعهم صلاحهم ولم يجمعهم أنسابهم كما قال تعالى: ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ (٣).

ويؤخذ من هذا مشروعية التكوين الاجتماعي ضمن دوائر الأسرة والقبيلة والشعب والقوم. على أن تتعارف على الحق والعدل، والبر والتقوى.

— ٤ —

السلام تحية الإسلام

التحية القرآنية في الجنة ما ذكر في الآية: ﴿ سلام عليكم﴾ وهي جملة اسمية ورد مثلها في سورة الذاريات في ردّ إبراهيم على تحية الملائكة: ﴿ إذا دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام﴾ (٤).

وتحية الملائكة كانت بالجملة الفعلية لأن «سلاماً» بالنصب مفعول، أما قول إبراهيم: «سلام» بالرفع فهو جملة اسمية، وعلماء اللغة يقرون أن الاسمية أبلغ من الفعلية، بمعنى أنها أحسن منها. مصداقه قوله عز وجل ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها﴾ (٥).

والتحية رمز يعبر عن حال المؤمنين في دنياهم وفي آخرتهم فحالهم وشعارهم ومآلهم هو السلام.

---

(١) سورة يس الآية ٥٦.

(٢) سورة الطور الآية ٢١.

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٠١.

(٤) سورة الذاريات الآية ٢٥.

(٥) سورة النساء الآية ٨٦.

والسلام على الأرض يدعو إليه الدين كما يدعو إليه المصلحون. وفي جو السلام يسود التعارف بين الشعوب والقبائل والأقوام، ويتعاون الناس لدفع الظالم والدفاع عن المظلوم، كي يتحرر الإنسان في تفكيره واختياره.. ولقد بلغ الاهتمام بالسلام أن ﴿الدين عند الله الإسلام﴾[(١)]. فالإسلام هو السلام، وجعل تعالى جزاء الآخرة للمسلمين دار السلام فقال: ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾[(٢)]، وشرع الاستجابة لدعوة السلام فقال: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾[(٣)]. وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة﴾[(٤)]، بل جُعل شعار المسلمين في تعارفهم ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً﴾[(٥)].

هذا... ولست أنكر أن حال المسلمين على الخلاف. فهم اليوم من أقل الناس سلاماً.

أعادهم الله إلى إسلامهم ليحققوا السلام لأنفسهم وليحملوه لهذا العالم الذي يشتعل بالفتن وتأكله الحروب...

— ٥ —

الملائكة في ذواتهم وصفاتهم

خلق الله المكلفين فجعلهم إنساً ظاهرين، وجناً مستترين. وكما اختار من الإنس أنبياء مرسلين، فكذلك اختار من الجن ملائكة مرسلين، وقد بينا أن معنى ملك هو مرسل.

والجن — من جن بمعنى استتر — ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: فمنهم الأخيار المقربون الذين يطيعون ولا يعصون. ومنهم الأوساط الذين يطيعون ويعصون وهم الجن عرفا. ومنهم العصاة، وهم الشياطين على رأسهم إبليس لعنه الله، وأعاذنا منه ومن ذريته.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٧.

(٣) سورة الأنفال الآية ٦١.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٠٨.

(٥) سورة النساء الآية ٩٤.

وجنس الملائكة أنواع تبعاً لدرجاتهم ووظائفهم، عرفنا تعالى بهم لعلاقة دنيوية وأخروية معهم.

وذكر من أسمائهم: جبريل وميكال ومالك:

وذكر من وظائفهم وصفاتهم: ملك الموت، والروح الأمين، والمتعاقبين، وحملة العرش ومن حوله..... الخ.

الفصل الخامس عشر

الملعونون

الآية ٢٥

قال تعالى:

والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه؛
ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل،
ويفسدون في الأرض،
أولئك لهم اللعنة،
ولهم سوء الدار.

أولاً
مباحث تحليلية

والذين ينقضون: النقض تقدم وهو: حل المعقود، ونثر المنظوم، وهدم المبني، وعدم إبرام الأمر.

وهو في العهد والميثاق وكذا في الوعد واليمين: الخلف والغدر والحنث.

عهد الله: العهد تقدم وهو: ما عهد به للإنسان، إما في عالم الذر في الإقرار بالربوبية، أو العهد لبني آدم لمخالفة الشيطان وعداوته، أو العهود بين الناس في معاملاتهم.

من بعد ميثاقه: قوله: «من بعد» يفيد تأخر الميثاق عن العهد الأول، كعهد الفطرة الموثق بميثاق عالم الذر في صلب الآباء، أو عهد عالم الذر الموثق برسالات الأنبياء، أو عهد الرسالات الموثق باليمين والبيعة ونحوهما.

ويقطعون ما أمر: القطع: الفصل بين الشيئين كقطع الرحم، وإلقاء الفراق والشقاق بين الموصولين من الأقرباء والشركاء وغيرهم.

والأمر تقدم أنه: الطلب من الأعلى إلى الأدنى.

ويفسدون في الأرض: الفساد: خلاف الصلاح، والأرض على ظاهرها من إرادة ذاتها. والإفساد فيها: بتغيير معالمها، وإهدار أقواتها، أو الإفساد في أهلها بظلمهم، وإفساد فطرتهم.

أولئك: إشارة البعيد لتهويل جريمتهم.

هم اللعنة: تقديم «لهم» لتوبيخهم، وتأخير «اللعنة» لإثارة الفضول إليها والاستطلاع عليها. وقوله: «لهم اللعنة» إما دعاء عليهم، أو إخبار عنهم، والثاني ظاهر.

واللعنة: الطرد والإبعاد.

وإذا كان المراد لعنة الله وهو المتبادر، فيكون البعد عن رحمته والطرد من رؤيته. والجملة الاسمية تفيد دوام اللعنة ولزومها.

ولهم سوء الدار: قدم وأخر لحصر السوء فيهم وقصره عليهم، وسوء الدار في الآخرة هو عذاب جهنم.

ثانيًا
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ المفسدون في الأرض.

٣ ــ الملعونون.

٤ ــ سوء الدار.

— ١ —

المعنى العام

بعد ما ذكر تعالى صفات أولي الألباب وجزاءهم، ناسب أن يذكر من يقابلهم ويختلف عنهم في الوصف والجزاء.

فذكر من صفاتهم أنهم ينكثون ما عاهدهم الله عليه من التكاليف على الرغم من تغليظه بالمواثيق.

وهم كذلك يقطعون المأمور بوصله من أرحام وغيرها، وهم لا يصلحون في الأرض بل يفسدونها أو يفسدون فيها بتغيير معالمها وتعطيل أقواتها، وتهديم عامرها، وإتلاف ثامرها، والاستكبار على أهلها.

ومثل هؤلاء يستحقون أسوأ العقاب، كالطرد من الرحمة، والسوق إلى النار، وسوء الدار.

— ٢ —

المفسدون في الأرض

جعل الله في آفاق السموات والأرض وأنحاء البدن الإنساني سنناً مطردة في الخلق والتكوين، وفي الطبائع والغرائز.

والسنن ثابتة لا تتغير، ونافذة لا تتعطل، وماضية لا تتخلف: ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ (١).

﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ (٢).

(١) سورة الأحزاب الآية ٦٢.
(٢) سورة الروم الآية ٣٠.

وأي تدخل في سنن التكوين بالتبديل والتعطيل يؤدي إلى الآثار السيئة في الحال والمآل. وبدءاً من تغيير ملامح الوجه، إلى تقطيع آذان الأنعام، إلى التلاعب بالميول والغرائز عن طريق المسكرات والمكيفات والمخدرات والمفترات وعقاقير الهلوسة، والأدوية المتحكمة في المشاعر المسلطة على التفكير، مما يعطل عمل العقل والقلب، وإلى التدخل الخطير في إعداد واستعمال الأسلحة الذرية والهيدروجينية والنيوترونية والعضوية، وإفساد الذمم والهمم، والتواكل والتخاذل، وتوريث الجبن والرياء، والكذب والخيانة، ونحو ذلك من الرذائل التي يسنها الطغاة البغاة المتبوعون...

ولعل من أعظم الخطر التدخل في «برنامج» الخلق لتغيير خطة التقدير في الخلق والطبائع، ويتبع ذلك أعمال السحر المستخدمة للجن والشياطين.

ـ ٣ ـ

الملعونون

المأخذ قوله عنهم: ﴿ ولهم اللعنة ﴾...

واللعنة دعاءاً كانت أو إخباراً فهي نازلة واقعة منه تعالى على الذوات التي يعاديها، والصفات التي يكرهها وهو تعالى كما يقرب أولياءه من رحمته فإنه يطرد أعداءه لتحل بهم نقمته..

ومن الملعونين إبليس وأتباعه من الشياطين، وكذلك أنواع الكبائر.. وكل من لعنه الله أو ما لعنه الله جاز لعنه أو وجب، سواء كان ذاتاً أم صفة، كلعن الكذب أو الاستعاذة من الشيطان الرجيم. لكن لا ينبغي لعن معين لم يعرف خاتمته.

والمؤمن لا يكثر اللعن فليس هو بلعّان.

ولما لعن[1] رسول الله «رعلاً» و «ذكوان» من أهل اليمامة في مَقْتَلَةِ القرّاء

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦١/٤ وانظر البغوي بهامش الخازن ٤٤٨/١-٤٤٩ وأصل الحديث في البخاري عن ابن عمر.

أنزل عليه قوله: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾[١].

واللعان بين الزوجين مذموم لأنه يؤدي إلى فراقهما والدعاء بالغضب واللعنة كما في آيتي النور[٢].

وكان من أسباب نقص الدين في النساء كثرة اللعن[٣]، واللعنة كلمة تخرج من فم لتنزل على أهلها المستحقين لها، فإن لم تجد لها موضعاً رجعت إلى صاحبها الذي خرجت منه، كما روي[٤].

— ٢ —

سوء الدار

للعذاب الأخروي أسماء كثيرة هي صفات لتعريفها، وتهويل أمرها وخطرها، وبيان دركاتها وطبقاتها.

والصفة تصبح اسماً بسبب كثرة الاستعمال.

وكثرة الأسماء لسوء الدار في مقابل كثرتها في عقبى الدار هو لغرض الاهتمام، والترهيب والترغيب، وللدلالة على هول السوء الذي يصيب الكافرين في دار الآخرة يوم التغابن.

ومن الأسماء، سعير، وسقر، و جهنم ولظى وزمهرير وجحيم ونار.. الخ.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٢٨.

(٢) سورة النور الآية ٧ والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. سورة النور الآية ٩ والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين.

(٣) مسلم في كتاب الايمان.

(٤) الترمذي في البر والصلة، وأحمد في المسند.

الفصل السادس عشر

مشيئة الله
الآيتان ٢٦ - ٢٧

قال تعالى:

الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.
وفرحوا بالحياة الدنيا،
وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع.
ويقول الذين كفروا: لولا أنزل عليه آية من ربه؟.
قل: إن الله يضل من يشاء،
ويهدي إليه من أناب.

أولاً
مَباحِث تحليلية

الله: ابتدأ بالذات وأظهرها تعظيماً لها، وتأكيداً لنسبة الخبر وهو «البسط» إليها.

يبسط: البسط: هو النشر والتفريق، ويراد التوسعة خلاف التضييق.
وعبر بالمضارع لإفادة البسط في الحال والوعد به في المآل، ومثله الوعيد في التعبير بالمضارع الآتي: يقدر.

الرزق: عطاء الله الجاري المتجدد، وهو الأقوات من الأرض والسموات لسد ما يطلبه الإنسان من ضرورات وحاجات وتحسينات.

يشاء: شاء شيئاً والمشيئة هي إرادة التكوين في البسط والتقدير، وكذلك إرادة التشريع في قوله الآتي: «يضل»، «ويهدي إليه»..

ويقدر: قَدَر يقدِر وَيَقْدُرُ بمعنى قتَّر وضيَّق.

وفرحوا: حال بتقدير «قد» في بيان حالة من تقدم ذكرهم، وتعديد صفاتهم من نقض العهد والميثاق وقطع الموصول وإفساد الأرض.
والفرح: السرور، وكثر استعمالها في الشر ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ (١).
وهو فرح البطر والكبر والأشر.

بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة: «الحياة» تقابل الموت: ﴿خلق الموت والحياة﴾ (٢).
وسبب الحياة نفخ الروح كما أن سبب الموت هو نزعها.

و «الدنيا» من الدنو أي القرب، والدنيا مؤنث الأدنى أي القربى، خلاف الحياة البعدى وهي الآخرة. وسميت الآخرة لتأخرها، وهي صفة لمناسب

(١) سورة القصص الآية ٧٦.
(٢) سورة الملك الآية ٢.

أي الحياة الآخرة بتقدير مضاف أي: في جنب الحياة الآخرة، فيما لو قوبلت أو قورنت بالحياة الدنيا.

إلا متاع: أداة استثناء مفرغ تفيد الحصر، وأصل التعبير: الحياة الدنيا متاع. و «متاع» مصدر ميمي، أو اسم مصدر تمتع تمتعاً، يستعمل اسماً لما يتمتع به ويستفاد منه للمعاش، والنكرة للقلة.

ويقول الذين كفروا: الجملة حالية، أو استئناف للاهتمام بما بعده. وأظهر الضمير لإبراز ما في حيِّز الصلة للحكم على قولهم بأنه كفر، أو بيان حالهم وهو الكفر.
والمضارع في «يقول» للدلالة على صدور القول منهم في الحاضر وامتداده إلى المستقبل..

لولا أنزل: «لولا» استعملت للتحضيض وأفادت هنا التوبيخ لدخولها على الماضي «أنزل». وعبر بالنزول لأن النبوة تلقي النبأ من العلو يؤكده الظرف «عليه. وصيغة المجهول في الفعل تتضمن الإبهام الدال على العموم المفيد لتعظيم المنزِل والنازل والمنزَل عليه.

آية: علامة باهرة بدلالة ظاهرة، وتنوين النكرة بدل من صفة مناسبة نحو: آية محسوسة.

من ربه: «من» ابتدائية لبيان مصدر النزول لدفع تشكيكهم في مصدر الرسالة وفي صدق الرسول.

قل: الخطاب للنبي ابتداء، ويدخل فيه كل من كان على مثل حاله. ومقول القول: «إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب».

إن الله يضل: الضلال: الحيرة والضياع أي الحيرة في تبين الحق وإضاعته. ومؤدى الضلال الهلاك، والمضارع للتهديد لوقوع الضلال في الحال والمآل.

من يشاء: فاعل المشيئة هو الله أو العبد، والمعنى: يشاء الله، أو المعنى: يشاء العبد. والمعنى الثاني يتقابل مع قوله ويهدي إليه من أناب أي العبد. وصيغة المضارع في يهدي ويضل للترغيب والترهيب لوقوع أثر الفعلين وهما الهداية

والضلالة في الحال والاستقبال كما هو دلالة المضارع.

ويهدي إليه من أناب: الهداية: البيان بعناية والدلالة بلطف. ولا يلزم منه الاهتداء إلا في هداية الرب سبحانه... لأنه خالقها وخالق كل شيء. وتأخير «من أناب» لحصر الهداية في المنيبين، وتقديم «إليه» لحصر الهداية به وحده فهو تعالى الدال عليها، الموفق إليها. وتأخير «من أناب» للاهتمام بالمنيبين والتشويق إليهم وقوله: «أناب»: مثل: تاب، وزناً ومعنى، وهو الرجوع عن المعصية إلى الطاعة.

ثانيا
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ بسط الرزق وقدره.

٣ ــ الدنيا متاع.

٤ ــ الهداية توفيق ودلالة.

٥ ــ الإنابة.

ـ ١ ـ

المعنى العام

بعد أن ذكر تعالى أولي الألباب ومن يخالفهم في صفاتهم ومصيرهم، شرع في بيان السبب وراء هذه المسببات، وهو مشيئة الرب..

ففي العادة يقدم السبب على المسبب، وقد تأخر هنا لحكمة التعجيل في ذكر الأهم ثم التفرغ لغيره.

وفي الآيتين إعلان عن مشيئة الرب القادرة في الأقوات والأرزاق توسيعاً وتضييقاً، وإعلام بالمشيئة القاضية في الهداية والضلالة كفراً وإيماناً.

والمكلفون يغترون بالدنيا الفانية فيضلون عن سواء السبيل، لأنهم لا يرون الحق ولا يعرفون الحقيقة، بل ينسـون الآخرة، ولذلك تراهم يطلبون آية تشهد على صحة الرسالة وصدق الرسول، مع أن القرآن بذاته آية بل آيات، لكن لمن عقلها وتدبر فيها، وأناب إلى الله حتى اهتدى بهدايتها.

ـ ٢ ـ

بسط الرزق وقدره

الرزق نازل من السماء وخارج من الأرض:

ـ ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ (١).

ـ ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ (٢).

ـ ﴿وبارك فيها وقدر فيها أقواتها﴾ (٣).

---

(١) سورة الذاريات الآية ٢٢.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٩.

(٣) سورة فصلت الآية ١٠.

ومن ألق نظرة إلى آفاق السماء وفي أعماق الأرض ثم نظر إلى أقرب الأشياء إليه، لأدرك عظم النعم وكثرتها: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ [١]. ولكن الألف يصنع العرف ويضعف الذاكرة وينسي المعرفة، ولذا لزم الضرب في الأرض والنظر في السماء للكشف عن آيات جديدة تدفع إلى التدبر والاعتبار، وتجديد الشعور بعظمة الخلق وما فيه من نعمة ﴿قل أنظروا ماذا في السموات والأرض﴾ [٢].

﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [٣].

وما ساقه الله إلينا من فوقنا ومن حولنا وتحت أقدامنا من النعم هو لتثقيف عقولنا، وتلطيف عواطفنا، واشباع حواسنا، فسبحان من حمل شرابنا الطهور في السماء على السحاب، وأنزله مقطراً، وخزنه معقماً، وفجره تفجيراً...

وبث حولنا الطعام محمولاً على أغصان الأشجار، وفي جذوعها وجذورها... وسير لحوم الحيوان طائراً وسائراً، وزاحفاً وسابحاً...

وما حرم علينا في كتابه إلا لحوم الخنازير كما قال في عدد من السور وما حرم علينا الرسول في سنته إلا الحمار الأهلي على ما روي [٤].

وحكمة الله اقتضت أن يضيق حيناً ويوسع أحياناً، أو يضيق على فرد ويوسع على آخرين.

ومن وسع تعالى عليه كمن قدر عليه وضيق، وكلاهما مبتلى، أحدهما بالكثرة والآخر بالقلة...

ليعلم الله من يشكره فلا يبطر، ويعلم الصابرين الذين يشكرون ولا يكفرون.

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٤.

(٢) سورة يونس الآية ١٠١.

(٣) سورة الذاريات الآية ٢١.

(٤) رواه البخاري في الصيد ورواه مسلم في الصيد والذبائح.

- ٣ -

الدنيا متاع

متاع الدنيا هو الطعام، والشراب، والنكاح، والركوب، والسكن، واللباس، والجاه، والسلطة... الخ. وأفخر الطعام وأطيبه وأزكاه وأغلاه يخرج لاكما دخل، وأنفس الثياب وأجملها وأنسبها تأتي عليها السنين، كما تأتي على الوجوه الناضرة والقصور العامرة. ومعنى ما قلناه مروي عن علي كرم الله وجهه.

والله يخبر عن الحياة الدنيا أنها متاع يعني زائل، أو هو كما قال: ﴿متاع الغرور﴾ [١]. ولكن الانسان يشغله الغرور ويلهيه التكاثر. مع أن الحياة الدنيا كلها ممر لمقر وزاد لمعاد.

والعاقل من يتزود من الفانية للباقية، ومن العاجلة للآجلة، والآخرة خير من الأولى..

والعاقل يفكر قبل لذة المعصية بألم العقاب وحرمان الثواب، وفي الجنة كما في النار من الجزاء ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

- ٤ -

الهداية توفيق ودلالة [*]

تقدم الحديث عن الهداية وأنواعها وهنا مزيد، فقد قسمت الهداية إلى توفيق ودلالة، لتصحيح نسبة الأخير إلى الخالق والآخر للمخلوق.

وعلى هذا تنسب الهداية إلى الله والرسول والدعاة بجامع البيان والدلالة. ولكن هداية الخلق والتوفيق خاصة بالله سبحانه وتعالى، وعلى هذا يفهم إثبات الهداية للعبد تارة ونفيها عنه تارة أخرى.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٨٥، سورة الحديد الآية ٢٠.

(*) انظر الموضوع العاشر من الفصل الرابع.

كما في قوله تعالى لرسوله الكريم: ﴿إنك لا تهدي﴾ [١] ﴿وإنك لتهدي﴾ [٢] فيحمل المثبت على الدلالة والبيان، ويحمل المنفي على الخلق والتوفيق. والعبد كاسب ظاهراً يتخذ الأسباب التي تتحقق حيناً، وتتخلف حيناً آخر.

والأصل الجامع هو خلق الله لأفعال العباد كلها: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ [٣] ومن ذلك الهداية في العبد.

أقول هذا حفاظاً على المضامين اللغوية، والتوفيق بينها وبين المصطلحات الشرعية.

وأعيد القول في أن الهداية اللغوية بمعنى الدلالة تنسب للرب والعبد نفياً وإثباتاً ومن ذلك قوله: وأما ثمود فهدينا هم فاستحبوا العمى على الهدى [٤] أما الاهتداء بمعنى خلق الهداية وهو من لوازم الهداية فهي ثابتة لله وحده منفية عن غيره فالله خالق للهداية وخالق لكل شيء.

— ٥ —

الإنابة

الإنابة هي التوبة بمعنى الرجوع عن المعصية إلى الطاعة، بشروطها وآدابها.

وظاهر قوله تعالى: ﴿ويهدي إليه من أناب﴾: أن الإنابة طريق للهداية... وشواهده كثيرة فيما حكاه القرآن عن داود وسليمان وآدم وآخرين... كما في قوله:

- ﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ [٥].
- ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ [٦].

---

(١) سورة القصص الآية ٥٦.
(٢) سورة الشورى الآية ٥٢.
(٣) سورة الصافات الآية ٩٦.
(٤) سورة فصلت الآية ١٧.
(٥) سورة الشورى الآية ١٣.
(٦) سورة البقرة الآية ٣٧.

﴿وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (١).

ـ ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب. فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب. وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (٢).

والإنابة باب مفتوح للعودة إلى الحق، وعدم التمادي في الباطل. وهي طريق للتطهير، وإراحة الضمير، بل الانابة عبادة ترفع المنزلة، كما صرحت به الآيات عن سليمان عليه السلام.

وفي المروي: «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» (٣).

---

(١) سورة ص الآيتان ٢٤-٢٥.

(٢) سورة ص الآيتان ٣٥-٤٠.

(٣) رواه الترمدي عن أنس.

الفصل السابع عشر

ذكر الله

الآيتان ٢٨-٢٩

قال تعالى:

الذين آمنوا. وتطمئن قلوبهم بذكر الله.
ألا بذكر الله تطمئن القلوب.
الذين آمنوا، وعملوا الصالحات،
طوبى لهم وحسن مآب.

أولاً
مباحث تحليلية

الذين آمنوا: صفة من أناب أو بدل، ويحتمل الاستئناف فموقعه الابتداء، وخبره مفهوم من قوله: «وتطمئن قلوبهم».
وآمنوا من الإيمان، وهو الأمن والسلام، ومن سلم وأمن فقد اطمأن وصدق، فاستعمل في التصديق، والمراد التصديق بآيات التنزيل.
وعبر بالموصول للتعميم ليدخل كل من اتصف بمسمى الإيمان، وعبر بالماضي في الصلة لبيان زمنه وتأكيد وقوعه.

وتطمئن: من «الطمأنينة»: السكون بعد الانزعاج، وعبر بالمضارع لتجدد الطمأنينة بتجدد داعيه.
والطمأنينة أعلا درجات الإيمان، أو درجة فوق ذلك والثاني ظاهر لقول إبراهيم لربه: بلى ولكن ليطمئن قلبي (١).

قلوبهم: القلب مأخوذ من قلب الشيء وتحويله، والقلب يتقلب.

بذكر الله: من إضافة المصدر لمعموله، أي ذكر العبد لله. والباء سببية، والذكر إعادة المنسي إلى الذاكرة أو إظهار المسكوت عنه بكلام اللسان.

ألا بذكر الله تطمئن القلوب: «ألا» أداة تنبيه، وما بعدها مكرر للتوكيد «وال» في القلوب للعهد أي قلوب المؤمنين، أو للجنس فيكون من قبيل ذكر العام بعد الخاص، فيدخل كل ذاكر وإن لم يكن مؤمناً.

وعملوا الصالحات: العمل هو الكسب، وهو أخص من الفعل الذي هو مجرد الحدث، لأنه فعل قائم على نية واختيار. وذلك بفعل الحسن الصالح، وترك

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠.

السيء القبيح. و«صالحات» جمع صالحة، مؤنث صالح، صفة لمقدر، أي الأعمال الصالحات، والصلاح خلاف الفساد والبطلان.

طوبى لهم: الجملة دعاء لهم، أو إخبار عن جزائهم، وطوبى مصدر طاب، عبّر به على سبيل المبالغة في العطاء. ويحتمل أن تكون مؤنث أطيب على صيغة التفضيل بالنسبة لعطاء غيرهم، واللام في «لهم» للاختصاص والملك، والطيب ما تستلذه النفس. ويقال طوبى: اسم شجرة في الجنة.

وحسن مآب: الحسن: خلاف القبيح سمي به لظهور الحسن وهو الجمال على صاحبه، وهو من إضافة الصفة لموصوفها، والمآب: المرجع. لكن المآب أخص لأنه رجوع بنية، ولذا يختص به العقلاء.

ثانياً
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ اطمئنان القلب.

٣ ــ الذكر.

٤ ــ طوبى اسم شجرة.

٥ ــ الجمع في العمل بين الظاهر والباطن.

ــ ١ ــ

المعنى العام

أجمل في نهاية الآية السابقة هداية المنيبين.

وشرع هنا في تفصيل أعمالهم وبيان جزائهم وهم قد جمعوا في أعمالهم بين صلاح الظاهر والباطن فجمع الله لهم بين الجزاء الدنيوي والأخروي وذكر أنواعاً ثلاثة:

ــ أولها: اطمئنان القلب فلا خوف ولا حزن.

ــ وثانيها: العطاء الطيب من كل مطلوب مرغوب.

ــ وثالثها: المآب الحسن لمن أناب.

فالمنيبون مؤمنون يصدقون بالتنزيل، ويزدادون إيماناً عند ذكر الله، وذكر الله يعطي الأمان والاطمئنان للقلوب حتى تبرأ من الحيرة والاضطراب ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

والذين آمنوا باطناً وعملوا الصالحات ظاهراً في الدنيا ــ دار التكليف ــ هؤلاء لهم في الآخرة ــ دار الجزاء ــ أطيب مقام، وأحسن مصير.

﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾.

ــ ٢ ــ

اطمئنان القلب

القلب يتقلب. فيضطرب الإنسان ويتحير ويقع عند الخوف والحزن في اليأس كما يقع عند الطمع في الطغيان.

وآية الرعد تذكر الاطمئنان وتبين أن الوسيلة هي ذكر الله: «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب».

وآية الأنفال تذكر الوجل: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾(١).

والآيتان تدفعان اليأس كما تدفعان الطغيان، وليس بينهما منافاة بل بينهما تقابل على سبيل التكامل، فهو في حقيقته تقابل بين الخوف والرجاء.

وذلك أن الوجل هو الخوف من غضب الله.
وأن الطمأنينة هي الأمان في رحمة الله.

والخوف والرجاء أصلان في الدين يعتدل بينهما المهتدون المنيبون، وهما وإن كان كل منهما عبادة مطلوبة لذاتها، ولكن بالنظر لتقابلهما فلا يمكن التلبس بهما معاً في ذات الوقت.

فالخوف يكون عند التدبر في صفات العزة والجلال، ويكون الرجاء في صفات اللطف والعطف والرحمة.

لكنَّ القرن بينهما والتوسط فيهما يدفع الإفراط والتفريط ــ أي الجراءة والطغيان أو اليأس والقنوط ــ.

وبسبب تعاقب الخوف والرجاء يأمن القلب من الانجراف أو الانحراف... حتى يتغلب جانب الرجاء، لكن ليس على حساب الخوف، فيموت بقلب سليم وهو يحسن الظن بالله.

وما ذهبت إليه يدل عليه قوله تعالى في سورة الزمر:

﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد﴾(٢).

والمؤمن يربي قلبه ويهذبه بالخوف حتى لا يقسو بالرجاء، وهو ينميه ويغذيه بالرجاء حتى لا يفرط بالخوف...

(١) سورة الأنفال الآية ٢.
(٢) سورة الزمر الآية ٢٣.

ويؤكد على هذا المعنى حديث: «إن رحمتي تغلب غضبي» روي تغلب وغلبت وسبقت [١].

هذا وان وجل القلب مما يشترك فيه الناس، وجميعهم يمرون في دوامة القلق والحيرة. لكن الفارق بين المؤمن والكافر أن المؤمن يشده الرجاء فيضبط خوفه، فوجله محدود مقيد كاللجام يكبح جماح الفرس.. أما الكافر فيدفعه خوفه حتى يقضي عليه.. وهو إن رجا فإنما هو في حال تخدير وسكر وغفلة ونسيان، ومتى استيقظ من غفلته وصحا من سكرته وخدرته تضاعف خوفه وشقاؤه.

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ [٢].

ـ ٣ ـ

الذكر

القلب وعاء واللسان آلة، فإن لم تملأ القلب ولم تحرك اللسان بالخير امتلأ ذاك وتحرك هذا بالشر، والقلب الفارغ يحتله الشيطان بوسوسته ونفثه ونفخه، حتى يمتلىء بالغيرة والحقد وسوء الظن.

والقلب المليء بذكر الله الموصول بنور الله ينضح بما فيه، وذكر الله غذاء لقلب المؤمن يرويه، ودواء له يشفيه، وحارس يدفع عنه الخبث والخبائث، وجلاء من دنس النفس، وتطهير للضمير.

والذكر بالمأثور أفضله، والمشروع أن يناسب المقال الحال. والحاجات المطويات في الإنسان مقضيات بآثار الأسماء الحسنى والصفات العليا... فليتقدم صاحب الحاجات بقلته وعلته إلى من بيده خزائن الرحمة، وهو قاضي الحاجات يعفو عن كثير، ويعطي الكثير.

---

(١) رواه البخاري في كتاب التوحيد وبدء الخلق. ومسلم في التوبة.

(٢) سورة الزمر الآية ٢٢.

— ٤ —

طوبى اسم شجرة

أورد كثير من المفسرين أن «طوبى» اسم شجرة في الجنة، أصلها في دار النبيّ أو عليّ، وفرعها في كل بيت من أهل الجنة... [١] والله أعلم بصحة السند وسلامة المتن. وقالوا: هي كذلك بلغة الهند أو الحبشة... والله أعلم بحقيقة النسبة، وصحة التسمية.

ولا يكفي مجرد التشابه في بعض الحروف بين الكلمة العربية والكلمة الهندية أو الحبشية... إلى جانب أن الذين يقولون بالعجمة ليسوا على علم بتلك اللغات على ما يبدو فاحتطبوا بليل، وخاضوا في خبط وخلط..

وتقدم القول في أنّا لسنا نمنع الأخذ والاقتباس بين لغة ولغة، ولكنا ننكر الخلفية — لهؤلاء — التي تعتمد على أن في القرآن كلَّ شيء، بمعنى أن فيه كلَّ اللغات، وهو بهذه الحالة لا يكون عربياً خالصاً.

وقد صرح القرآن في أكثر من موضع أنه عربي وأنه مبين.

وظاهر أن طوبى مصدر أو مفاضلة طاب، والطيب خلاف الخبيث في لغة العرب، والسياق يؤكده لأنه في معادل عقبى الدار، ومقابل سوء الحساب...

وكون طوبى اسم شجرة لا يثبت إلا بدليل مقطوع به، لأنه خلاف لغة العرب، ولا نعلم في لغة العرب أن طوبى اسم شجرة.

وما خرج عن لغة العرب لم يثبت إلا بدليل مقطوع به بيقين، لكونه إخباراً عن غيب، والغيب لا يثبت بضعيف الرواية، كما لا يثبت بظن الاجتهاد.

— ٥ —

الجمع في العمل بين الظاهر والباطن

مأخذ الموضوع قوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾. وفي الحديث «إنما

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٣/٨٦.

الأعمال بالنية، أو بالنيات»[١].

وهذا يعني أن أحدهما موقوف على الآخر، أو ملازم له لا ينفك عنه.

والعمل الباطن ـ وهو الإيمان في القلب ـ هو الأساس الذي يقوم عليه الظاهر وهو الأعمال الصالحات.

وكون أحدهما أساساً لا يقلل أهمية الآخر، فكما أن الظاهر وحده قشور لا لباب له، وهياكل فارغة لا أصل لها، ولا ثمرة فيها... فكذلك الباطن وحده هو بذرة غير مثمرة، وروح بلا جسد وقلب بلا جوارح. ولا يخرج من هذا إلا حال الإكراه فإن المدار حينئذ على الباطن للضرورة.

وفي الفرق الإسلامية يتواجه الإفراط والتفريط، بسبب الميل إلى أحد الجانبين على حساب الآخر، ومع أنهما في حقيقة الأمر يتكاملان فلا يقوم أحدهما إلا على الآخر أو بالآخر، ويتلازمان بحيث لا يمكن فصلهما عن بعضهما، لكنهما عند هذه الفرق يستقلان، فتجد الظاهرية كما تجد الباطنية قد ضلا سواء السبيل على السواء.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الفصل الثامن عشر

تلاوة الوحي

الآيـة ٣٠

قال تعالى:

كذلك، أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم ـ
لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك ـ
وهـم يـكـفـرون بـالـرحمـن.
قـال: هـو ربـي،
لا إلـه إلا هـو،
عـلـيـه تـوكـلـت،
وإلـيـه مـتـاب.

أولاً
مَباحِث تحليلية

كذلك: فيها أربع أدوات، «الكاف» الأخيرة للخطاب، «واللام» للبعد، و«ذا» إشارة يراد بها ما مضى، «والكاف» الأولى بمعنى مثل يراد بها ما يأتي. والمعنى «هذا الموقف العام من أمة الدعوة»، «مثله موقف أمتك» وهذا المعنى صرحت به آيات مثل: ﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ [(١)].

أرسلناك: الرَّسْل: البعث بصفة التمهل والتؤدة، وأرسلناك بعثناك برسالة على هذه الصفة.

في أمة: قالوا: «في» بمعنى إلى!. و«أمة» قال الخليل ــ كما في المفردات ــ: «كل شيء ضم إليه سائر ما يليه يسمى أماً»، ومنه الأم الوالدة يتبعها الولد، والإمام يتبعه الناس، والأمة من الناس: الجماعة المشتركة في فكر، المتجهة إلى هدف، وعلى ذلك فالمسلمون أمة وكذلك الكافرون.

قد خلت من قبلها أمم: الخلاء الفراغ الذي لا نبات ولا حياة فيه، وتصور في ذلك ذهاب النبات والحياة عنه، فاستعمل فيه.
والضمير المؤنث في «قبلها» باعتبار لفظ أمة وتنكير «أمم» يفيد التكثير أي أمم كثيرة.

لتتلو عليهم: متعلق بأرسلناك، أي أرسلناك للتلاوة. والتلاوة أخص من القراءة، لأنها قراءة ومتابعة كما يفهم من معنى: ولي يلي أي يأتي بعده...
والتعبير بقوله «عليهم» دون «لهم» لإفادة علو مقام الوحي المتلو.
وضمير الجمع يرجع إلى الأمة باعتبار المعنى، وتأخير المفعول «الذي أوحينا» عن الظرف «عليهم» للاهتمام بالوحي والتشويق إليه.

---

(١) سورة الأحقاف الآية ٩.

الذي أوحينا إليك: «الذي» صفة لمحذوف معروف هو القرآن، والجمع في «أوحينا» للتعظيم. والوحي: الإعلام السريع الخفي الذي يخفى عن غير الموحى إليه.
والتعبير «بالوحي» بيان لكيفية تنزل القرآن.

وهم يكفرون بالرحمن: الضمير المنفصل والمتصل للأمة وهي أمه الدعوة. ومناسبة ذكر الرحمن شكر النعم التي هي من آثار رحمته تعالى. والرحمة: رقة أثرها الإحسان إلى المرحوم. و«الرحمن» مبالغة في الرحمة على وزن فعلان، وقد غلب استعمال هذا الوزن في المبالغة.
والباء في الرحمن داخلة على مقدر أي يكفرون بربوبيته، أو يكفرون بهذا الاسم كما في سورة الفرقان. ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن﴾ [١].

قل هو ربي: التعبير «بقل» لتعظيم المقول، وهو إعلان الربوبية، والإضافة قيد تشريف، وتعريض بالذين يكفرون.

لا إله إلا هو: كلمة التوحيد هذه بيان للمقصود من قوله: «هو ربي» ومعناه لا معبود إلا الله.

عليه توكلت: قدم وأخر هنا وفيما يليه لتعظيمه تعالى، وللاهتمام بالتوكل والتوبة.
والتوكل عليه هو الاعتماد عليه والتفويض إليه والتسليم له. والوكيل أعم من الكفيل.

وإليه متاب: المتاب: التوبة مصدر ميمي متضمن معنى الرجوع. ولذا عدي بإلى. ومعناه إليه رجوعي بالتوبة. أي بترك الذنب وأداء الطاعة. وأصله متابي. والكسرة دليل على الياء المحذوفة.

(١) سورة الفرقان الآية ٦٠.

ثانيـًا
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ سبب نزول.

٣ ــ الرسالة رحمة من الله.

٤ ــ الرحمن وصيغة المبالغة.

٥ ــ أمة الدعوة والإجابة.

٦ ــ تلاوة القرآن.

٧ ــ أنواع الوحي.

٨ ــ كلمة التوحيد.

٩ ــ التوكل والتواكل.

ـ ١ ـ

المعنى العام

أرسلناك يا محمد إلى أمة من الناس، كما أرسلنا المتقدمين من المرسلين إلى أممهم الماضية. ودعوتك مثل دعوتهم في تلقي الوحي من الله وتلاوته على الناس.

والأمة التي تدعوها تقابلك بالكفر بالرحمن الذي أنزله عليك. ففاصلهم في توحيد الربوبية والإلهية، وتوحيد التوكل والتوبة.

وحاصل ما في الآية:

ـ وحدة الرسالات جميعاً في المضمون.
ـ حصر الدعوة في التلاوة والتبليغ.
ـ بيان موقف الأمم وكفرهم.
ـ المفاصلة في توحيد الربوبية و«قل هو ربي».

من الجوانب التالية:

ـ توحيد الالهية: «لا إله إلا هو».
ـ توحيد التوكل: «عليه توكلت».
ـ توحيد التوبة: «وإليه متاب».

ـ ٢ ـ

سبب نزول

تقدم أن أسباب النزول تعين على التفسير في: تبين المعنى وتحديد المراد...

فأسباب النزول مطلوبة لأنها وسائل معينة للوصول إلى المعنى المراد، لكنها إن

أدت إلى إبهام المعنى، أو تعطيل المراد وجب استبعادها... كأن تعارض نصاً صريحاً، أو تخل بأصل مقرر في الدين...

وفي حال قبول السبب يلحظ ما يؤدي إليه من تخصيص، يقلل ما في النص من تعميم. وبالتالي تخفيف أو انعدام تأثيره في غير من شملهم السبب.

ولذا فمن ساق سبباً لزم أن يذكّر بأن التفسير به إن هو إلا تفسير بالجزئي والمثال.

وبعد هذا التمهيد لا أرى بأساً من إيراد بعض أسباب النزول، وكنت أكثر من مرة قد تمنيت أن يسمى هذا المصطلح بمناسبات النزول... ومن هذه الأسباب أو المناسبات:

ـ ما قال مقاتل وابن جريج نزلت هذه الآية في صلح الحديبية حين أرادوا أن يكتبوا كتاب الصلح فقال النبي ﷺ للكاتب: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: ما نعرف الرحمن إلا صاحب اليمامة، يعني مسيلمة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم:
اكتب باسمك اللهم....[1].

ويبعده أن السورة مكية، إلا إذا قيل بمدنية الآية فيها، واستثنائها منها.

ـ وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم:
اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن فنزلت.

ـ أو قال أبو جهل: أشرك محمد، يعني جعل الرحمن إلهاً مع الله![2].

ـ ٣ ـ

الرسالة رحمة من الله

ذكرنا في المدخل مبحثاً حول ضرورة الوحي القرآني لقصور العقل

(١) أخرجه البخاري
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٩/٣١٨.

الإنساني [١]. وفوق ذلك فإن الرسالة رحمة من الله ونعمة، وإلا لضل العقل في متاهات الطريق، وفي ظلمات الحياة، وذكر اسم الرحمن في الآية إشارة لذلك.

ولقد اختار تعالى المرسلين ــ وهو حكيم فيما يصطفي ويختار ــ من عباده الصالحين... ويتبع هؤلاء المرسلين مهتدون من جميع الأعصر. ويقابلهم الطغاة وأتباعهم الذين يمتنعون عن رؤية الحق وعن سماعه، أو التفكير فيه، أو اتباعه:

﴿ وكذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن﴾.

والآية واضحة في دلالتها على كثرة الكافرين.

وفي القرآن مشاهد كثيرة في بيان حالهم. ولعل من أبلغ المشاهد ما في سورة فصلت ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾ [٢].

ــ ٤ ــ

الرحمن وصيغة المبالغة

شاع قولهم: إن الرحمن صيغة مبالغة، ولسنا نعرف ذلك في القواعد الموضوعة لعلم النحو. وصيغ المبالغة معروفة ليس من بينها «فعلان». ومع ذلك قالوا: الرحمن أبلغ من رحيم التي لا يختلف في مبالغتها.

ولعل هذا من القصور في التقعيد ــ أي وضع القواعد ــ وينبغي تداركه، لجعل وزن فعلان من صيغ المبالغة.

يشهد لهذا أن باب فعلان يدل على الكثرة والامتلاء كملآن وظمآن وشبعان.

وقد أجمعوا على أن الرحمن من الأسماء التي استأثر الخالق بها، ومن تسمى بهذا الإسم من المخلوقين فقد طغى، ومن هؤلاء الطغاة مسيلمة الكذاب.

---

(١) انظر الموضوع الأول من المدخل.

(٢) سورة فصلت الآية ٥.

وهناك أحاديث تشير إلى عموم الرحمة في الرحمن دون الرحيم فحملوا الرحمن على رحمة الدنيا والآخرة، وحملوا الرحيم على الآخرة، أو عمموا الرحمن في رحمة الخلائق وخصوا الرحيم بالمؤمنين[1].

— ٥ —

أمة الدعوة والإجابة[*]

يقسمون الأمة إلى أمة الدعوة وأمة الإجابة. والأمة: تعني الجماعة المشتركة في فكر المتجهة إلى غاية. فإذا كان فكر الجماعة ووجهتها الإسلام فهي أمة الإجابة. وإذا كانت على غير الإسلام فهي أمة الدعوة بمعنى أن الدعوة توجه إليها على جهة التبليغ والتفهيم، والمجادلة والترغيب والتأليف.

ولا إكراه في الدعوة بل جهاد، والمراد بالجهاد دفع الظالمين لتحرير المستضعفين من التسلط والقهر والعبودية للعباد. ومن ثم يعرض عليها دين الله ﴿وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين﴾[2]. ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[3].

ومن مواصفات أمة الإجابة ما ذكرته الآية على لسان رسولها ﷺ: ﴿قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب﴾. حيث الاختصاص بتوحيد الرب الإله مع التوكل في باب القدر والتوبة بعد المعصية.

والدعوة في حقيقتها وغايتها موجهة لعموم الناس على أن يبدأ بالأهم ويختم بالمهم. فيبدأ بنفسه، ثم بأهله، فبعشيرته، ثم بقومه، وأخيراً جميع الناس. فيراعي الترتيب من الأقرب إلى الأ بعد.

ولم تبلغ دعوة من الدعوات نهاية هذه الحلقات إلا خاتمة الرسالات.

---

(١) انظر المحرر الوجيز ١/٥٨.

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٥.

(٣) سورة الكهف الآية ٢٩.

(*) انظر الموضوع السابع من الفصل التاسع.

وأدلة الأهمية والترتيب في القرآن كثيرة، فتقديم النفس لقوله: ﴿عليكم أنفسكم﴾ [١]. والتثنية بالأهلين لقوله: ﴿قوا أنفسكم وأهليكم﴾ [٢]. ثم العشيرة لقوله: ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾ [٣]. ثم القوم كما صرح به القرآن على لسان كثير من الأنبياء، كنوح وموسى وهارون ولوط وشعيب. كقوله: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله﴾ [٤]. ﴿وقال موسى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا﴾ [٥]... وآخر حلقات الدعوة هي الناس كافة يدل عليه خطاب القرآن: ﴿يا أيها الناس﴾... وهو كثير.

— ٦ —

تلاوة القرآن

الآية صريحة في بيان مهمة الرسول وتحديد وظيفته:

«كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك».

فوظيفته ومهمته ﷺ بعد إسلامه لله، وعبادته إياه هي دعوة الناس عن طريق تلاوة القرآن عليهم كما أخبر تعالى:

﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها، وله كل شيء، وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين﴾ [٦].

وعلى هذا لم يكن الجهاد وسيلة مباشرة للدعوة بل وسيلة لازالة الظلم والطغيان، وكانت الوسيلة للدعوة: تلاوة القرآن، للتعريف بالله في أسمائه

---

(١) سورة المائدة الآية ١٠٥.

(٢) سورة التحريم الآية ٦.

(٣) سورة الشعراء الآية ٢١٤.

(٤) سورة المؤمنون الآية ٢٣.

(٥) سورة يونس الآية ٨٤.

(٦) سورة النمل الآيتان ٩١-٩٢.

وصفاته، ولتعظيمه بالتذكير بآلائه ونعمائه، وللمجادلة ببراهينه العقلية، وآياته الحسية في الآفاق والأنفس.

وإذا كان القرآن إنما أنزل للدعوة به والدعوة إليه كان ما نسمعه أو نراه أو نقرؤه محلاً لإعادة النظر:

ـ فمن يسمع القرآن يُقرأ بتكلف شديد على حساب الضوابط اللفظية والمعنوية، ويقرأ بتغن يبعد عن الخشية والرجاء، وهما المقصودان من قراءة القرآن ومن سماعه.

ـ واتخذوه صناعة يتبارون في تحسين خطه، وتنويع كتابته، وتزيينه وتذهيبه.

ـ ومنهم من اتخذه تمائم وحجباً معلقة على النحور، أو تذاب آياته في الماء ليشرب مع الطعام، فجعلوه كتاب طب للعلاج، وآخرون معهم هؤلاء يضعون القرآن في غير موضعه، وقد يستخدمونه على نقيض ما أنزل من أجله، كالسحر والشعوذة وتعبيد الناس...

ـ ٧ ـ

أنواع الوحي

المأخذ قوله: ﴿لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك﴾.

وطرق الوحي ذكرت في سورة الشورى وهي إلهام النفس، أو وساطة الملك، أو من وراء حجاب كما قال تعالى:

﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم﴾ (١).

وهذا هو المأذون به النازل على الأنبياء المرسلين، وهو وحي حق نزل به ملائكة أقوياء.

---

(١) سورة الشورى الآية ٥١.

أما الوحي الباطل: فهو من وسوسة الشياطين المسترقة، ويختلط في وحيهم الصدق بالكذب والحق بالباطل. وهذا الوحي غير مأذون به. ولا مرضي عنه بل هو محرم محظور: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ (١). وهناك نوع ثالث من الوحي وهو الإلهام العام، ويدخل فيه الإلهام النفسي كما في قوله: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾ (٢) ويدخل الوحي إلى الحيوانات والحشرات كقوله: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً﴾ (٣). ويدخل كذلك الوحي إلى الجمادات في الأرض والسموات كقوله: ﴿وأوحى في كل سماء أمرها﴾ (٤). وقوله عن الأرض: ﴿يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها﴾ (٥).

— ٨ —

كلمة التوحيد

المأخذ قوله تعالى: ﴿قل هو ربي﴾، وبمعناه قوله تعالى: ﴿لا إله إلا هو﴾.

وكلمة التوحيد تجمع الدين بعقيدته وشريعته ومعاملاته وأخلاقياته... وهذه الكلمة شعار، من تلفظ به حكم بإسلامه في الدنيا، ومن اعتقدها كانت له بطاقة الخروج من النار ودخول الجنة، وفي الحديث: إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله (٦).

وعلى المسلمين أن لا يكتفوا بقولها بألسنتهم، بل عليهم أن يجعلوها في بواطنهم إيماناً في القلوب. ثم يحققوا مضمونها بإظهارها على الجوارح.

---

(١) سورة الأنعام الآية ١١٢.

(٢) سورة القصص الآية ٧.

(٣) سورة النحل الآية ٦٨.

(٤) سورة فصلت الآية ١٢.

(٥) سورة الزلزلة الآيتان ٤-٥.

(٦) رواه البخاري في مواضع وكذا مسلم وغيرهما.

وأنا أدندن حول هذه الكلمة في كتيب صغير هو: «أصول التوحيد في القرآن الكريم» جمعت فيه اثنين وعشرين أصلاً، دونما اعتبار بتقسيمات العلوم إلى فقه وعقيدة وأخلاق. ودون وقوف عند اختلاف العلماء من أهل المذاهب والفرق. ورحم الله من قوَّم هذا الجهد وهذبه وأكمله.

فليس من شيء أهم من توحيد العلوم الإسلامية تحت باب التوحيد، وجمع أصوله في مباحث موجزة بلغة ميسرة. وقد أعود للحديث عن أصول التوحيد في موضع آخر في هذه السورة[١]..

ـ ٩ ـ

التوكل والتواكل

هو جانب التفويض في باب القدر.

أما الجانب الآخر فهو الالتزام بالسنن الكونية والشرعية والأخذ بالأسباب ومراعاة العلل.

ومن عطل ذلك وقع في التواكل والتخاذل والأماني الكاذبة. وعلى هذا فالإحسان في التوكل هو كما جمعه الرسول في قوله للأعرابي: اعقلها وتوكل[٢]. بمعنى الأخذ بأحكام الدين الملزمة، وسنن التكوين النافذة ومن جمع بينهما أصلح دنياه وآخرته. ولذا كان المتوكل راضياً قانعاً سعيداً بعيداً عن الخوف والحزن والحيرة والقلق.

---

(١) انظر الموضوع السادس الفصل الثاني والعشرين.

(٢) رواه الترمذي عن أنس.

الفصل التاسع عشر

هداية القرآن

الآيتان ٣١ ـ ٣٢

قال تعالى:

ولو أن قرآناً سيرت به الجبال، أو قطعت به الأرض، أو كلم به الموتى.

بل لله الأمر جميعاً.

أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً.

ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة، أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله،

إن الله لا يخلف الميعاد.

ولقد استهزىء برسل من قبلك، فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم، فكيف كان عقاب؟

أولاً
مَباحِث تحليلية

ولو أن: «لو» شرطية يقدر بعدها فعل الشرط أي لو سيرت الجبال بقرآن، وجواب الشرط محذوف معروف مما تقدم في قوله «وهم يكفرون بالرحمن» أي لكفروا به، أو لما آمنوا به.
أو الجواب ما قدره القرطبي: لكان هذا القرآن [1].

قرآناً: مصدر كالقراءة سمي به آخر الكتب كما سمي غيره، وفي الحديث عن الزبور: قرآن داود.
والتنوين هو للتعظيم أو للتعميم.

سيرت به الجبال: التسيير حمله على السير، أي الانتقال من مكان إلى آخر، والمراد أن القرآن أعظم من الجبال وأثقل منها، بدلالة قوله: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾.

أو قطعت به الأرض: القطع: فصل الشيء عن غيره، أو هو قطع الأرض بالمشي وأفاد الراغب «أن قطع الماء بالسباحة عبوره». والمعنى: فصل الأرض إلى قطع، أو قطع المسافات ذهاباً وإياباً.

أو كلم به الموتى: التذكير في كلم بخلاف سيرت وقطعت للفاصل، والكلم في المفردات: «التأثير المدرك بإحدى الحاستين فالكلام: مدرك بحاسة السمع والكلم: بحاسة البصر» وذلك من فعلِ الأحياء فيكون كلام الموتى معجزة للقرآن.
والموتى والأموات جمع ميّت وميت.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣١٩/٩.

بل لله الأمر: «بل» للإضراب عن المهم والانتقال إلى الأهم. واللام للاختصاص والملكية، وأخر الأمر اهتماماً به وتشويقاً إليه. والأمر: طلب من الأعلى للأدنى، و«الـ» للجنس أي كل الأمور، والأمر: مصدر بمعنى المأمور، أو اسم بمعنى شيء.

أفلم ييأس: الاستفهام إنكاري، وللاستفهام الصدارة، ولذا قدمت على فاء العطف والمعطوف عليه مقدر مثل أَرَجوا أو أَعَلموا فلم ييأسوا؟
واليأس قطع الرجاء أو قطع العلم يؤكده قراءة أفلم يتبين وهو على لغة النخع، في تفسير القرطبي[1]: «قال الكلبي ييأس بمعنى يعلم لغة النخع، وحكاه القشير عن ابن عباس أي أفلم يعلموا، وقاله الجوهري في الصحاح».

الذين آمنوا: هم المؤمنون، وعبر بالموصول تعميماً لمن اتصف بالإيمان، وليس المراد العموم المطلق بل المراد مؤمنون بأعيانهم لم ييأسوا بمعنى لم يعلموا استحالة إيمان الناس جميعاً.

أن لو يشاء: «أن» مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن أي أنه، والخبر جملة الشرط.
وفي هذه الجملة علة أو سبب بتقدير اللام بمعنى: لأنه لو يشاء الله.
و«لو» أداة امتناع لامتناع غيره، أي امتنعت الهداية لامتناع المشيئة، والمشيئة هي إرادة التكوين.

لهدى الناس جميعاً: هداية واهتداء. والمراد هنا الثاني، أما الأول بمعنى الدلالة والبيان فعامة للناس جميعاً. والناس من الإنس ومنه قوله: ﴿إني آنست ناراً﴾[2] أي ظهر فرأيت. سمى البشر بذلك لأنهم ظاهرون في مقابل الجن المسترين.
و«جميعاً» تأكيد للعموم في الناس ليشمل جميع أفراد العام بحيث لا يخرج كافر مشرك.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣١٩/٩.

(٢) سورة طه الآية ١٠.

ولا يزال الذين كفروا: العطف بالواو على قوله «ولو أن قرآناً». و«الذين كفروا» عام في الكافرين، منهم أهل مكة. والتعبير بقوله: «لا يزال» لإفادة استمرار كفرهم.

تصيبهم: الإصابة في الشر من أصاب ومنه المصيبة. أما صاب صوباً فهو في الخير، ومنه الصيب للمطر.

بما صنعوا: الباء في «بما» سببيه و«ما» مصدرية أو موصولة، والصنع كما في المفردات: إجادة العمل.
قال الراغب: «ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفعل».

قارعة: الأصل في القرع كما يقول القرطبي هو الضرب [١]. يعني ضرب جسم بآخر والقارعة اسم فاعل مؤنث موصوفه محذوف تقديره مصيبة قارعة، وإن كانت قارعة اسماً لم يحتج لتقدير.
ونكَّر قارعة تهويلاً لها وهي كالجوع في القحط، والهزيمة في الحرب، وذلك في مقابل إيغالهم في الكفر والطغيان، على حد قوله تعالى:
﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾ [٢].

أو تحل: فاعل الحلول: القارعة المذكورة، والفعل في صيغة الغيبة، ويحتمل أن يكون الفعل في صيغة الخطاب والمراد به الرسول معه جيشه.

قريباً: القرب مكاني والمراد الجهات حولهم، وقد حلَّت بها كوارث كبلاد عاد وثمود، وفرعون، وقوم نوح، وتبع، ولوط. أو أن القرب زماني والمراد ما يقع قريباً من زمن التنزيل كهزيمة الروم ثم هزيمة الفرس.
أو المراد حلول الرسول بالحديبية، وهو مكان قريب من مكة، وكان ذلك في زمان عاجل قريب في السنة السادسة للهجرة وهو زمان الصلح وبعدها بسنة تم فتح مكة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٣٢١/٩.
(٢) سورة الشورى الآية ٣٠.

من دارهم: الدَّيَّار: ساكن الدار لأنه يدور فيها ويتحرك، والدار هنا هي: مكة المكرمة نسبت إليهم لأنهم كانوا أهلها قبل فتحها.

حتى يأتي: «حتى» غاية للحلول الذي كان طريقاً للموعود به.

وعد الله: من إضافة المصدر لفاعله، والمصدر بمعنى اسم المفعول أي الموعود به يوم القيامة.

وقال مجاهد: يعني فتح مكة [١].

إن الله لا يخلف: من الخلف والمخالفة بمعنى الحنث والنكث والنقض. و«الميعاد» من وعد وعداً وموعداً وميعاداً وهو عام، أما أوعد وعيداً ففي الشر خاصة، والميعاد مصدر أو ظرف أو اسم، والمراد وعد الله بثواب المؤمنين وعقاب الكافرين.

ولقد استهزىء: معطوف على قوله: «ولو أن قرآناً....» واجتمع في لقد توكيدان: في لام القسم، وقد للتحقيق، وذلك لتهويل الاستهزاء. والاستهزاء: فعل الهزء، والهزء انتقاص الغير في خفية ويقول الراغب: مزح في خفية.

برسل من قبلك: كنوح وصالح وهود وموسى عليهم السلام... تقدموك يا محمد في حمل رسالاتهم إلى أقوامهم. و«رسل» جمع رسول بمعنى: مرسل أو: رسالة أي: الرسالات المتقدمة، أو المرسلين المتقدمين.

فأمليت للذين كفروا: الإملاء أو الإملال: هو الإمهال. أو كما في الطبري: الإطالة [٢]، معناه تركهم مدة من الزمن في غنى مال، وراحة بال، أو أعطاهم مهلة للمراجعة والتفكر.

ثم أخذتهم: ثم للتراخي في الزمن. لأن أخذهم مؤجل إلى الآخرة، أو مؤجل بالسنين في الدنيا.

والتعبير بأخذتهم: يفيد القوة، لأن الأصل في الأخذ هو التناول باليد ولا

---

(١) تفسير مجاهد ٣٢٩.

(٢) جامع البيان ١٠٦/٢٣.

يكون إلا بتمكن ومنه قيل الأخيذ للأسير لأنه يتمكن منه ويسيطر عليه وفي الصحيحين: «إن الله عز وجل يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته» [١].

فكيف: استفهام تعجب.

كان: إخبار بالماضي عما وقع في الدنيا من قوارع. ويقال أن الماضي للتوكيد، وأصله المضارع والمراد قوارع الآخرة.

عقاب: والعقاب كالعقوبة هو الجزاء على الشر في مقابل العقبى والعاقبة للجزاء في الخير.

وأصله عقابي بالياء، وياء المتكلم كثيرة الحذف في القرآن.

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن أبي موسى في كتاب البر والصلة والآداب ــ باب تحريم الظلم.

ثانيًا
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ كتاب الله: قرآن.

٣ ــ سبب النزول.

٤ ــ الكاتب الناعس.

٥ ــ المشيئة والقدرية.

٦ ــ القرآن وخرق السنن.

٧ ــ لا يخلف الميعاد.

٨ ــ سلاح الاستهزاء والاستخفاف.

٩ ــ الإمهال لا الإهمال.

ـ ١ ـ

المعنى العام

الفصل السابق وهذا اللاحق في موضوع واحد هو الرسالة والرسول والمرسِل...

والله سبحانه يخبر عن ما ينزله من وحي على رسله. فينفي وجود قرآن يستجيب لمقترحات الكافرين، من تسيير للجبال عن أماكنها، وتكليم للموتى في قبورها، وتقطيع للأرض إلى قطع، أو قطع مسافاتها بالسير عليها... وهو وإن كان أمر التسيير والتكليم والتقطيع بيد الله ــ وهو فعال لما يريد ــ ولكنه جعل القرآن المنزل محصوراً في الهداية.

وعلى المؤمنين أن ييأسوا من هداية جميع الناس وان يعلموا حقيقة اختلاف الناس بين مؤمنين وكافرين...

والكافرون تنزل بهم العقوبات العاجلة في الدنيا. والآجلة في الآخرة.

وعلى المتأخرين أن يعتبروا بما حل بالمتقدمين، وما يحل بالمجاورين ممن يشتركون في الكفر والتكذيب.

ـ ٢ ـ

كتاب الله: قرآن

كتب الله المنزلة توصف بصفات كثيرة، تعريفاً بها، وتشريفاً لها، ومن ذلك «قرآن» لكونه كلاماً يتلى ويقرأ.

وغلب هذا الوصف في اطلاقه على آخر الكتب، لأن آخر المرسلين كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب بخلاف من سبقه كموسى وغيره...

والقراءة هامة في الدعوة والتبليغ، كما صرح به في قوله: ﴿لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك...﴾ [(١)]. ومثله قوله: ﴿وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ [(٢)]. والوصف بالقرآن لا يختص به قرآننا، فقد روي تسمية الزبور بقرآن داود [(٣)].

وهذا ينطبق على كل كتاب لأنه كلام تكلم به الله ويتكلم به الناس ويتلونه أي يقرؤونه.

ـ ٣ ـ
سبب النزول

ساق المفسرون روايات في سبب النزول حول مطالبة أهل مكة بالخوارق، من تسيير جبال مكة وإبعادها، وتفجير الينابيع، وتسييل الأنهار للزراعة، وإحياء الموتى من الآباء والأجداد [(٤)].

ولم يجبهم القرآن إلى طلبهم كما لم يجبهم ليكون رسولهم من ملائكة السماء، أو من ملوك الأرض، أو من مالكي الأموال والجنات... إما لأنهم لم يقولوا الصدق ولم يقصدوا الحق، بل كانوا أهل تعنت وتحجج. وإما لأن كتاب الله معجزة شاهدة للعقل مؤثرة في القلب، وهذه المعجزة تغني عن الشواهد المحسوسة التي طالبوا بها. والله أعلم.

ـ ٤ ـ
الكاتب الناعس

الروايات المنسوبة لابن عباس رضي الله عنه حول النعاس وردت في أكثر من موضع.. وهي روايات تصرح بوقوع الخطأ في كتابة القرآن بسبب نعاس الكاتب الذي يكتب الوحي.

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٠.

(٢) سورة النمل الآية ٩٢.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥١٦/٢.

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن ٣١٨/٩-٣١٩ والبحر المحيط ٣٩١/٥.

ـ ومن ذلك ما نقله القرطبي عنه في قوله: أفلم ييأس قال هي: يتبين[١]. والخلاف هو في تخطئة القراءة المتواترة، وفي دعوى نعاس الكاتب، أما تفسير اليأس بالتبين أو العلم فهو وجه مقبول.

ـ وفي رواية عن ابن عباس عند قوله في سورة النور: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾[٢]. قال: هي تستأذنوا وذكر نعاس الكاتب وخطأه[٣].

ومثل هذه الروايات مشكلة يمر عليها المفسرون وينقلونها، وقد يسكتون عليها، أو يبررونها دونما ردّ لها، أو نكير عليها..

وقبول مثل هذه الروايات يعني فتح باب الطعن في كفاءة الكاتبين، وأمانة القارئين من أئمة القراء وجماهير المسلمين...

وللزنادقة في هذه الروايات مداخل للشبه والأباطيل.

ـ ٥ ـ

المشيئة والقدرية

الأصل في الباب: أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والقدرية يقولون عن العبد: أنه شاء فخلق فعله. ويقولون عن الرب: بدا له فعلم بعد جهله، وأصلح بعد خطأه، وهذا قول يهود، ينقلونه عن التوراة التي يتداولونها.

وفي الآيتين تصريح في نسبة المشيئة التامة العامة للرب وحده، كما في قوله تعالى:

﴿ لله الأمر جميعاً ﴾ وقوله: ﴿ لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾. وقوله: ﴿ حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد﴾. وكذلك خاتمة الآية فهو شاء فأملى لهم، وشاء فأخذهم وعاقبهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٥/٣١٩-٣٢٠.

(٢) سورة النور الآية ٢٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦/٢١٤.

وظاهر الأدلة العقلية والنقلية عموم مشيئته، وإطلاق إرادته، وكمال قدرته، وشمول خلقه ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾[(١)]. ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[(٢)]. ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾[(٣)]. ونسبة الفعل للعبد لا يعني أن العبد خالق، وإنما يعني أنه كاسب له، متسبب فيه.

وبهذا تستقيم نسبة الفعل للرب وللعبد كل باعتباره، وكذلك يكون التوفيق بين هذا وبين ما يعارضه ظاهراً بما استدل به المعتزلة وغيرهم.

ـ ٦ ـ
القرآن وخرق السنن

أنزل هذا القرآن هدى للناس بشيراً ونذيراً شأن كافة الكتب المنزلة. ولهذا علق على الشرط والتمني الخوارق الثلاثة، وهي تسيير الجبال وتقطيع الأرض وإحياء الموتى...

والكتب لم تنزل لتخرق السنن، وإنما أنزلت للكشف عن حقيقتها، وثبات ظواهرها ومعرفة نِسَبها، والوقوف عند حدودها، والالتزام بأحكامها، وإحسان التعامل معها، للاستفادة من ثمراتها ونتائجها.

ثم إن الدعوة القرآنية تعتمد على الكلمة الواضحة من الداعية، وحرية الاختيار من المدعوين، دونما إكراه ـ فلا إكراه في الدين ـ.

وخرق السنن يشكل إكراهاً يفسد الاختيار، ويخلُّ بالموازين. ولذا نجد التأكيد على وظيفة الرسول وهدف الرسالة، من البشارة والنذارة ونفي السيطرة والتسلط والتجبر والإكراه.

ـ ٧ ـ
لا يخلف الميعاد

الله لا يخلف الميعاد لا في وعده ولا في وعيده، والخلف في الوعد إخلال

(١) سورة هود الآية ١٠٧.
(٢) سورة الصافات الآية ٩٦.
(٣) سورة التكوير الآية ٢٩.

بالفضل، والخلف في الوعيد إخلال بالعدل، والله منزه عن الخلف فيهما.

وبعضهم فرّق فأجاز الخلف في الوعيد وجعله فضيلة. ولست أراه يدخل باب الخلف، وإنما يدخل باب الوفاء، لأنه وعد بمغفرة الذنوب جميعاً إلا الشرك ﴿إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ [1] ثم قيّده بقوله: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك﴾ [2] ويدخل في ذلك التائب وغيره. أما التائب فلأنَّ التوبة حسنة ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ [3]. وأما غيره فيدخل في عموم (ويغفر ما دون ذلك).

وعلى هذا يصحح ما اشتهر على الألسنة ليكون الأصل على النحو التالي: إن الله يغفر الذنوب جميعاً عدا الشرك، وهو وفاء بوعد، وليس خلفاً في وعيد.

— ٨ —
سلاح الاستهزاء والاستخفاف

مأخذ الموضوع قوله: ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾.

والاستهزاء سلاح يستعمله الطغاة للاستخفاف بالناس لاستضعافهم، فهو نوع خطر من التأثير المعنوي للضغط على الدعاة خاصة حتى تضعف ذاتهم، ويقل شأنهم في عيونهم أنفسهم، وفي عيون الناس من حولهم...

ولقد حدثنا القرآن الكريم عن فرعون كيف استخدم هذا السلاح لتسخير قومه واستعبادهم: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ [4].

والداعية إلى الله الحق كما يصبر على الإيذاء البدني، فإنه يصبر على الإيذاء المعنوي، فلا يزهد في الحق ولا يغتر بالباطل، وهو يذكر وعيد الله لأهل الباطل ووعده لأهل الحق، فينكشف له زيف الباطل وزخرفه، ويعلم أنه زائل زاهق. «فأمليت الذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب».

---

(١) سورة الزمر الآية ٥٣.
(٢) سورة النساء الآيتان ٤٨-١١٦.
(٣) سورة هود الآية ١١٤.
(٤) سورة الزخرف الآية ٥٤.

— ٩ —

الإمهال لا الإهمال

يؤخذ الموضوع من قوله: ﴿... حتى يأتي وعد الله...﴾. وقوله: ﴿... فأمليت للذين كفروا...﴾.

والإمهال لا يعني الإهمال وإنما يعني إظهار صفة الصبر في الذات العلية، فهو صبور سبحانه كما يعني العدل والرحمة في العادل الرحيم سبحانه وتعالى.

والإنسان المكلف يكفيه في ابتلائه والكشف عن معدنه وطاعته ومعصيته دقائق أو ساعات.

ولكن الله برحمته أعطى الإنسان عمراً طويلاً يسع التفكير، ليستفيد من تجربته ومن تجارب الآخرين، فيتعظ بنفسه ويعتبر بغيره.

وعلى العاقل أن لا يغترّ بتقلب دار الغرور، ولا أن يتحسر لضيق حال المؤمنين وسعة حال الكافرين، وليسمع لصوت القرآن في بيان الحقيقة، وتحديد الموقف:

﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد، كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب﴾[١].

---

(١) سورة غافر الآيتان ٤-٥.

الفصل العشرون

القوامة على النفوس

الآيتان ٣٣-٣٤

قال تعالى:

أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت.

وجعلوا لله شركاء،

قل: — سموهم،

— أم تنبؤونه بما لا يعلم في الأرض،

— أم بظاهر من القول؟

— بل زين للذين كفروا مكرهم،

— وصدوا عن السبيل،

— ومن يضلل الله فما له من هاد،

— لهم عذاب في الحياة الدنيا،

— ولعذاب الآخرة أشق،

— وما لهم من الله من واق،

أولاً
مَباحِث تحليلية

أفمن: الفاء ــ كما تقدم أكثر من مرة ــ عاطفة على مقدر يتناسب مع المعطوف عليه ويقابله، والمعنى: هل غير القائم والقائم متساويان، وجوابه: لا، فيكون الاستفهام بمعنى النفي.

هو قائم على: من قام قياماً. وفيه تمكن بخلاف القعود يؤكده التعدية بعلى.
ومن أسمائه تعالى، «القيوم» لأن الخلائق تقوم به وتعتمد عليه ولا تستغني عنه.
ويدخل في الباب أسماء كثيرة كالرقيب والحسيب وغيرهما.

كل نفس: «كل» من ألفاظ الاستغراق كجميع، والتعبير «بكل نفس» أبلغ من التعبير بالجمع «النفوس» لأن الجمع قد يراد به «جمله» فلا يستغرق بخلاف «كل نفس» فلا يخرج أي فرد، بل يدخل جميع الأفراد.
والمراد من النفس الذات عامة، أو النفس المكلفة خاصة.

بما كسبت: استظهر الجمل أن الباء بمعنى «مع»[١]. والأظهر أنها للملابسة...
والكسب: هو العمل أي الفعل المختار من خير أو شر.

وجعلوا: استظهر الجمل أن الواو للاستئناف جيء به للدلالة على الخبر المحذوف[٢].
والسياق يدل على وقوع الجملة حالاً لبيان شركهم، أو عطفاً على استهزىء، أي لقد استهزؤوا وجعلوا. والجعل فعل عام معناه هنا اتخذوا، كما صرح به

---

(١) الفتوحات الإلهية ٥٠٧/٢.
(٢) الفتوحات الإلهية ٥٠٧/٢.

في مواضع أخرى كثيرة منها قوله: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة... ﴾[١].

لله شركاء: قدم لفظ الجلالة وأظهره تعظيماً له. و«شركاء» جمع شريك، والشرك: هو النصيب من الشركة، أو هو المشارك، صاحب النصيب.

والمراد هنا المعنى الثاني، أي المعبودون مع الله من الأوثان المنصوبة، والأصنام المرفوعة، والبيوت المعظمة.

ويدخل في ذلك تقديس الوطن والقوم والعادات والتقاليد الموروثة.

قل: الاستئناف بقل لتعظيم المقول، والأمر للرسول ويدخل في حكمه من اتبع منهجه.

سموهم: الاسم ومنه السمه والوسم وهو الصفة، والمعنى صفوهم بأسمائهم التي تجعلهم أرباباً معبودة، ومعروف أن تسميتهم ستكشف عن صفات العجز والضعف فيهم.

أم تنبئونه: أم: بمعنى بل الإضراب، وهمزة الإنكار ومثلها أم التالية. والنبأ هو الخبر العظيم، والتعبير «تنبِّئونه» بدل تنبئونه لأن نبأ أبلغ من أنبأ. وكذا الالتفات من الغيبة إلى المخاطبة.

بما لا يعلم: نفي العلم أبلغ من إثبات الجهل، والعلم معرفة الشيء حق المعرفة.

في الأرض: الأرض كل ما سفل، والمراد الأرض المعروفة، لأن «الـ» فيها للعهد.

وخص «الأرض» بالذكر باعتبار زعمهم أن الأصنام شركاء الله في الأرض. أو أنه اكتفاء ذكراً، ويدخل غيرها حكماً. والمراد من «الأرض» عمومها من أنحاء قريبة وآفاق بعيدة.

أم بظاهر من القول: قال مجاهد: بظن من القول[٢]. والظاهر يقابل الباطن ويلازمه، لكنه هنا انفك عنه، فهو مجرد ظاهر لا باطن فيه، ولا حقيقة له أي دعوى باطلة لا صحة لها، وقول كاذب لا صدق فيه.

---

(١) سورة يس الآية ٧٤.

(٢) تفسير مجاهد ٣٢٩/١.

بل زين: «بل» للإضراب عن المهم إلى الأهم وهو بيان خطورة التزيين.
و«التزيين»: تحسين الشيء وتجميله فوق حد الفطرة. والتحسين يكون لما ينقصه الحسن أو الأحسن. واستعمل المجهول بغرض التركيز على الفعل. وفاعل التزيين هو الوسواس الخناس من الجنة والناس.

للذين كفروا: عبر في الكفر بالماضي للدلالة على سبق اتصافهم بالكفر، وثباتهم عليه بسبب التزيين.

مكرهم: في المفردات قال الراغب، المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة.

وصدوا: الصد: المنع يستعمل لازماً بمعنى أعرضوا، ومتعدياً بمعنى منعوا غيرهم.
وقريء بضم الصاد قراءة سبعية[١]، أي صدهم المزين وهو الشيطان بوسوسته.

عن السبيل: السبيل أخص من الطريق لأنه الطريق الممهد المستقيم، و«الـ» للعهد المذكور في آيات كثيرة فهو سبيل الحق.

ومن يضلل الله: «من» شرطية، والضلال هو الضياع. ومن آثاره الهلاك ويستعمل فيه.

فما له من هاد: فيه تقديم وتأخير، أصله: فما من هاد له، وأخر الهداية تشويقاً إليها، وموقع «هاد» اسم «ما» مجرورة بمن مرفوعة محلاً، وياؤها حذفت للتنوين. وتنكير «هاد» في سياق النفي من أبلغ العموم في انتفاء الهداية عمن أضله الله. و«من» زائدة لتأكيد النفي في التنصيص على العموم، أو هي للتبعيض، ونفي البعض أبلغ من نفي الكل، وقرىء «هادي» بإثبات الياء وقفاً[٢].

لهم عذاب: للكافرين الصادين والضالين، واللام للاختصاص أي اختصاصهم بالعذاب، والعذاب هو المؤلم من العقاب كالقتل والأسر والمصائب، والتنكير لتهويل ذلك في تعظيم مقداره وتكثير أنواعه.

---

(١) قراءة يعقوب والكوفيون. أنظر النشر ١٣٢/٣.

(٢) الفتوحات الإلهية ــ ٥٠٨/٢.

في الحياة الدنيا: «الدنيا» مؤنث الأدنى مأخوذ من الدنو وهو القرب، والتسمية بذلك لتقدمها وقربها من بداية الخلق أما الحياة الآخرة فلبعدها وتأخرها.

ولعذاب الآخرة: اللام للتوكيد، والإضافة بمعنى «في» أي العذاب في الآخرة، والآخرة وصف لمحذوف تقديره: ولعذاب الحياة الآخرة، أو أن الآخرة وصف أصبح بالغلبة اسماً علماً لا يحتاج إلى موصوف.

أشق: الشقة والمشقة، الصعوبة، والمفاضلة في الكم والكيف بالنسبة لعذاب الدنيا.

وما لهم من الله من واق: ترتيب الكلام: وما من واق من الله لهم، معناه ليس للكافرين وقاية من عذاب الله، و«من» الاولى داخلة على مقدر أي من عذاب الله. ومن «الثانية» لتأكيد النفي والعموم، وإعرابه: تقدم في قوله فما لهم من هاد. وقوله: واق أي حافظ يقيهم العذاب.

ثانيًا
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.

٢ ــ القوامة.

٣ ــ الكسب والهداية.

٤ ــ الجمع بين عقوبتين ومثوبتين.

٥ ــ ظاهر القول وباطن النية.

٦ ــ التزيين والتقبيح.

٧ ــ السبيل الموحد.

٨ ــ النفس وعلاقتها بالروح والبدن.

٩ ــ المسئولية الدنيوية والأخروية.

١٠ ــ القياس.

١١ ــ الغلظة واللين.

ـ ١ ـ

المعنى العام

مناسبة الكلام لما قبله أنه تفصيل ما أجمله في مناقشة الكافرين.

والله ينكر التسوية بينه وبين غيره من الآلهة التي لا تقوم بنفسها، ولا تقوم على غيرها... بل الله وحده هو القائم على كل نفس، بإيجادها وحفظها، وإحصاء كسبها، وإعطاء جزائها. ولكن الكافرين جعلوا لله شركاء، وليس لها وجود في الأرض إلا بقول ظاهر لا باطن له، ولو وجد شيء منها لعرف.

ليس في الأرض من يتصف بصفات مماثلة لصفاته تعالى، فدعوى الكافرين دعوى لا برهان لها، وكلام لا حقيقة له، وهي من عمل الشيطان من تزيينه وتوهينه ــ هو الذي زين لهم طريقهم ــ فالفوه واستحسنوه وساروا فيه.

وهذه سنة الضلالة تقابلها سنة الهداية، وكل بيد الله خلقاً وإيجاداً. وهذا في دار الابتلاء. وأما الآخرة فهي دار الحساب والجزاء، والله عادل في أن يسر كلا لما يناسبه.

ـ ٢ ـ

القوامة

المأخذ ﴿هو قائم على كل نفس﴾.

الإنسان لا يقوم بنفسه بل يقوم بربه الذي سوى تخليقه، ويسر تقديره. والرب سبحانه قيوم السموات والأرض ومن فيها من إنس وجن وما فوقها ودونها من الخلائق. وقيوميته عامة لكل ما يتعلق بالخلق إيجاداً وإعداماً، زيادة ونقصاناً، جوهراً وعرضاً، ذاتاً وصفة، دنيا وآخرة... قوامة إنشاء وبقاء، وقوامة هداية واهتداء، وقوامة حساب وجزاء... هو قائم على السماء والأرض:

﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا: أتينا طائعين﴾ (١).

﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها﴾ (٢)

وهو تعالى قائم على كل نفس كما صرح به في الرعد، وكما في قوله: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ (٣). بل هو قائم على كل شيء: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض. من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ (٤).

ـ ٣ ـ

الكسب والهداية (*)

تكرر أن الكسب يرادف العمل، وهو أخص من الفعل. لأنه الفعل المبني على النية والاختيار، أو القصد والعمد.

والعبد كاسب لمباشرته الفعل، فهو متسبب فيه من أحد الوجهين: الظاهر والباطن، ويدخل في الباطن نيات القلوب. ويدخل في الظاهر كلام اللسان وحركات الجوارح.

والسببية المباشرة هي مبنى التكليف الدنيوي والمسئولية الأخروية.

---

(١) سورة فصلت الآية ١١.

(٢) سورة النازعات الآيتان ٢٧-٣٢.

(٣) سورة الشمس الآيتان ٧-٨.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(*) أنظر الموضوع العاشر من الفصل الرابع. والموضوع الرابع من الفصل السادس عشر.

أما موضوع الهداية، وما يقابله من الضلالة.. فيدخل ضمن دائرة كسب العبد من باب أنه باشره وتسبب فيه فحقق الاهتداء بنفسه، وهذا لا يتعارض مع كون الهداية والاهتداء من مخلوقات الله. وهذا البحث متفرع من قضية فعل الرب والعبد، وقد تقدم. وتفصيلاته في العقائد.

— ٤ —

الجمع بين عقوبتين ومثوبتين

المأخذ ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق﴾.

الأصل فيما يتعلق به التكليف أن عقابه وثوابه أخرويان، فالدنيا دار ابتلاء. والآخرة دار جزاء. ولكن الله يجمع بين مثوبتين أو بين عقوبتين في بعض الأحوال.

— ومن ذلك الاستغفار، فمع ثواب الآخرة في ستر العيوب ومحو الذنوب — وهو الثواب الآجل —، فإنه يزيد في العاجل. كما في قوله تعالى عن نوح: ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً...﴾ (١).

— ومن ذلك ما جمع الله لسليمان، ولداود عليهما السلام من المغفرة مع الملك والرفعة في الدنيا.

وقد يجمع بين عقوبتين آجلة آخروية، وعاجلة دنيوية. والعلة هي وقوع الظلم والتجاوز والتعدي. وأمثلة ذلك في الحدود التي تقتص من السارق والزاني والقاتل والمحارب المفسد، فلهم مع القصاص الدنيوي وعيدهم الأخروي.

— ٥ —

ظاهر القول وباطن النية

المأخذ ﴿أم بظاهر من القول﴾.

---

(١) سورة نوح الآيتان ١٠-١٢.

الظاهر مكشوف مدرك بالحواس، ومن ذلك القول المدرك بالسمع. أما الباطن في الصدور، فهو غيب مستور.. والأصل الموافقة بين الظاهر والباطن، فهما وجهان لذات واحدة، أحدهما أساس للآخر.

والإسلام في الدين هو الظاهر، بينما الإيمان هو الباطن، ولا يغني أحدهما عن الآخر.

وفي حال الانفصال بينهما يختل التوازن، كما في المنافق والمرائي، وهما يظهران غير ما يبطنان.

ولقد ابتلي أصحاب الأديان بعملية الانفصال أو الفصل بين الدنيا والآخرة، وبين العبادة والمعاملة، وبين الدين والحكم.

فاليهودية غرقت في المادية الظاهرة على حساب الباطن الذي دُمِّر في نفوسهم، والنصرانية غرقت في باطنها الرهبني ثم أغرقها الظاهر كذلك.

والمسلمون ابتلوا بداء الأمم، فكان فيهم الظاهرية الذين يحملونها كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

وكان فيهم غلاة الصوفية والشيعة الذين غرقوا في بحور الباطن من عدة قرون ولا ندري متى سيظهرون...

ولقد اتخذ هذان الفريقان مسألة التقاة المشروعة للضرورة أصلاً في عقيدتهم ومعاملتهم، حتى ضاعت هويتهم وطمست معالم دينهم.. وأصبحنا لا نصدقهم في قيل، ولا نطمئن إليهم في قليل.

— ٦ —

التزيين والتقبيح

المأخذ قوله: ﴿بل زين للذين كفروا مكرهم..﴾.

فطر الله الأشياء على نحو من الكم والكيف بأجناسها وأنواعها، وهيئاتها وأشكالها، ولكن الناس يرونها بأنحاء مختلفة، ويحكمون عليها بأحكام متفاوتة، تبعاً

لمعرفة حواسهم وعقولهم، وهم محكومون بمستواهم العقلي، وعرفهم الاجتماعي. ولهذا تختلف الأشياء في حسنها وقبحها تبعاً لتأثر الحواس بها، وضغط الأعراف عليها، وتصور العقول لها سلباً وإيجاباً..

إن الخلفيات المعينة، والتصورات المسبقة، والقناعات المفروضة، تدفع إلى أسلوب التبرير في الدفاع والهجوم، لإلباس القضية أي ثوب دون اعتبار بواقع الحقيقة، أو حقيقة الواقع... والوسائل المستخدمة تجد منفذاً لها في أخطاء الحواس وشبه العقل.

ووسائل الإعلام في الإعلان والتعتيم، وفي التربية والتعليم، تعتمد على التزيين والتقبيح... كذلك يفعل الخطباء في مخاطبة العواطف والمشاعر وتحريك الأحاسيس، في تحذيرهم وتنفيرهم، أو تأليفهم وجمعهم على فكرتهم... وكذلك يفعل أرباب الصنائع والتجار في ترويج سلعهم.

هذا وإن التزيين والتقبيح لعلاج نفسي، يستطيع به الإنسان تغيير الرؤية الذاتية، لتعديل أو تغيير الحكم على المرئيات.

ونخلص إلى القول: إن التزيين والتقبيح سلاح ذو حدين، يستعمل في الخير كما يستعمل في الشر. فهو إن أخذ بمقدار كان مفيداً في دفع الأمراض النفسية، وحل العقد الاجتماعية، وكان وسيلة لتنمية الفضيلة ودرء الرذيلة... فهو كالعلاج ينبغي التحكم في مقداره، واللجوء إليه في أوانه، وعند الاحتياج إليه.

فإن لم يحتط في ذلك، اختلت موازين الحقيقة والفضيلة، كما تختل موازين الحق والشريعة.

ولطالما وجدنا الباطل يتزيا بزي الحق، ويتزين بزخرف الظاهر، من لحن الأقاويل وتبرير التأويل...

لقد غدا التظاهر سمة المدنية في أشياء كثيرة، وزخرفت الأسماء لتضليل المسميات.. فهم يسمون الفجور باسم الفنون.. ويسمون الضائعين باسم المتقدمين. وأسماء كثيرة ليس لها حسبان في الميزان وما أنزل الله بها من سلطان.

— ٧ —

السبيل الموحد

المأخذ ﴿وصدوا عن السبيل﴾.

الحياة ميدان للصراع بين الخير والشر، وينقسم الناس إلى فريقين كل له سبيله الميسر له، الذي خلق من أجله.

ولدى استقراء القرآن نجد أن الغالب إفراد السبيل في الخير، في مقابل جمعه في الشر، وقد وجّه ذلك إلى أن مصدر الحق واحد، وأن الحق بذاته واحد لا يتعدد، وأن زمر المؤمنين فيه جماعة واحدة. بينما الشر مصادره كثيرة، وسبله متعددة، على كل سبيل طاغوته، ولذلك ناسبه الجمع.

وقد بين الرسول الكريم ﷺ ذلك بما خطه على الأرض: جعل خطاً مستقيماً يرمز فيه لسبيل الحق الواحد، وجعل على جانبيه خطوطاً ترمز لسبل الباطل الكثيرة [١].

— ٨ —

النفس وعلاقتها بالروح والبدن

المأخذ: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾.

ــ أما البدن: فهو مجموعة أجهزة مكونة من تراب الأرض ومائها، جعلا طيناً لازباً، ثم صارا صلصالاً كالفخار.

ــ والروح: علوية دخلت البدن فجعلته حياً كسائر الأحياء.

ــ والنفس: سلطت على هذا البدن الحي، فهي تقوده، وهو مذلل لها ومسخر.

والنفس وإن كانت تطلق في القرآن على جملة الروح والنفس والبدن وهي في

---

(١) أنظر ص ١٥٠.

هذه الحالة تعني الذات الانسانية كلها.. لكنها في مواضع كثيرة يراد منها النفس المكلفة بالطاعة والمعصية، والمسئولة بالثواب والعقاب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [١]، وقوله تعالى: ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها. فيمسك التي قضى عليها الموت، ويرسل الأخر إلى أجل مسمّى.. ﴾ [٢].

ـ ٩ ـ

المسئولية الدنيوية والأخروية

المأخذ قوله: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾.

الزمان يومان: يوم دنيوي ويوم أخروي.

ولا بد للصلاح في الأول والفلاح في الآخر من المسئولية التي تضع الحدود وتحدد المعالم، ليعرف كل دوره وحقه وواجبه، ولتستقيم الأمور ويجري التدبير على سنن العدل.

ولذلك كانت الحدود مشروعة في الأموال والأنفس والأعراض للحفاظ على الكليات الإنسانية.

وفي ذلك قوله تعالى في القصاص: ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب ﴾ [٣].

ولذلك أيضاً كان الترغيب بالجنة والترهيب من النار، لتربية النفس في توجيهها وفي ردعها.

والمسئولية مقررة في كتاب الله، وهي مقررة في فطرة العقل البشري كذلك، فالعقل يمتدح الطائع ويأجره، ويذم العاصي ويعاقبه... فإن لم يصل الطائع لثوابه ولا العاصي لعقابه، حكم بوجود يوم آخر يصل فيه كل لجزائه الذي يستحقه...

---

(١) سورة الشمس الآيتان ٧-١٠.

(٢) سورة الزمر الآية ٤٢.

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٩.

ودنيانا التي نحياها قد يعاقب فيها المحسن ويكافأ المسيء، وهي معادلة مقلوبة لا بد من إعادة ترتيبها وتصحيحها.

وإنا لنجد المحاكم الأرضية كثيراً ما تعجز، لوقوفها عند المحسوسات القاصرة، والبيانات الظاهرة...

ومثل هذا يقتضي جولة أخرى تظهر فيها الحقائق الصريحة، وتنكشف البواطن الخفية المطوية، وذلك في يوم الدين حيث العدل المطلق والحق الكامل.

— ١٠ —

القياس

المأخذ قوله: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت، وجعلوا لله شركاء..﴾.

والمقايسة هي المعادلة بين قضيتين تجتمعان في حكم، وهي هنا منفية، لأنها بين الله القائم، وبين المعبودات العاجزة...

فالله سبحانه وتعالى قائم على كل نفس، وهذا يوجب توحيده في العبادة...

أما الشركاء المزعومون فليسوا قائمين على شيء، بل لا يقومون على أنفسهم، ولا يقومون بأنفسهم إلا بظاهر من القول، وكذب في التسمية والوصف... ولذلك تحداهم الله بذكر الأسماء التي يتصف بها الشركاء ومعلوم أنهم يتصفون بالعجز والقصور وعدم القدرة على النفع والضر...

ومثل هذه المقايسة يدل على مشروعية القياس، حيث يجتمع المقيس والمقيس عليه في الحكم متى توحدت العلة، وهما يفترقان متى افترقت العلة. ونقصد بالعلة ما يدور معه الحكم ــ كالسبب ــ وجوداً وعدماً. وهذا في الأحكام الفطرية المعقولة.

ونبهنا لهذا القيد بعدما وجدنا توسعاً في مفهوم العلة أدى إلى إسراف في التحليل والتحريم، في الأحكام الشرعية المنقولة(١).

(١) انظر أصول الأحكام في «مفاهيم».

— ١١ —

الغلظة واللين

لسورة الرعد من اسمها نصيب كبير، والتشديد ظاهر في هذا الفصل بكثرة الإضراب، والانتقال من تهديد إلى تهديد، إلى إنكار بالاستفهام وأم وبل، والتهديد بالعذاب الدنيوي والأخروي، والحرمان من الوقاية والهداية.

وهذا التشديد نزل منزله، وجاء في حينه، فبعد أن خاطب العقل والقلب في آيات معروضات عن الكون والأنفس ـــ والقوم معرضون معاندون ـــ ساق لهم ما يناسب حالهم، فأغلظ لهم في القول.. فمثل هؤلاء لا يفيد فيهم ﴿فقولا له قولاً ليناً﴾[(١)]. كما لا يجدي فيهم ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[(٢)]. فهم إما منافقون كاذبون، أو كفرة مستكبرون. وفيهم قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم﴾[(٣)]. ووجه الغلظة هنا أنه بعد عرض الآيات الحسية والغيبية، الدنيوية والأخروية، والتذكير بحال ومآل الهداية والاهتداء، والضلالة والإغواء... وكان البيان ليناً، والجدال حسناً، فلم يبق بعد كل ذلك إلا الحل الآخر، وهو الغلظة في تقديم الدواء، وفي حسم الداء.

---

(١) سورة طه الآية ٤٤.

(٢) سورة النحل الآية ١٢٥.

(٣) سورة التوبة الآية ٧٣.

الفصل الحادي والعشرون

مثل الجنة

الآيــة ٣٥

قال تعالى:

مـثـل الجنة التي وعد المتقون،
ــ تجري مـن تحتهـا الأنهـار،
ــ أكـلـهـا دائم وظـلـهـا،
ــ تـلـك عـقبى الذيـن اتقوا،
وعـقبى الـكـافريـن الـنـار.

أولاً
مَباحِث تحليلية

مثل الجنة: صفة الجنة، وهو مبتدأ خبره: ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ وعند سيبويه الخبر محذوف تقديره مما نقص عليكم مثل الجنة (١) وقيل: إن لفظ «مثل» زائد (٢) وليس بشيء. و«الـ» في الجنة للعهد أي الجنة الأخروية.

والجنة الدنيوية: بستان مستتر بأشجاره وأسواره وعمرانه، من الجن وهو الاستتار.

التي وُعد: حذف الفاعل واستعمال صيغة المجهول لغرض التركيز على الموعود به وهو الجنة، بدخولها والخلود فيها. والوعد يكون في الخير والشر، ومنه قوله تعالى: ﴿ألا إن وعد الله حق﴾ (٣) والمراد وعد الجزاء ثواباً وعقاباً.

المتقون: من وقى، وهو الحفظ والصيانة، ومنه التقوى: أن تجعل بينك وبين غضب الله وقاية بفعل الطاعة واجتناب المعصية.

تجري من تحتها الأنهار: الجري: المرور السريع، و«من»: لابتداء الغاية، والضمير في «تحتها» للجنة وتوابعها، أي تحت أرض الجنة وتحت قصورها وأشجارها... ويقدر مضاف مع الأنهار أي مياه الأنهار ونحوها، وهي أنهار العسل المصفى، واللبن الذي لم يتغير طعمه، والخمر التي لا غول فيها، والماء غير الآسن.

وأصل النهر: السيلان، ومنه أنهر الدم في الذبح: أساله.

---

(١) الكتاب لسيبويه: ١/١٤٣ ط الثانية الخانجي والرفاعي.

(٢) فتح القدير: ٣/٨٦ ط دار الفكر.

(٣) سورة يونس الآية ٥٥.

أكلها دائم: «الأكل» الثمر لأنه يؤكل، والدوام هو البقاء بلا انقطاع أو فناء، كما في قوله: ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾[1]، ودوام الأكل بحسب نوعه فكل شيء أكل يتجدد غيره لا بحسب شخصه، إذ عين المأكول لا ترجع[2].

وظلها: مبتدأ خبره محذوف اكتفاء بدلالة ما قبله عليه. والمعنى وظلها دائم كما في قوله: ﴿وظل ممدود﴾[3]. والظل أعم من الفيء. لأن الفيء خاص بما تنسخه الشمس. والضمير في ظلها يعود للجنة باعتبار ماله ظل فيها كالأشجار والقصور.

تلك العقبى الذين اتقوا: ﴿ولنعم دار المتقين﴾[4] والإشارة بتلك وهي للبعيد للإشارة إلى علو مقاماتهم وارتفاع درجاتهم، والعقب مؤخرة الشيء، والمراد بالعقبى هنا آخر الأحوال في مصيرهم.

والتقوى هي الوقاية أي اجتناب الظلم العظيم من كفر وشرك...

وعقبى الكافرين النار: وعبَّر بالإسمية هنا وفي «عقبى الذين اتقوا» للدلالة على الإمتداد والدوام.

و«الـ» في النار للعهد أي النار المعهودة المعروفة في الآخرة.

واقتصر على النار مع كثرة العذاب وتنوعه لأنها أعظمه وآلمه.

---

(١) سورة الواقعة الآيتان ٣٢-٣٣.

(٢) الفتوحات الإلهية ٥٠٨/٢.

(٣) سورة الواقعة الآية ٣٠.

(٤) سورة النحل الآية ٣٠.

ثانيًا
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.
٢ ــ أسلوب الحذف والزيادة.
٣ ــ مثل الجنة.
٤ ــ التقابل في الإجمال والتفصيل.

— ١ —

المعنى العام

مناسبة الكلام لما قبله: أنه بعد معرفة الرب ناسب الترغيب في طاعته والسعي لجنته.

وقد وصف الله جنته التي خلقها لعباده الصالحين...

فذكر أنهارها الجارية بأنواع الشراب، وأنواع الأثمار التي لا تنفد ولا تفسد، والظلال الدائمة الممدودة لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً.

هذا هو مصير المتقين، وقد كرر تعالى ذكر التقوى في سياق مديح أصحاب الجنة:

— حيث وعدهم بالجنة أولاً: «مثل الجنة التي وعد المتقون».
— ثم جعلها عاقبتهم أخيراً: «تلك عقبى الذين اتقوا».

والمتقون هم الذين أدَّوا ما عليهم من حقوق الله في العبادات، وراعوا ما بينهم وبين الناس من حقوق العباد في المعاملات.

ولقد رغب تعالى في أنهار الجنة جمالاً للناظرين، وسقاء للشاربين، وأما أشجارها فدائمة الخضرة ممدودة الظلال ممنوحة الأكل.

وبعد هذا الفضل في مصير المتقين، أجمل تعالى في مصير المخالفين وأشار إلى وصفهم وهو الكفر «وعقبى الكافرين النار».

— ٢ —

أسلوب الحذف والزيادة

من أساليب العرب في البيان «الحذف»، وهو مصطلح مشهور، وقد يستعمل بمعناه الإضمار والاختصار والاقتصار والتقدير والايجاز ونحو ذلك..

واختلفوا في الحذف هل هو من الحقيقة أو من المجاز

والظاهر أن المحذوف إذا كان معروفاً عند المخاطب بحيث لا يتطرق إليه الاحتمال فهو من الحقيقة. أما إن احتمل وجوهاً فالقول بصرفه للمجاز له وجه.

ومن المحاذيف في الآية حذف الخبر في قوله «مثل الجنة» قدره **سيبويه**: ومن القصص مثل الجنة أو مما يقص عليكم مثل الجنة (١).

وحذف الخبر في قوله: «وظلها» أي وظلها دائم.

وفي مقابل الحذف هناك من ادعى الزيادة بحجة أنها أسلوب عربي في البيان.

ومما ورد من ذلك في الآية القول بزيادة «مثل» قالوا: أصل الكلام الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار. قال **الفراء**: المثل مقحم للتأكيد! (٢).

ـ ٣ ـ
مثل الجنة

الجنة موصوفة في القرآن بصفات كثيرة تكررت حتى صارت هذه الصفات تعرف بالأسماء، كل اسم منها علم يدل على صفة من صفات الثواب الأخروي.

واسم الجنة أشهرها، سميت به لاجتنانها، واستتار نعيمها بالقصور والاسوار والأشجار.

وهذه الجنة يضرب بها المثل في أكلها الدائم، وظلها الممدود، ومياهها الجارية. وهذا ما ذكر **مجملاً** في الرعد، وقد فصل في مواضع أخرى منها قوله تعالى: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها:

ـ أنهار من ماء غير آسن.
ـ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه.
ـ **وأنهار من خمر لذة للشاربين.**
ـ وأنهار من عسل مصفى.
ـ ولهم فيها من كل الثمرات.

---

(١) الكتاب لسيبويه: ١٤٣/١ وقوله: «مثل الجنة» الآية ١٥: سورة محمد.
(٢) فتح القدير ١٦/٣ ط دار الفكر.

ـ ومغفرة من ربهم﴾ (١).

وفي الجنة من النعيم غير ذلك كثير، بل فوق كل ذلك مزيد، ألا وهو رؤية الكريم الجليل: ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ (٢).

وما وصف من نعيم الجنة في الطعام والشراب والكساء والإيواء والرؤية والسماع، وسمي بأسماء الأحاسيس الدنيوية، هو اشتراك في الاسم، مع الفارق في حقيقة الحال.

«في الآخرة من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» كما روي (٣).

وما ساقه سبحانه من صفات الجنة، وكذا ما ساقه من صفات النار في سياق الوعد والوعيد هو للترغيب والترهيب. ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ (٤).

ـ ٤ ـ

التقابل في الإجمال والتفصيل

قوله تعالى:

(وعقبى الكافرين النار) إجمال حال ومآل الكافرين. بينما فصل القول في حال ومآل من يقابلهم من المتقين، فذكر صفة الجنة وأنهارها وثمارها وظلالها، مع تعظيمها بالإشارة إليها، وتكرار صفة التقوى في أصحابها.

والإجمال في الكافرين بعد التفصيل في المؤمنين من حيث العمل الدنيوي والجزاء الأخروي، يناسب السياق في هذا الموضع، ونجد العكس في مواضع أخرى أي التفصيل عن الكافرين والإجمال عن المؤمنين.

وسياق الترغيب أو الترهيب هو علة من علل التفصيل والإجمال.

---

(١) سورة محمد الآية ١٥.

(٢) سورة القيامة الآيتان ٢٢-٢٣.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة.

(٤) سورة الإسراء الآية ٥٩.

الفصل الثاني والعشرون

الكتاب المنزل

الآيتان ٣٦ ـ ٣٧

قال تعالى:

والذين آتيناهم الكتاب:

ــ يفرحون بما أنزل إليك،

ــ ومن الأحزاب من ينكر بعضه.

قل: ــ إنما أمرت أن أعبد الله،

ــ ولا أشرك به،

ــ إليه أدعو،

ــ وإليه مآب.

وكذلك أنزلناه حكماً عربياً،

ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم،

ما لك من الله من ولي ولا واق.

أولاً
مَباحِث تحليلية

والذين آتيناهم الكتاب: التعبير بالموصول لإفادة العموم فيدخل فيه عامة أهل الكتاب من اليهود والنصارى وغيرهما. وخصه بعضهم كما في البيضاوي بثمانين رجلاً[١]. بل هناك من خصه برجلين هما: عبد الله ابن سلام وسلمان الفارسي[٢]. «وآتيناهم» أعطيناهم من الإيتاء، وجمع المتكلم للتعظيم و«الكتاب» من الكتب وهو الإيجاب والفرض فالمراد: ما كلف الله به عباده. والمتبادر منه كتب الله المنزلة كالتوراة والإنجيل والزبور...

يفرحون: الفرح: السرور وغلب في الشر لقيامه على التشهي والاغترار واستعمل في غيره كما في قوله: ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون﴾[٣].

وفي المفردات: الفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية. وسبب فرحهم مشابهة كتابهم لكتابك ففرحهم بحق، أو أنهم يستهزئون ففرحهم بباطل.

بما أنزل إليك: من الكتاب وهو القرآن، والتعبير بالإنزال لبيان مصدره، والإشارة إلى علوه، والتعريض بمن أنكره.

ومن الأحزاب: «من» للتبعيض أي بعض الأحزاب. والأحزاب هي الجماعات المتحزبة.

في المفردات، الحزب: «جماعة فيها غلظ»، وجمع الأحزاب لتعدد جماعاتها، وكثرة أفرادها.

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل لعبد الله بن عمر البيضاوي ط دار الجيل ص ٣٣٣.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن ٥/٣٣٥-٣٣٧.
(٣) سورة الروم الآية ٤.

والمراد بالأحزاب المشركون من غير أهل الكتاب لأنهم ذكروا في مقابلتهم، وإن قيل بالعموم دخلوا جميعاً في مسمى الأحزاب.

من ينكر بعضه: البعض الذي ينكره ــ أي يجحده ولا يقر به بل يكفر به ــ هو ما خالف كتابهم، أو خالف مألوفهم ومعتقدهم.

قل إنما أمرت أن أعبد الله: الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، ويدخل في الحكم معه كل من يصلح للأمر بعبادته. والاستئناف بقل لتعظيم المقول، وهو الأمر بالعبادة،
وكذلك يفيد الحصر بالاداة «إنما»... و«العبادة»: التذلل والخضوع، والمراد بها شرعاً: فعل المأمور واجتناب المحذور بإخلاص، وموافقة للمشروع.

ولا أشرك به: في ذاته ولا في عبادته فلا أتخذ له أنداداً في صفة من الصفات، أو في عبادة من العبادات.

إليه أدعو: الدعاء: نداء فيه استمالة للترغيب في الطاعة، والترهيب من المعصية، والمراد الدعوة إلى الله كما يفيد التعدية «بإلى».
ومثله قوله: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾ (١).

وإليه مآب: «مآب» مصدر ميمي من آب بمعنى رجع عن المعصية إلى الطاعة، ومثله متاب من تاب.

وكذلك انزلناه: الإشارة في كذلك ترجع إلى ما تقدم، والكاف الأولى بمعنى مثل يراد بها ما يأتي، والتقدير ذلك الكتاب الذي آتيناه، مثله المحكم العربي الذي انزلناه. والإنزال في اللغة عام في كل نزول من أعلا إلى أسفل، والتعبير بالإنزال دفع لتهمة الأخذ عن البشر، وإثبات للمصدر الرباني...
وفي نسبته لضمير الجمع تعظيم للمنزل وللنازل، والضمير المنصوب يرجع للقرآن، ولم يذكر لوضوحه، وعدم الاشتباه فيه.

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٣.

حكماً: حال وإن كان نكرة لكنه وصف بعربياً الآتي، والحكم من الحكمة في فم الدابة لمنعها من النفور، والحِكمة في الإنسان لمنعه من السفه. فالحكم هو المنع، أي منع الناس من تجاوز الحدود المشروعة أو الموضوعة.

وسمي القرآن حكماً لأنه يحكم بين الناس في التكاليف والأحكام، ويقول الجمل فلما كان القرآن سبباً للحكم جعل نفسَ الحكم على سبيل المبالغة [١].

عربياً: بلسان العرب، فالنسبة للقوم. وقد يكون من معنى الكلمة ـــ ومادة عرب بمعنى البيان والتوضيح ـــ. ولا مانع من جمع المعنيين، أي بلسان العرب المبين، وعلى الأول يكون القرآن من حيث اللفظ عربياً ومن حيث المضمون يكون حكماً...

ولئن: اجتمع شرط وقسم فالجواب لاحدهما، ويكتفي الآخر به كما قال ابن مالك.

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم = جواب ما أخرت فهو ملتزم.

اتبعت: التابع: الذي يلحق غيره، كالمأموم يتبع الإمام في حركاته ووقفاته.

أهواءهم: في عبادة إلهِهِم، والتوجه لقبلتهم...

والهوى، ميل النفس إلى الشهوات من غرائز وميول، وهذا هو الهوى المردي بصاحبه إلى النار.

من بعد ما جاءك من العلم: العلم: معرفة الشيء وإدراكه على حقيقته. وهو عقلي ونقلي. أي ما أوحى تعالى به من التنزيل، وما ألهم من الحكمة.

مالك من الله من ولي ولا واق: «مـن» الأولى ابتدائية أو بدلية، والمعنى ليس لك ولي أو واق مبتدأ من الله، أو بدل من الله.

والولي في المفردات والولاء والتوالي: «أن يحصل شيئان فصاعداً حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار للقرب» اهـ والقرب يكون قرابة، أو مكاناً، أو خلطة، وجواراً.

و«واق» اسم فاعل من وقى، والوقاية: الحفظ والصيانة...

---

(١) الفتوحات الإلهية ٥٠٩/٢.

ثانيا
مباحث موضوعية

١ ـ المعنى العام.

٢ ـ سبب نزول.

٣ ـ المتفق والمفترق في الكتب.

٤ ـ عربية القرآن وترجمته.

٥ ـ العبادة.

ـ ١ ـ

المعنى العام

بعد ذكر الجزاء خيراً وشراً وهو مسبب، ناسب أن يذكر السبب وهو العمل طاعة ومعصية.

وأهل الكتب المتقدمة كاليهود ـ أهل التوراة ـ والنصارى ـ أهل الإنجيل ـ وغيرهم يفرحون بما يجدونه من موافقة بين ما عندك وعندهم، فيعرفون أن ما عندك حق فيتبعونك، أو يطمئنون إلى ما عندك ويكتفون بما عندهم. لكن هؤلاء أنفسهم أو آخرون غيرهم ينكرون بعض التنزيل ويكفرون به، والكفر ببعضه كالكفر به كله.

ولذا أمر الرسول بالتميز عن هؤلاء المشركين واجتناب الشرك، بإخلاص العبادة والدعوة، والتوبة، لله وحده.

وقد سن الله إنزال كتبه على كل قوم يكلفهم بالعمل بها. وكان آخر الكتب بلسان عربي مبين. وعلى الرسول ومن اتبعه أن يعملوا بما علموا ويجتنبوا متابعة الكافرين أو مداهنتهم، كي يفوزوا برحمة الله في الولاية، وينجوا من غضب الله بالوقاية.

ـ ٢ ـ

سبب نزول

قال كثير من المفسرين: إن عبد الله بن سلام ومن آمن من أهل الكتاب، ساءهم قلة ذكر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فأنزل[١] الله تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾[٢] ففرحوا بذلك فأنزل الله: ﴿والذين آتيناهم

---

(١) الفتوحات الإلهية ٥٠٨/٢.

(٢) سورة الإسراء الآية ١١٠.

الكتاب يفرحون بما أنزل إليك﴾.

وروي أن المشركين دعوا رسول الله ﷺ إلى ملة آبائه، فتوعده الله تعالى على اتباع أهوائهم في ذلك بقوله: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق﴾ (١).

ولعل من المناسب هنا أن أذكر رأياً في أسباب النزول مفاده: أن السبب ما يتعلق به الشيء وجوداً وعدماً، كالعلة والشرط واللازم والمقتضي...

وليس كذلك سبب النزول ــ الذي هو واقعة نزل فيها قرآن يحكم لها أو عليها ــ حتى ما هو نص على السببية صراحة لا يلزم فيه توقف النزول عليه، بحيث لو تخلف السبب تعطل المسبب الذي هو النزول.

أما الأسباب الضمنية ــ وهي غير صريحة ــ فالغالب فيها أن تكون تفسيراً بالجزئي، وضرباً للأمثال، للتوضيح والبيان، والكشف عن المعاني.

ولقد رأيت منذ سنين أن أستعمل تعبير مناسبة النزول بدلاً من سبب النزول لئلا يرد ما ذكرته من التعلق والملازمة بين السبب والمسبب.. ولأن المناسبة عامة تشمل معنى السببية كما تشمل التفسير... وليس هذا يعني تغيير مصطلح أسباب النزول، فلا مشاحة في الاصطلاح والمصطلحات. وقد سبقت الاشارة لمثل هذا (٢).

ــ ٣ ــ

أهل الكتاب

كتب الله كثيرة فهي بعدد الأنبياء المرسلين إلى الشعوب، وأشهر الكتب التوراة والإنجيل والزبور، وأهلها اليهود والنصارى. وهذه الكتب متفق عليها، وأهلها معروفون بها، منسوبون إليها. وهناك كتب غير مشهورة، وأهلها غير معروفين كالكتاب الأسود، وأهل هذا الكتاب في يومنا هذا هم الأكراد.

---

(١) الفتوحات الإلهية ٥٠٩/٢.

(٢) انظر ص ٣١.

وبعضهم يعدُّ «الكتاب الأسود» منزلاً، كما يعدُّ «زرادشت» نبياً مرسلاً. وتعاليم زرادشت في الحكمة والفضيلة، والدعوة إلى الخير والإصلاح بين الناس لا تزال قائمة معروفة.

وعادات الشعوب وتقاليد الأقوام مما يقوم على الحق والعدل والفضيلة لا يبعد أن تكون من موروثات الكتب السابقة لا تزال تعيش بين أتباعها وتؤثر فيهم بشكل من الأشكال.

ـ ٤ ـ

المتفق والمفترق في الكتب

كتب الله ولو اختلفت أزمانها وتعدد مرسلوها فإنها تجتمع في أصل واحد تتفق عليه ولا تختلف فيه ألا وهو توحيد الله... أو كما جمعته آية الرعد: «قل إنما أمرت أن أعبد الله، ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب». وبصورة عامة فأصول الدين وأمهات الفضائل هي في الكتب كلها واحدة.

والافتراق هو في الفروع العملية، وهي قد تنسخ من شريعة لشريعة، كما قد تنسخ في الشريعة الواحدة من وقت لوقت.

لهذا وجب الحذر من اطلاق الأحكام والقول ببطلان ما خالف شرعنا لاحتمال إحكامها في تلك الشرائع.

ـ ٥ ـ

عربية القرآن وترجمته

جعل الله القرآن باللغة العربية لأنه أنزل على العرب، وكل كتاب ينزل على نبي إنما يكون بلسانه ولسان قومه ليتبينوه ويبينوه: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾[1].

ـ وهذا الوجه الأول في عروبة القرآن، من حيث كون النازل بلغة العرب والعرب لا يعرفون لغة غيرها كما قال تعالى:

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٤.

﴿كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾[(١)]. يعني يعلمون اللغة العربية. وقال تعالى: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آيته أءعجمي وعربي﴾[(٢)].

ـ والوجه الثاني لعروبة القرآن هو التعبد بالنص العربي لكل حرف مقروء عشر حسنات كما ورد[(٣)].

ـ والوجه الثالث لعروبة القرآن هو الاستنباط، فالمجتهدون ملزمون بالنص العربي لمعرفة الأحكام، والاجتهاد في الدلالات الدقيقة.

أما الفهم العام للقرآن، ومعرفة أصوله، والعلم بتوحيده، فليس يحتاج للعربية، لأن المفهوم فيه محدد يمكن نقله لأية لغة، ولقد وجدنا في القرآن أحكاماً كثيرة وقصصاً وأقوالاً حكيت على ألسنة السابقين ممن لم يتكلموا العربية، وكذلك الإخبار عن حديث أهل الجنة والنار، والله أعلم بلغاتهم.

والتوحيد والأصول تترجم إلى لغات الناس لغرض الدعوة بين من لا يعرف العربية.

ولقد وجدت من يمنع الترجمة بل يحرمها، أو يقيد إباحتها، أو يقسم الترجمة إلى حرفية محظورة، ومعنوية تفسيرية مشروعة للضرورة...

ولم أر وجهاً لهذا التقسيم، لعدم وجود ما يسمى بالترجمة الحرفية حتى في العلوم الطبيعية. فكيف يوجد في العلوم الانسانية؟

والمراد بالترجمة في عرف الناس هو نقل المفهوم من لغة إلى أخرى، ولا يزعم أحد أنه نقل لفظي حرفي، فالحروف والألفاظ لا تنقل وإنما تنقل معانيها، مع تمثيل وجهة نظر المترجم، فيما لو تعدد المعنى في اللفظ الواحد.. وعليه فإن ترجمة القرآن تمثل القرآن في وجه من الوجوه المحتملة فيه، والقرآن كثير الوجوه، حمال للمعاني.

---

(١) سورة فصلت الآية ٣.

(٢) سورة فصلت الآية ٤٤.

(٣) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن مسعود.

ــ ٦ ــ
العبادة(*)

المأخذ قوله: ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به، إليه أدعو، وإليه مآب﴾.

والعبادة غاية الخلق كما قال تعالى عن الإنس والجن خاصة: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (١).

وكما قال عن الخلائق عامة:

ــ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً (٢).
ــ ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللإرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ (٣).

والآيات كثيرة في القرآن.. فحديث القرآن كله حديث عن الربوبية... والعلم بالربوبية والعمل بما تقتضيه هو العبادة... إذن فحديث القرآن في أصله هو عن العبادة...

والعبادة تكون عملاً يكتسب بالقلب نية، وباللسان مقالة، وبالجوارح حركة أو سكنة، وبعبارة أخرى فالعبادة: باطنة في القلوب أو ظاهرة على اللسان والجوارح.

ومن جهة أخرى ينقسم العمل إلى فعل وترك كفعل الصلاة وترك الزنى.

والعبادة من وجه ثالث تكون منصوصة من قبل الشارع كالشعائر التعبدية، أو تكون بنذر العبد، أو بتوجيه أيِّ عمل لله سبحانه.

ولقد تجاوزت قضية تقسيم العلوم إلى فقه وعقيدة وأخلاق... كما تجاوزت الدرجات والمراتب من ركن وفرض وواجب وسنة، أو كبيرة وحرام ومكروه.

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦.
(٢) سورة مريم الآية ٩٣.
(٣) سورة فصلت الآية ١١.
(*) أنظر الموضوع الثامن من الفصل الثامن عشر.

واقتصرت على أن العبادة أمر وحظر، وأن الحكم هو المشروعية مطلقاً مع مراعاة الأهم والمهم عند التقابل والتزاحم.

وقمت بجمع أصول العبادة في توحيد الله من القرآن، وهاك أسماءها، نفعني الله وإياك بها، علماً وعملاً:

١ ـ الإيمان بربوبية الله.

٢ ـ الإيمان بالملائكة المكرمين.

٣ ـ الإيمان بالأنبياء المرسلين.

٤ ـ الإيمان بالكتب المنزلة.

٥ ـ الإيمان باليوم الآخر.

٦ ـ الإيمان بالقدر والتوكل.

٧ ـ الإخلاص في العمل.

٨-٩ ـ الحب والكره.

١٠-١١ ـ الخشية والرجاء.

١٢ ـ التبرؤ من الجاهلية.

١٣ ـ الولاء.

١٤ ـ الدعاء.

١٥ ـ التوبة.

١٦-١٧ ـ ابتغاء الوسيلة وطلب الشفاعة.

١٨ ـ الحلف بالله.

١٩ ـ النذر لله.

٢٠ ـ الذبح لله.

٢١ ـ الجهاد في سبيل الله.

٢٢ ـ الهجرة في سبيل الله.

٢٣-٢٤ ـ الحكم والتحاكم.

٢٥ ـ شعائر العبادة.

٢٦-٢٧ ـ الحمدلة والبسملة [١].

---

(١) انظر تفصيل هذه الأصول في رسالة «أصول التوحيد في القرآن الكريم».

الفصل الثالث والعشرون

وظيفة الرسل

الآيات ٣٨ ـ ٤٠

قال تعالى:

ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك،
وجعلنا لهم أزواجاً وذرية،
وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله.
لكل أجل كتاب،
يمحو الله ما يشاء ويثبت،
وعنده أم الكتاب.
وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك،
فإنما عليك البلاغ،
وعلينا الحساب.

أولاً
مَباحِث تحليلية

ولقد أرسلنا رسلاً: أرسلنا تحقيقاً وتأكيداً، كما تفيد «لام» القسم المؤكدة، وكذلك «قد» الداخلة على الماضي. و«أرسلنا»: بعثنا برسالة، وأصل الرسل: البعث بتؤدة وأناة، وهكذا الرسول يبعثه الله بحكمته محملاً برسالته، وتنكير «رسلاً» إشارة لكثرتهم، وعظمة رسالاتهم.

وجعلنا لهم أزواجاً: جعل: فعل عام معناه هنا خلق، أو زوَّج. وأصل الزوج: الفرد المقابل بمثله ذكراً كان أو أنثى.

وذرية: من الذر، والذرة من الحيوان: النملة الصغيرة، ومن الجماد: الهباءة التي ترى في شعاع الشمس، وتستعمل في العنصر الأول للمادة. والمراد بالذرية: الفروع من الأولاد ومن نزلوا منهم. واطلاق الذر على الفروع لصغرهم بالنسبة للأصول من الآباء والأجداد.

وما كان لرسول أن يأتي بآية: «ما» نافية، أي لا ينبغي ولا يصح ولا يستقيم لأي رسول أن يأتي بآية من عند نفسه دون إذن من ربه. وأفردَ «رسول» ونكّر في سياق النفي ليعم المرسلين جميعاً.

و«آية» بالتنكير والإفراد لإفادة الصفة أي بآية خارقة حسية، أو لإفادة القلة كما يشير إليه التعبير بالفعل «يأتي» لأن الفعل أقل من الإسم. في الثبات.

إلا بإذن الله: «الإذن»: العلم، ومنه الأذان وهو الإعلام بدخول وقت الصلاة.

لكل أجل كتاب: «الأجل» الزمن الموقوت، واختلفوا في تفسيره تبعاً لما يتعلق به، فالأجل، الموت في نهاية عمر الإنسان، والقيامة: أجل أهل الأرض

جميعاً، و«كتاب» اسم مصدر بمعنى اسم المفعول ـ المكتوب من الكتب ـ: وهو الإلزام والفرض والحكم، أي أن لكل زمن أحكامه المفروضة اللازمة، وسننه الثابتة الماضية. ويحتمل أن يكون في الكلام تقديم وتأخير كما ذكر الفراء، قال: فيها قلب أي لكل كتاب أجل[١] ونحوه قوله: ﴿لكل نبأ مستقر﴾[٢].

وإذا أريد بالكتاب: الكتابة المعروفة بالقلم فيحمل على تدوين الملائكة لصحفها المنسوخة عن اللوح المحفوظ.

يمحو الله ما يشاء ويثبت: المحو: الإزالة بالنسخ والتبديل كما يدل عليه قوله: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها﴾[٣]. وقوله: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾[٤].

و«ما يشاء» أي ما يريد فهي مشيئة إرادة للتكوين والتشريع.

وقوله «يثبت» قرىء بالتشديد[٥]. وهو أبلغ من التخفيف، والإثبات عكس المحو، وبينهما طباق.

وعنده أم الكتاب: أي أصل الكتاب، فالأم أصل ما حوله، أو ما دونه، كمكّة أم القرى، وأم الأولاد.. والمراد بأم الكتاب: اللوح المحفوظ، أو هو علم الله عامة.

وإمّا نرينك: «إما» فيه «إن» الشرطية مدغمة في «ما» المزيدة عند النحويين، وجوابه وجواب ما عطف عليه في قوله: «أو نتوفينك» مفهوم من قوله: ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾.

بعض الذي نعدهم: الوعد عام بالخير والشر، والمراد هنا الشر أي الوعيد، كالقحط في الأرزاق، والهزيمة في المعارك.

أو نتوفينك: من التوفية: أداء ما يجب وافياً غير ناقص ومنه الوفاة: أي نعطيك أجلك وافياً ثم تموت.

---

(١) معاني القرآن ٦٥/٢.

(٢) سورة الأنعام الآية ٦٧.

(٣) سورة البقرة الآية ١٠٦.

(٤) سورة النحل الآية ١٠١.

(٥) أنظر النشر ١٣٢/٣.

فإنما: الفاء لترتيب الرؤية والوفاة على التبليغ و«إنما»: إنَّ المكفوفة دخلت عليها «ما» الكافة، تفيد الحصر.

عليك البلاغ: «البلاغ» اسم مصدر من بلغ تبليغاً بمعنى الإعلام، وأصله بلوغ الغاية ومنه البلاغة في الكلام لبلوغه الغاية في الفصاحة والبيان.

وعلينا الحساب: في المفردات الحساب: استعمال العدد يقال حسبت حساباً وحسباناً قال تعالى: ﴿لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ [1]. أ هـ.

وتقديم «علينا» مع صيغة الجمع لتعظيمه سبحانه. وتأخير الحساب للاهتمام بأمره، والتشويق لذكره، والحساب: ضبط الشيء وعده وإحصاؤه، والمراد حساب الأعمال الدنيوية خيراً وشراً، والمؤاخذة عليها في الدنيا، أو تأخيرها ليوم القيامة لوزنها والمجازاة عليها.

(١) سورة يونس الآية ٥.

ثانياً
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.
٢ ــ النبي والرسول.
٣ ــ بشرية الرسول.
٤ ــ لكل أجل كتاب وعنده أم الكتاب.
٥ ــ المحو والإثبات في النسخ والإحكام.
٦ ــ الخوارق من سحر وكرامات ومعجزات.
٧ ــ التقابل.

— ١ —

المعنى العام

بعد ذكر الرسالة ناسب أن يذكر حملتها من الأنبياء المتقدمين والمتأخرين، ومحمد — خاتمهم — لم يكن بدعاً منهم، بل انه مثلهم في اتخاذ الأزواج، وتناسل الذرية، وإظهار المعجزات الخارقة...

وكل ذلك موقوت مكتوب بيد الله إحكامه وإظهاره، ومحوه ونسخه. والمقدور حالّ بقوم الرسول في حينه الموعود به سواء عاش حتى يراه، أو مات قبل ذلك، فليس من مهمته الرؤية وعدمها، بل مهمته هي تبليغ الرسالة وبيانها للناس.

وأما الحساب وما يبنى عليه من مسئولية وجزاء فإنما هو على الله وحده.

وعلى هذا فإن الأنبياء المرسلين بشر ومنهم خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً، فهم يتزوجون ويتناسلون كغيرهم من الناس، وأما ما اختصوا به من الوحي النازل عليهم، أو المعجزات التي تظهر على أيديهم، فهو كغيره من الأمور المحكومة بالقدر إثباتاً ومحواً «لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب».

— ٢ —

النبي والرسول

النبي مأخوذ من النبأ وهو: من أوحي إليه بنبأ منزل من الله. والرسول هو النبي حال تكليفه بتبليغ النبأ إلى الناس، وذلك الرسالة. والتلازم قائم بين النبوة والرسالة، فهما يجتمعان في شخص واحد، لأنهما وصفان لموصوف واحد، يتقدم أحدهما على الآخر، فالبداية بالنبوة ثم التكليف بتبليغها ودعوة الناس إليها...

ويتصور انفصال النبوة عن الرسالة في حالة واحدة، هي أن يعيش نبي منفرداً وحده في عزلة عن الناس، وفي هذه الحالة لا فرق بين أن يكلف بالدعوة أو لا يكلف بها، لأنه لن يجد أحداً يدعوه فيبقى نبياً.

أما العدد فغير محدد، بل ظاهر القرآن إبهامه في أكثر من موضع، كما في قوله: ﴿ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾ (١). مع تصريح القرآن بأنه أرسل لكل قوم أو كل أمة رسولاً (٢).

وغير معروف عدد القرى الماضية والأمم الخالية أو الشعوب والقبائل. أما ما روي من تحديد لعدد الأنبياء وعدد المرسلين فيحتاج للنظر إلى سنده. فقد روي أن عدد الأنبياء مئة وأربعة عشر ألفاً أو مئة وعشرون ألفاً والرسل ثلاثمائة وبضعة عشر (٣).

— ٣ —

بشرية الرسول

كل رسول هو بشر من أبوين إلا آدم فمن تراب وإلا عيسى فمن امرأة. وكلهم من تراب وماء جوهرهم واحد، وتجري عليهم أعراض واحدة. فهم جميعاً يأكلون ويشربون ويجوعون ويظمأون وينامون ويتعبون ويمرضون ويموتون...

ولقد تطاول أقوام فنالوا من الأنبياء، وغالى فيهم آخرون... ومن ذلك ما ينسبه اليهود في كتبهم لأنبيائهم من تجريح وتشويه، في مقابل ما ينسبه النصارى إلى نبيهم من إلهية وربوبية... فكان الحال مع هؤلاء وأولئك في إفراط وتفريط بعيدين...

ولقد وجدنا خاتم الأنبياء وقد كسرت رباعيته، وشج وجهه، وهزم جيشه،

---

(١) سورة النساء الآية ١٦٤.

(٢) انظر الآيات: سورة إبراهيم الآية ٤، سورة الروم الآية ٤٧، سورة يونس الآية ٤٧، سورة النحل الآية ٣٦، سورة فاطر الآية ٤.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد في مسنده.

ونالت منه الشقيقة الحادة، ونال منه السحرة، كما وجدناه في تأبير النخل، وفي قبول الفداء، وفي الإذن للمتخلفين، وفي الإعراض عن الأعمى.

فهو بشر كغيره وإن كان الأمثل، وعصمته هي في تلقي الوحي وتبليغ الرسالات، ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد﴾ (١).

ـ ٤ ـ

لكل أجل كتاب وعنده أم الكتاب

كل موجود في هذا الوجود يحتل مكاناً محدوداً، وزماناً موقوتاً، فكانت الموازين والمقادير، في الجواهر والأعراض والهيئات. والآيات في هذا كثيرة كقوله: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ (٢). وقوله: ﴿والسماء رفعها ووضع الميزان﴾ (٣). وقوله: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ (٤).

والزمن شيء نسبي يختلف طولاً وقصراً من موقع إلى موقع، فلكل مكان زمانه المناسب له حتى يطول كثيراً، أو ينعدم تماماً.

وقوله تعالى: ﴿لكل أجل كتاب﴾ يشير إلى اختلاف الزمان، واختلاف الأحكام فيه. ولكن ذلك داخل في باب القدر النافذ والقضاء الماضي الذي لا يتخلف ولا يختلف، ولا يتبدل ولا يتحول، فكل ذلك محكوم بالسنة الثابتة: ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ (٥).

﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ (٦).

﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ (٧).

---

(١) سورة فصلت الآية ٦.

(٢) سورة القمر الآية ٤٩.

(٣) سورة الرحمن الآية ٧.

(٤) سورة الرحمن الآية ٥.

(٥) سورة الأحزاب الآية ٣٨.

(٦) سورة فاطر الآية ٤٣.

(٧) سورة الروم الآية ٣٠.

فالله فعال لما يريد، وقد أحكم آياته فجعلها على وفق عدله وحكمته، وجعل لكل مخلوق بدايته ونهايته، وكل زيادة ونقصان بحسبان..

— ٥ —

المحو والإثبات في النسخ والإحكام

ورد هنا التعبير بالمحو، وفي مواضع أخرى ورد النسخ والتبديل، وورد الإثبات كما ورد الإحكام. والله فعال لما يريد ينسخ ما يشاء فيمحوه ويبدله، أو يحكمه فيبقيه ويثبته...

فالشرائع تتناسخ، والنسخ يقع في الشريعة الواحدة بين الآيات التنزيلية، كما يقع في الآيات التكوينية، فتنسى أو تبدل بما هو خير منها، أو بمثلها.

ومن الأدلة الواردة في ذلك قوله: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ (١).

وقوله: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر﴾ (٢).

وقوله في الرعد: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾.

وآية التبديل نص في نسخ الآيات التشريعية.
أما آية النسخ فنص في الآيات التكوينية.
وأما آية المحو فعامة فيهما والله أعلم.

«اللهم إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة فامحنا وأثبتنا في ديوان السعادة» (٣).

— ٦ —

الخوارق من سحر وكرامات ومعجزات

المأخذ قوله: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٦.

(٢) سورة النحل الآية ١٠١.

(٣) من دعاء عمر وابن مسعود رضي الله عنهما أنظر تفسير المحرر ١٨٣/٨.

السنة الثابتة ماضية في الخلق والفطرة، وهي سنة لا تتبدل ولا تتحول، ولا تختلف ولكن الله الذي فطر السنن له أن يخرقها بسنن أخرى، والسنة الخارقة تكون مشروعة في معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وهي محظورة في خوارق السحر. ومن المعجزات ما ذكره القرآن عن عصا موسى التي تحولت إلى حية تسعى، وتلقفت عصي السحرة وحبالهم...

وضرب بها البحر وهو ماء ليتحول إلى يبس يسير عليه المؤمنون...

وكذلك نار النمرود التي تحولت إلى برد وسلام على إبراهيم...

وكذلك تسخير الجن لسليمان، وترديد الطير والجبال مع داود.

وكرامات الأولياء مشهورة.

أما السحر ـ فيما عدا التخييل ـ فإنه استخدام للجن على وجه غير مشروع فيه، ولا مأذون به، وهو اخلال بالفطرة وإفساد في الأرض، ولذا كان كفراً من أكبر الكبائر.

ـ ٧ ـ

التقابل[*]

القرآن موصوف «بالمثاني»، وهو هكذا في مبناه العربي، كما في الجناس والطباق. وفي مضمونه المعنوي في المقابلة، على سبيل التعادل والتماثل، أو على سبيل المخالفة أو التكامل.

ولهذا نجد التكرار لفظاً ومعنى في هذه السورة، وفي معظم السور.

وهذا وجه في معنى المثاني، لأنه يثني الشيء بمثل لفظه، أو بمثل معناه فيكون تكراراً.. أو يثني على سبيل المخالفة للمقابلة بين الأضداد بقصد إظهار الفروق الدقيقة على حد قولهم: وبضدها تتميز الأشياء.

وهذا أيضاً هو أحد الوجوه في معنى «المتشابه» من حيث إن بعضه يشبه بعضاً في ظاهر اللفظ، أو باطن المعنى.

(*) أنظر الموضوع الرابع من الفصل الحادي والعشرين.

والتقابل اللفظي يظهر جمال اللفظ، وحسن العبارة.

أما التقابل المعنوي فيظهر الفروق، لأن المقارنة تجسم المعاني فتجسد الفروق الدقيقة، وتبرز الخصائص العميقة.

وأمثلة التقابل في السورة كثيرة حتى أنه سمة لسورة الرعد، ومن الشواهد في آيات الفصل: ما نجده من مقابلة رسالته برسالة من سبق، ومقابلة الأزواج بالذريات، والأجل بالكتاب، والمحو بالإثبات، والرؤية والتوفي، والبلاغ والحساب.

الفصل الرابع والعشرون

محاجة الكافرين

الآيات ٤١-٤٣

قال تعالى:

أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها، والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. وقد مكر الذين من قبلهم، فلله المكر جميعاً. يعلم ما تكسب كل نفس، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار. ويقول الذين كفروا: لست مرسلاً، قل: كفى بالله شهيداً بيني وبينكم، ومن عنده علم الكتاب.

أولاً
مَباحِث تحليلية

أولم يروا: أي أعموا ولم يروا، إذا كانت الرؤية بصرية على الحقيقة، أو التقدير: أجهلوا ولم يروا إذا كانت علمية على المجاز.

والاستفهام معناه النفي ودخوله على النفي يجعله للتقرير فهم كانوا يرون ولم يكونوا عمياناً ولا جهالاً والضمير لمن تتحقق منه الرؤية من الناس ويراد به الكافرون من أهل مكة ابتداء ويدخل في حكمهم أمثالهم.

أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها: أي نأتي لننقص أطراف الأرض، «ونأتي»: من الإتيان بمعنى المجيء كما في قوله: ﴿ وجاء ربك ﴾[1]. ولازم إتيانه إتيانُ أمره، ونفاذ وعده كما صرح به القرآن في مواضع[2]، والمراد من الأرض عمومها فيدخل في ذلك أية قطعة منها، «والنقص»: خلاف الكمال والتمام، وهو ذهاب بعض الشيء بنقصان جرمها، أو نقصان من عليها من الأحياء والنبات...

وأطراف الأرض: نواحيها ونهاياتها.

و «مِنْ» ابتدائية أي أن النقص يبدأ من الأطراف البعيدة، ولا يمنع أن يستمر إلى نواحيها القريبة.

والله يحكم: الابتداء بالذات العليّة، والالتفات من المتكلم إلى الغائب لتعظيم ذاته، وتعظيم صفته، وهي الحكم...

«والحكم»: هو المنع، ومنه الحكمة في فم الدابة ليتحكم الفارس فيها عند شدها، والمراد هنا مضي قضائه، ونفاذ قدره، وفصله في الأمور.

---

(١) سورة الفجر الآية ٢٢.

لا معقب لحكمه: من العقب مؤخر الشيء، وفي الجلالين: «الذي يتعقب الشيء بالإبطال ومنه قيل لصاحب الحق معقب» [(١)]. والمراد أن أحكامه في التكوين. والتشريع لا يأتيها باطل من بين يديها ولا من خلفها، فهي حق وهي نافذة، حاكمة غير محكومة.

وهو سريع الحساب: أي حسابه عاجل لا يتأخر عن وقته الموعود المحدد، فحسابه آت وكل آت قريب، والسرعة أمر نسبي وفي الفتوحات منسوباً لابن عباس: سريع الانتقام ممن حاسبه للمجازاة بالخير والشر. فمجازاة الكفار بالانتقام منهم، ومجازاة المؤمنين بإيصال الثواب اليهم [(١)].

وقد مكر الذين من قبلهم: قال الجمل: والمكر إيصال المكروه للممكور به خفية من حيث لا يشعر [(٢)].
«الذين من قبلهم» في الزمان مكروا بأنبيائهم كقوم نوح وعاد وثمود وفرعون... كما يمكر بك قومك: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلونك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾ [(٣)].

فلله المكر جميعاً: «اللام» للاختصاص والتملك، و «الـ» في المكر للجنس، ولذا صح وقوع «جميعاً» حالا له.
ونسبة المكر لله من باب المقابلة والمعاقبة، أو من باب أنه خالق المكر.

يعلم: العلم: معرفة الشيء حق معرفته وإدراكه بيقين، وعبر بالمضارع للاستمرار، وفيه وعيد لمن يستمر في مكره.

ما تكسب كل نفس: والكسب كما تقدم هو: العمل أي الفعل القائم على النية، المبني على الإختيار من عمد وقصد. ومدار التكليف عليه، وعبر «بما» للتعميم فيدخل كل كسب من عمل القلب واللسان والجوارح و «كل نفس» أبلغ من النفوس لأن الجمع يتحقق في جملةٍ دون استغراق لكل فرد.

---

(١) الفتوحات الإلهية ٥١١/٢.
(٢) نفس المرجع.
(٣) سورة الأنفال الآية ٣٠.

وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ما أعظم وقع هذا التعبير على نفسي وحسي، بموزونه ومضمونه: (وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أعاذني الله وإياكم من مصير الكفار وفي قراءة سبعية وسيعلم الكافر...[١].

والسين في «سيعلم» تنقل المضارع من الحال إلى الاستقبال القريب بخلاف «سوف»، إشارة لسرعة الحساب، وتعجيل العقاب.

و «الكفر»: هو التغطية والستر وهو هنا الكفر الأكبر في الدين بنقض الإيمان والإسلام. وعقبى الدار: أي العاقبة الحميدة بالزحزحة عن النار والفوز بنعيم الجنة.

و «الدار» هي دار الآخرة. و «عقباها» مآلها وخاتمتها وقد قيدناها بالعاقبة الحميدة الحسنة.

ويحتمل التعميم والإطلاق كما في قوله: ﴿وأن لنا للآخرة والأولى﴾[٢].

وقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾[٣].

ويقول الذين كفروا: يستمرون في قولهم، ولا يرجعون عن غيهم، وهذا مستفاد من التعبير بالمضارع.

والإظهار في مقام الإضمار «ويقولون» للتشهير بهم، والتشنيع عليهم، وإبراز جريمتهم....

ويؤخذ منه الحكم بالكفر على مقولهم، وهو: «لست مرسلاً».

لست مرسلاً: نفي للرسالة وتكذيب للرسول، أي لست مرسلاً من الله، وقد اتهموه بالسحر والشعر والكهانة، ورموه بالكذب والأخذ عن الأعاجم...

وعبر «بمرسل» دون رسول لإرادة قطع الصلة مع المرسِل سبحانه وتعالى، وأنه تقوّله ـــ حاشاه ـــ.

قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم: المقول عظيم فاستأنف، وصدره بلفظ قل.

«قل كفى بالله» أي يكفيني الله، فهو حسبي. والكفاية: الغنية، وتكون بعطية المرغوب والتخليص من المكروب.

---

(١) النشر ١٣٣/٣ قراءة نافع وابن كثير وغيرهما... والفتوحات الإلهية ٥١٢/٢.

(٢) سورة الليل الآية ١٣.

(٣) سورة غافر الآية ١٦.

و «الباء» في بالله داخلة على الفاعل أي كفى الله و «شهيداً» حال، أو تمييز. والمعنى كفت شهادة الله.

و «شهيد» مَنْ شاهد بنظره، وشهِدَ أي حضر بذاته. والمراد هما معاً، ويلزم من ذلك علمه تعالى بما جرى بينهم من خلاف.

وأطنب في قوله: «بيني وبينكم» بدلاً من بيننا للدلالة على عظم الفارق، وعمق الخلاف. وشهادة الله تفصل فتشهد لفريق بالحق، كما تشهد على الآخر بأنه على باطل.

ومن عنده علم الكتاب: قيل هو الله الشاهد بينهم فيكون من عطف الصفة على الموصوف.. وبمعناه ما تقدم «وعنده أم الكتاب» ولكن المتبادر غير هذا: أعني أن يكون العطف للمغايرة، فيكون الكتاب هو التوراة والإنجيل، ومن عندهم علمها هم: اليهود والنصارى.

فهم يشهدون بما في التوراة والإنجيل على صدق ما في القرآن كما قال النجاشي[١] عندما سمع حديث المسيح عليه السلام. ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿فان كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين﴾[٢].

---

(١) سنن أبي داود في الجنائز. وأحمد في مواضع من المسند.

(٢) سورة يونس الآية ٩٤.

ثانياً
مباحث موضوعية

١ ــ المعنى العام.
٢ ــ نقص الأرض.
٣ ــ سريع الحساب.
٤ ــ نسبة المكر لله.
٥ ــ كسب النفس.
٦ ــ محاجة الكافرين.
٧ ــ إنكار الرسالة جهالة وجاهلية.
٨ ــ شهادة أهل الكتاب.

— ١ —

المعنى العام

تقدم الحديث عن الرسل وبشريتهم وهنا بيان لموقف الكافرين ومحاجتهم. «أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحسب، وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً....».

فقدرته سبحانه ظاهرة في إنقاص أطراف الأرض المتباعدة.. وحكمه في القضاء والقدر نافذ لا مرد له.. وحسابه عاجل لا خلف فيه ولا تأخير له.. وسنته في الماضين من الماكرين نازلة فيهم غير متحولة عنهم..

وعلمه محيط بكل نفس في الأرض...

وسيعلم الكفار في الدنيا مصيرهم في الآخرة، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار..

ولقد وصل الكفر بهم إلى قولهم لك لست مرسلاً!! فقل لهم: تكفيني شهادة الله لي بصدقي، وشهادته عليكم بكفركم وكذبكم، كما يشهد لي وعليكم أهل الكتاب كأهل التوراة والإنجيل....

— ٢ —

نقص الأرض

الأرض تنقص بعد زيادة، وتنكمش بعد تمدد. وحديث القرآن متكرر في وصف الأرض في رتقها وفتقها، وقبضها وبسطها، ومدها أو مباركتها...

ونجد لدى مقارنة الصفات تقابلاً بين الرتق والقبض والنقص من جهة، وفي الجهة المقابلة الفتق والمد والبسط والمباركة، وذلك ما نجده في الآيات التالية:

ـ ﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ (١).

ـ ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ﴾ (٢)...

ـ ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (٣).

ـ ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ (٤).

ـ ﴿ وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ﴾ (٥).

ـ ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ﴾ (٦).

ـ ﴿ وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت ﴾ (٧).

وظاهر هذه الآيات يدل على وقوع الامتداد والمباركة والفتق إلى جانب النقص والقبض والرتق..

وآية الانشقاق (وإذا الأرض مدت) تشير إلى امتداد آخر أكبر يقع في اليوم الآخر.

وتوجيه ذلك: أن الأرض تمتد أو تنقبض تبعاً لحاجة الساكنين عليها، السائلين فيها، كما صرح به في فصلت ﴿وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ (٨). أي كافية للسائلين من عمارها الذين يعيشون عليها.

وهناك مظهر واضح في الامتداد والانقباض بسبب الحرارة والبرودة، فمادة

---

(١) سورة الرعد الآية ٤١.

(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠.

(٣) سورة الزمر الآية ٦٧.

(٤) سورة فصلت الآية ١٠.

(٥) سورة الرعد الآية ٣.

(٦) سورة الحجر الآية ١٩.

(٧) سورة الانشقاق الآيتان ٣-٤.

(٨) سورة فصلت الآية ١٠.

الأرض تمتد بالحرارة، وتنكمش بالبرودة.

ومن مظاهر الامتداد في الأرض ارتفاع النبات عليها من البذور الصغيرة، وكثرة الحيوانات من النطف الدقيقة.

وفي مقابل ذلك تهشم النبات، وموت الحيوان، فإنه نقص في الأرض، حيث ينمو من الأرض ويربو عليها ثم يعود كما بدأ.

ـ ٣ ـ

سريع الحساب

سرعة الحساب تعني أنه يقع في فترة زمنية قصيرة غير طويلة، أو أنه يقع قريباً غير بعيد.

وعلى ذلك شواهد قرآنية تدل على قرب الساعة، والحساب إنما يكون فيها أو أن قربها باعتبار أن ما بقي من الحياة أقل مما مضى.

والزمن معقد يصعب فهمه، ولا تزال «نسبية الزمن»[1] مجهولة عند كثير من الناس مع أن القرآن صريح في تعدد الزمن أو اختلافه، فيوم ــ وهو وحدة زمنية ــ يساوي ألف شهر، أو يساوي خمسين ألف سنة...

وعلماء عصرنا يقولون: إن الزمن يختلف من مكان إلى مكان، فهو يطول أو يقصر، بل يقولون: هو كذلك بالنسبة للشخص الواحد فيبطىء في صغره، ويسرع في كبره...

وعلى هذا فلا يمنع أن يطول الحساب على بعض الناس في بعض الأمكنة، وأن يقصر على آخرين فيختلف باختلاف المؤمنين والكافرين.

وقد يصلح ضرب مثل نفسي بإحساس المهموم والسجين، فيشعر بطول الزمن، في مقابل الحر الطليق الذي لا يحس بثقل الزمن ولا بطوله.... والله أعلم.

---

(١) راجع نسبية الزمن عند أينشتاين.

ــ ٤ ــ

نسبة المكر لله

إذا كان هو العمل المتقن فلا شبهة ولا خلاف، وإذا كان المراد منه العمل السيء القائم على الخديعة والاحتيال، فتوجيهه: أن عقاب المكر مكر من باب المقابلة، ومثله: ﴿ إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً ﴾[1].

وكذا ﴿نسوا الله فنسيهم﴾[2]. ﴿اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ [3].

وهذا توجيه حسن لنفي ما لا يليق بجمال الله وجلاله.

ولكن الأصل في إثبات هذه الأفعال أن الله خالقها فيتصف بها، ولا يقال فيه كذا وكذا لأنه غير محكوم بل هو حاكم كما قال في الرعد: ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه﴾.

ــ ٥ ــ

كسب النفس[*]

النفس كاسبة، وكسبها فعل المختار في حدود ما كلفت به من أمر تفعله، ونهي تجتنبه، وهو ما تسأل عنه حساباً، وتجازى عليه ثواباً وعقاباً.

ومرادنا من الاختيار ــ كما كررنا قوله ــ هو عزم النية، وعمد القصد.. وما خرج عن هذا الحد فهو هدر عند الرب، لا يعد في التكليف، ولا يدخل في الحساب والجزاء.

أما حقوق العباد فمضمونة بالمثل، ولو فقد الاختيار بنوم، أو إغماء، أو سهو أو خطأ، ونسيان، أو إكراه...

---

(١) سورة الطارق الآيتان ١٥-١٦.

(٢) سورة التوبة الآية ٦٧.

(٣) سورة الجاثية الآية ٣٤.

(*) أنظر الموضوع الثالث من الفصل العشرين، والموضوع الرابع من الفصل السادس والموضوع العاشر من الفصل الرابع.

ووجه الفرق أن حقوق الله تنقسم إلى ما هو مؤاخذ عليه ويدخل باب العدل، وما هو متجاوز عنه ويدخل باب الفضل..

وفي الحديث «إن الله قد تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه...»[١].

وفي القرآن تصريح ووضوح: ﴿لا يكلف نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا. ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾[٢].

— ٦ —

محاجّة الكافرين

هذه الآيات خاصة، هي ميدان لمجادلة الكافرين ومحاجتهم، والرد عليهم في إنكارهم البعث المفهوم من قوله: ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾.

وكذلك في تكذيبهم بالرسالة كما يدل عليه قوله: ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً﴾.

ومأخذ هذا الموضوع افتتاح الآيات بقوله: (أولم يروا)، (ويقول الذين كفرو..) (وقل كفى...) الخ.

وطريقة القرآن في الجدال والمحاجة هي مخاطبة العقول والحواس والمشاعر، وذلك بعرض الأسماء والصفات، وبيان آثارها في الكون والنفس، في الدنيا والآخرة.

ولهذا كان التركيز على أفعال الرب «كإتيان الأرض والنقص منها»، ﴿يحكم لا معقب لحكمه﴾، ﴿سريع الحساب﴾، ﴿فلله المكر﴾، ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾، ﴿كفى بالله شهيداً...﴾.

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقي وغيرهما وهو الحديث ٣٩ من متن الأربعين النووية ليحيى بن شرف الدين النووي ط دار الكتب الشعبية.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

فقد جعل النفس والكون معرضاً تظهر فيه آثار أفعاله، كالأرض وأطرافها بما يرى رأي العين، ولا يمكن المراء فيه لأنه حجة حسية عقلية... وقل مثل ذلك: كفاية شهادة الله، والاستشهاد بأهل الكتاب المعروفين لديهم، القريبين منهم. وهي شهادة ملزمة لأنها من أهلها على أهلها.

ومن المشاهد الشعورية في هذه المجادلة الترهيبُ في قوله: ﴿وهو سريع الحساب﴾، وقوله: ﴿فلله المكر جميعاً﴾، و﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ و﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾.

ولا يزال موضوع المحاجة أو الجدال في القرآن ينتظر الاستقراء الدقيق، والبحث العميق، لحاجة الدعاة إليه في كل العصور.

— ٧ —

إنكار الرسالة جهالةً وجاهليةً

الموضوع يقوم على قوله: ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً﴾.

والإنكار جهالة لعدم العلم، أما الإنكار جاهلية فبسبب المعاندة والمكابرة.

والجاهلون في الغالب هم العامة، والجاهليون هم القادة أرباب المصالح، الذين يخشون على مكانتهم وسيادتهم.

ولقد شرع الجهاد والغلظة لإزاحة الجاهليين الطغاة والبغاة ثم لنشر الدعوة لتعليم الجاهل، وتذكير الغافل.

ولهذا كانت الدعوة باللين في المقالة....

وبالتي هي أحسن في المجادلة.. وكذلك: «ادفع بالتي هي أحسن» في المعاملة.

— ٨ —

شهادة أهل الكتاب

كتاب الله واحد وإن تعدد نزوله في أزمان متباعدة على أقوام مختلفة، والحق

الذي فيه لا يتعدد ولا يتغير، فالحق لا يؤثر فيه تقادم الأزمان، وتبدل أجناس الناس. ورسالات الأنبياء مجموعة في كتاب واحد، أصلها توحيد الله في ربوبيته المستلزمة لعبادة الخلائق له، ومدخل ذلك تصديق الناس بالرسالات، ومن صدق برسالة فقد صدق بها جميعاً لاتحاد مضمونها، ومن صدق رسولاً فقد صدق المرسلين جميعاً لاشتراكهم في الوسيلة والغاية.

وعلى هذا يشهد الأولون للآخرين: لأنها شهادة في ما أنزله ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب﴾.

وكذلك تشهد أمة محمد وهي آخر الأمم على الرسالات والمرسلين السابقين، كما في قوله: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس﴾ [(١)].

أما الذين لا يشهدون بالحق وهم يعلمون، فهم كافرون كاذبون وهم ليسوا على شيء، بسبب ما غيروه وحرفوه، وبدلوه وعطلوه.

ـ ٩ ـ

أنواع الكفر

مأخذ هذا البحث مواضع كثيرة في السورة، بل مواضع عديدة في آيات لفصل أبرزها: ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾.

والكفر في اللغة معناه: التغطية أو الستر. ويتنوع الكفر تبعاً لوقوع الستر على درجات الدين: من إيمان باطني وحده، وإسلام ظاهري وحده، أو اجتماعهما، أو وقوعه على عمل من أعمال الإيمان والإسلام.

والجملة خمسة أنواع:

الأول: ستر الإيمان الباطني مع إظهار الإسلام وهو كفر النفاق.
الثاني: ستر الإسلام الظاهري مع إبطان الإيمان وهو كفر الظاهر.
الثالث: ستر الإيمان والإسلام معاً بعدم الدخول في الدين وهو الكفر الأصلي.

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣.

الرابع: ستر الإيمان والإسلام معاً بالخروج من الدين وهو الردّة.

الخامس: ستر عمل من أعمال الإيمان أو الإسلام فينقصان به، مع بقاء أصل الإيمان والإسلام من حيث الجملة، وهو كفر العمل. ومعلوم أنّ الإيمان وكذا الإسلام يزيدان بالطاعة وينقصان بالمعصية. ويشهد لهذا النوع عنونة البخاري في صحيحه[١]، بقوله: كفر دون كفر، مشيراً لذلك.

---

(١) صحيح البخاري. باب: كفران العشير، وكفر دون كفر.

الخاتمة

١ ـــ اعتذار عن قصور وتقصير.

٢ ـــ خلاصة تفسير سورة الرعد.

– ١ –

اعتذار عن قصور وتقصير

صعوبة الختم في الانتهاء، كصعوبة الفتح في الابتداء... وهي صعوبة التحير في التخير بين ما يحسن حذفه وإثباته، أو تقديمه وتأخيره...

ولذا ترددت أمام مسك الختام كيف أمسك، وبم أختم سورة الرعد...

وسورة الرعد بحر بعيد القعر، عميق الغور، عالي الموج، فسيح الساحل، مشحون بالكنوز، محشود بالرموز...

وتمنيت لو أنني قمت بجولة مع أعلام المفسرين لجمع الشواهد، والتقاط الفرائد، من النقول والأقاويل، المبثوثة في المصادر القديمة، والمراجع الحديثة...

ولكنني وجدتها من الكثرة والتنوع والتعقيد، بمكان بعيد، لا يصل إليه من قصر في زمن الطلب، وقصَّر في زمن التأليف...

ومع هذا فقد أشغله محاضرات دراسية، وإشراف أو حضور أو مناقشة رسائل علمية.

ولهذا وقع قصور أو تقصير يقف وراء ما يمكن أن يلحظ من ضعف في التأليف، ونقص التركيز في التحقيق والتوثيق... وهو من وراء اعتذاري في المقدمة عن العود والوقوف على المصادر والمراجع... حتى أن ما عدت إليه يكاد لا يذكر، لقلة الاعتماد عليه. وندرة الأخذ منه.

ومواضع الأخذ من المراجع بلغت (١٧٤) موضعاً، موزعة على (٤١) مرجعاً، أكثر من نصفها رجعت إليه مرة أو مرتين، وأكثر ما رجعت إليه (١٨) مرة.

وفهرس المراجع يبين أرقام الصفحات وأسماء المراجع، يستثنى من ذلك رسائلي الثلاث: (تفسير سورة فصلت ومفاهيم وأصول التوحيد)، فالإناء ينضح بما فيه

دون أن يدري عنه صاحبه.

ولم يتحقق لي الحد الأدنى من أمنيتي، وهي أن تكون الخاتمة جولة مع أئمة التفاسير الأربعة التي أنبه عليها، وأوصي بها وهي: ـ جامع البيان للطبري ـ والتفسير الكبير للرازي ـ وكشاف الزمخشري ـ وفي ظلال القرآن لسيد قطب.

ووجه الاهتمام بهذه التفاسير أن كل واحد منها يمثل بذاته اتجاهاً في التفسير، وهي بمجموعها تمثل مدرسة التفسير البيانية والمعنوية، أو المرئية والمروية...

وعلى أية حال فقد ودعت ما استصعبت، واستقبلت ما استسهلت، فتحولت نحو الفذلكة: لاختصار المفصل، أو تلخيص المطول. فكان أن جعلت بعد هذا الاعتذار خلاصة لتفسير السورة.

ولقد خطر لي أن الخلاصة أشبه بالفهرس الموضوعي يتممها الترقيم في فهرس العناوين، حتى أنني وضعتها بين الفهارس ثم نزعتها وجعلتها المبحث الثاني من الخاتمة.

ـ ٢ ـ

خلاصة تفسير سورة الرعد

المقدمة

١ ـ أهمية الموضوع:

لسورة الرعد تأثير كبير في الحس وفي النفس بآياتها المثاني في المباني والمعاني، وعرضها للشواهد الدنيوية والمشاهد الأخروية..

٢ ـ طريقة التفسير:

توزيع آيات السورة الثلاث والأربعين على أربعة وعشرين فصلاً، وبحث كل فصل منها تحت عنوانين: أولها: مباحث تحليلية للمفردات والتراكيب. وهذه المباحث تأخذ من الصفحات ما يعادل في حجمه ربع الكتاب، والثاني: مباحث موضوعية في المعنى العام، والتوفيق بين الآيات التي ظاهرها التعارض، ومناقشة التعارض بينها وبين حقائق العلوم، واستنباط الفوائد في مجال التوجيه والحكمة والأحكام الشرعية.

وقد بلغت هذه المباحث مئة وستين، وتفاوتت في طولها وقصرها، وعمقها وتركيزها، واختلف عددها من فصل لآخر، تبعاً لما يتوافر من بضاعة ويتيسر من جهد وطاقة، وقد تكرر منها عدد قليل بسبب تكرر الموضوع في السورة.

المدخل

ويحتوي على ثمانية مباحث استحسنت التمهيد بها للدخول في تفسير السورة وهي:

١ ــ الحاجة إلى الوحي القرآني لقصور العقل الإنساني:

لأن الإنسان لا يقوم وحده، ولا يكفيه عقله، فالوحي ضرورة لإكمال عقله، وتصحيح مسار فكره.

٢ ــ التفسير وعلوم القرآن:

والتفاسير لا تكاد تحصى عدداً، منها المنقول، ومنها المعقول، وغالبها ممزوج منهما معاً. وعلوم القرآن غير محصورة، وإن كان السيوطي يقدرها بثلاثمائة، ويعدد منها في إتقانه ثمانين.

والتفاسير وعلوم القرآن متداخلة، فرق بينها الاصطلاح.

واتجاهات التفسير وعلوم القرآن تمثل العصور في تقدمها وتخلفها، وفي اهتماماتها الفكرية، وأوضاعها الاجتماعية.

وننتظر استكمال ضوابط التفسير، ووضع القواعد العلمية المنهجية له، للاقتصار على المفيد من الجديد، وغربلة القديم من المعقولات والمنقولات.

٣ ــ جمع القرآن ورسمه وترتيبه:

جُمع القرآن الكريم في عهد الرسول ﷺ، حفظاً في الصدور ورسماً في السطور على ما تيسر من رقاع وعظام وحجارة وأقتاب.

وجَمْعُ أبي بكر هو توحيد المكتوب عليه، وضمه بين دفتي مصحف واحد.

وجَمْعُ عثمان هو نسخ عدد من المصاحف لحاجة الأمصار إليها.

ورَسْمُ المصحف أوجبه الأكثرون، وقال آخرون بوجوب تغييره، والأصل مراعاة المصلحة. أما ترتيب الآيات في السورة، وترتيب السور في المصحف، فهو على وفق ترتيب التلاوة.

٤ ــ تعريف القرآن والسورة والآية:

القرآن: آخر كتب الله، المنزل بواسطة جبريل، على آخر الرسل، بلسان العرب، لهداية الناس.

والآية: جملة من الحروف القرآنية مختومة بفاصلة.

والسورة: جملة آيات قرآنية مفصولة ببسملة.

٥ ــ تاريخ النزول ــ المكي والمدني:

المكي: ما نزل قبل الهجرة من مكة، والمدني: ما نزل بعد الهجرة إلى المدينة.

وسورة الرعد قد اختلف فيها. ووصل الخلاف إلى درجة الحكم بمكيتها، وبمدنيتها، وبمكيتها مع اشتمال المدني، وبعكسه: أي بمدنيتها مع اشتمال المكي...

ولكن الضوابط، أو الخصائص الموضوعة للتمييز، تميل بنا إلى القول بمكية السورة...

٦ ــ تسمية سورة الرعد، وبيان فضلها:

ورد التصريح باسم الرعد في الآية الثالثة عشرة: ﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ ومما ورد في فضائل السورة ــ والغالب في أحاديث الفضائل الضعف والوضع ــ أن قراءتها تسهل خروج روح المحتضر، وأن له من الأجر عشر حسنات بعدد كل سحاب، وأنه يشفع في جميع من يعرفه يوم القيامة.

٧ ــ بيان في العدد:

عدد الآيات (٤٣). وعدد الكلمات (٨٥٥). وعدد الحروف (٣٥٠٧). والعدد مختلف فيه بسبب الاختلاف في الوقوف والأحرف، والرسم والقراءات، وبعض الخلاف سببه التساهل، وقلة الضبط.

٨ ــ الاستعاذة والبسملة:

هما قولة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وقولة: بسم الله الرحمن الرحيم واختلف في قرآنية البسملة التي تفصل بين السور.

التفسير

ويحوي مباحث تحليلية وموضوعية حول آيات السورة في أربعة وعشرين فصلاً. وسنقتصر في خلاصتنا على المباحث الموضوعية، مع الاكتفاء بالاشارة للمباحث التحليلية.

الفصل الأول: آيات من التنزيل (الآية ١). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: فاتحة الرعد وخاتمة يوسف في آيات التنزيل وموقف الناس منها...

٢ ــ الفواتح القرآنية بالحروف الهجائية: ألمر: حروف افتتحت بها سورة الرعد، وفي القرآن تسع وعشرون سورة افتتحت بالحروف، من فسرها نقلاً أو عقلاً لم يصح دليله، ولم تقم حجته. والأسلم الأحكم التفويض، والله أعلم.

٣ ــ آيات الكتاب في التشريع والتكوين: الآيات تساق في كتاب الله لتكون دلائل الحق، وشواهد الصدق. وآيات التشريع معروضة في خطاب الأمر والحظر، وأما آيات التكوين فظاهرة في آفاق السموات، ونواحي الأرض، وخصائص الأنفس فرداً ومجتمعات.

٤ ــ الكتاب المنزل ومسألة الخلق والقدم: وصف الكتاب بالنزول كما وصف بأسماء أخرى تصل إلى خمسين بل تصل إلى مئة وتزيد، ليس من بينها المخلوق أو القديم.

٥ ــ الحق المطلق والحق النسبي: الحق المطلق واحد لا يتعدد، وهو في الأصول المعلومة بالضرورة، أما الحق النسبي في الفروع، وهو يتعدد بتعدد ما ينسب إليه من أشخاص وأزمنة وأمكنة.

٦ ــ القلة والكثرة في ميزان الإيمان: الأكثرية كارهة للحق، والذين يحبون الحق هم قلة صابرة شاكرة، والعبرة ليست للعدد.

الفصل الثاني: آيات في السموات (الآية ٢). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: صدر السورة كان في آيات التنزيل أتبعه هنا بآيات التكوين، فالموضوع متحد وهو الآيات.

٢ ــ أسماء الله وصفاته: في الآية عدد من الأسماء والصفات سيقت للتعريف بالله. ومعرفة الله محور القرآن كله.

٣ ــ ماهية السموات: تشير آيات القرآن إلى بعد النجوم كما تشير إلى قرب السموات المدركة بالنظر والفكر، فالقول بأنها النجوم أو أن النجوم دونها مشكل.

٤ ــ وجود العمد وعدمها: قوله: ﴿بغير عمد ترونها﴾ دليل على وجود العمد مع انتفاء الرؤية البصرية. والكون يحمل بعضه بعضاً: جذباً ودفعاً، ولا فراغ

فيه، بل هو مملوء بالمادة التي لا ترى بسبب تمددها وخفتها.

٥ ــ الاستواء المعلوم: استوى معلوم في اللغة، بمعنى: استقر وصعد وارتفع وعلا واستولى، وأقربها الاستعلاء، وأبعدها الاستيلاء. واستواء الله على العرش يعني استواءه على ما دونه من مخلوقات في الأرض والسموات.

٦ ــ خضوع الكون: الكون «مبرمج» كله خاضع طائع ظاهره وباطنه...

الفصل الثالث: آيات في الأرض (الآيتان ٣-٤). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: الحديث في الآيات الكونية: أولاً في آيات السماء ثم في آيات الأرض العقلية والفكرية..

٢ ــ المد والقبض: المادة تمتد فتكبر وتتسع، وكذلك تنقبض فتتقلص وتصغر، والسبب هو تباعد جزئيات المادة أو تقاربها. وقد مدت الأرض عند خلقها، وستمد أكثر في اليوم الآخر.

٣ ــ المد والتكوير والدوران: المد لا يكون بالبعدين وحدهما، وإنما بالأبعاد الثلاثة «الطول والعرض والارتفاع». وتمام المد بالتكوير، وقد انعقد إجماع على كروية السماء فلزم عنه كروية الأرض.

٤ ــ ماهية الرواسي: الجبال أوتاد تحتاج إلى الرواسي الملقاة من فوق الأرض إلى باطنها، وينطبق ذلك على نظام الجاذبية.

٥ ــ الزوجية في الخلق: الزوجية ظاهرة كونية في الإنسان والحيوان والنبات والجمادات. والتجاذب الزوجي يؤدي إلى التناسل والتكاثر، كما أن التقابل بين الأزواج يظهر ما بينها من فروق.

٦ ــ الترتيب الذكري والوقوعي: الترتيب المذكور بين الأعناب ثم الزرع ثم النخيل هو مناسب للوقوع، حيث تتوسط الأعناب الضعيفة، ويتطرف النخيل المنيع، وبينهما ما تقل أهميته، ولا يحتاج إلى كبير رعاية.

٧ ــ أسلوب التقديم والتأخير، والذكر والحذف، والإظهار والإضمار: هذا الأسلوب ــ وأمثلته كثيرة ــ أصل في تفاوت الكلام، وهو مبنى التفسير بالرأي.

٨ ــ مناسبة الختم بـ«يتفكرون»، و«يعقلون»: الختم بـ«يتفكرون» لأن الآيات المعروضة تحتاج إلى اجتهاد وتدبر وإعمال فكر. والختم بـ«يعقلون» لأن الآيات المحسوسة لا تحتاج لأكثر من وجود العقل، الذي يميز الإنسان عن الحيوان.

الفصل الرابع: موقف الكافرين (الآيات ٥-٧). أولاً: مباحث تحليلية: ...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: بعد ذكر الآيات التنزيلية والتكوينية ناسب أن يذكر مواقف الكافرين من هذه الآيات، الدالة على إثبات الرسالة الداعية إلى تصديق الرسول.

٢ ــ قراءات قرآنية في «أئذا» و«أئنا»: والقراءات منسوبة لأئمة القراء، كالقراءات الست والسبع والعشر والأربع عشرة، وهي تعود إلى اختيارات هؤلاء الأئمة من الأحرف السبعة، والأصل في قرآنية القراءة صحة السند.

٣ ــ الخلود الأبدي والأمدي: الجمهور على أن الخلود في الجنة والنار أبدي، ويرى الجهمية فناءهما وفناء أهلهما، وبعض أهل السنة يرى فناء النار وحدها دون الجنة.

٤ ــ لم أنكروا الخلق الجديد؟: الدهريون الملحدون قديماً وحديثاً، يرون استحالة الخلق الأخروي بعد الموت الدنيوي، ومنهم من ينكر الخالق أيضاً.

٥ ــ المفاضلة في العجب: التعجب يكون مما خفي سببه، والله لا يعزب عن علمه، ولا يخرج عن سلطانه شيء، فلا يصيبه العجب، ولا يلحقه النصب، بخلاف العباد. وما ينسب للرب من عجب ونحوه فهو كمال يناسبه تعالى.

٦ ــ الاستهزاء للاستخفاف: الاستخفاف سلاح يستعمله المستكبرون لاستعباد المستضعفين.

٧ ــ المعجزات من جنس ما يعلمون أو يجهلون، والإعجاز القرآني المتعلق بالبيان هو الوجه المختار عند الجمهور، ولو سلم ذلك لكان من جنس ما يعلمون، وهناك معجزات أخرى كمعجزات عيسى في إحياء الموتى وإبراء المرضى، ولم

يكن ذلك معروفاً في بني إسرائيل.

٨ ــ الحسنة والسيئة عقلاً وشرعاً: العقل والشرع متفقان في الأصل، لأن خالق الفطرة العقلية ومنزل الشريعة النقلية واحد، والشرع معصوم بخلاف العقل المعرض للخطأ بسبب العجز وقصور الحواس. ولذلك يقدم ما حسنه الشرع على ما حسنه العقل عند التعارض.

٩ ــ ويستعجلونك: العجلة مذمومة لقيامها على التشهي والتمني، والإنسان مطالب بالصبر والحكمة في تعامله مع نظام الأسباب والمسببات، ضمن حدود المكان، وقيود الزمان.

١٠ ــ أنواع الهداية: تنسب الهداية لله ولكتبه ولرسله ولعباده باعتبار المعنى اللغوي، وهو الدلالة العامة، وهي تنفى عن غير الله إذا أريد بها التوفيق والتخليق.. وأفعال العباد كلها من هذا القبيل.

١١ ــ لماذا لم يكتفوا بآية القرآن؟: هم يطلبون آيات خارقة للحواس، فلا يكتفون بالآيات العقلية. أو لأنهم كانوا يجهلون وجه الإعجاز في القرآن.

الفصل الخامس: علم الله (الآيات ٨-١٠). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: الحديث في صدر السورة كان حول صفات القدرة وهنا صفة العلم.

٢ ــ صفات الله: حديث القرآن تعريف بالله بشرح أسمائه وصفاته وأفعاله، والواجب نحو الأسماء إثبات ذواتها، وإثبات صفاتها، وإثبات آثارها.

٣ ــ نوع الجنين: الجنين محجوب بالظلمات، ويمكن رؤيته بشق البطن أو بالأشعة، أو بتحليل الآثار، ويتميز علم الله بأنه محيط بكل جنين، وعام لكل الأجنة.

٤ ــ مدة الحمل: أقلها ستة أشهر، وروي أن أكثرها عشرة أعوام، والمختصون في زماننا ينكرون ما زاد على تسعة أشهر، فيكون ما زاد حالات خاصة.

٥ ــ الغيب والشهادة: الغيب محجوب بالزمن الماضي أو المستقبل، أو مفصول بحاجز كثيف، بخلاف عالم الشهادة المدرك بالحواس المعروفة، ويمتاز المؤمنون بالغيب باطمئنانهم بخلاف الكافرين.

٦ ــ الفذلكة: إجمال ما تقدم تفصيله واختصاره، ومأخذه قوله «عالم الغيب والشهادة»، فهو فذلكة للعلم بالحمل الفائض، والزائد، والعلم بالمقادير.

٧ ــ وكل شيء عنده بمقدار: القدر يعني التوكل على الله، كما يعني الالتزام بسنن الشريعة وأسباب التكوين وبنسبية الزمن والموازين. ــ إلا ما شاء الله نسخه ومحوه أو تبديله ــ فهو تعالى فعال لما يريد.

الفصل السادس: ولاية الله (الآية ١١). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: تقدم الحديث في صفة العلم بعد صفات القدرة وهنا صفة الإرادة والولاية والأمر...

٢ ــ المعقبات: لله جنوده ينفذون أمره، كالملائكة الذين يتعقبون المكلفين بالحماية والرقابة. ومن أحس بالحماية اطمأن، ومن أحس بالمراقبة استحيا.

٣ ــ سنة التغير: التغير من حال لحال هو عدل من الله في التكوين والتقدير، والجماعات البشرية التي سادت وبادت كانت محكومة بسنن عادلة لم تخطيء ولن تخطيء.

٤ ــ الولاية: الولاية التأييد والنصرة، وهي من أعظم خصائص الربوبية، وحاجة الخلائق إليها من ألزم خصائص العبودية، وأولياء الله سعداء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

٥ ــ إرادة الله: الإرادة معناها المشيئة، وأثرها أفعال القدرة وهو تعالى فعال لما يريد، حكيم في كل ما يفعل ويترك.

الفصل السابع: آيات في السحاب (الآيتان ١٢-١٣). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: بعد أن ذكر صفات القدرة ساق الأدلة عليها: كالسحاب الممطر وما يرافقه من ظواهر البرق والرعد والصاعقة.

٢ ــ سبب النزول: نزلت صاعقة برجل قال: وما الله، أمن ذهب هو أم من

فضة أم من نحاس؟ وكذلك نزلت صاعقة بأربد بن قيس، لمحاولته قتل الرسول.

٣ ــ آيات في السحب: لتكوين السحب والمطر والبرق والرعد والصاعقة أسباب ظاهرة وليس يمنع أن يكون وراءها أسباب خفية غير محسوسة كالملائكة التي تباشر تكوين هذه الظواهر.

٤ ــ تسبيح الرعد: الرعد يسبح كما تسبح كافة الخلائق تسبيحاً حقيقياً غير مجازي. والمجاز لا يكون إلا فيما عرفت حقيقته، وعرف أن هذه الحقيقة غير مقصودة.

٥ ــ الخوف والطمع: ظاهرتان متقابلتان في فطرة الإنسان، والنفس الصالحة تعتدل بينهما. وطغيان الخوف يوقع في اليأس، كما أن طغيان الطمع يدفع للجراءة وترك العمل.

٦ ــ الجدل والجدال: غلب استعمال الأول في المذموم والآخر في المحمود.

٧ ــ الإظهار والإضمار: إظهار لفظ الجلالة أو إضماره منوط بالحكمة في التعبير حسب السياق المعنوي، والبلاغة البيانية ويلحظ أن الإظهار هو في الأصول، والإضمار يكون في الفروع.

الفصل الثامن: الدعاء والسجود (الآيتان ١٤-١٥). أولاً: مباحث تحليلية: ...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: تقدم التعريف بالرب في سياق مجادلة الكافرين، والآيتان هنا في ذات الغرض والموضوع

٢ ــ الدعاء والعبادة: الدعاء أخص مقامات العبودية لإظهار عظمة الربوبية.

٣ ــ الأمثال القرآنية: الأمثال حوادث مشهورة في قصص قصيرة، يقاس عليها وقائع مجهولة بغرض التوضيح والتعليم، أو الترغيب والترهيب.

٤ ــ سجود الكون طوعاً وكرهاً: الكون كله ــ بأحيائه وجماده، وجليه وخفيه ــ ساجد لله. والمكلفون من الإنس والجن يسجدون طائعين ولو وقع الكره منهم بسبب مشقات التكليف.

٥ ــ التشابه والمثاني في القرآن: في الآيتين مقابلات بين دعوة الحق ودعاء الضلال، والسموات والأرض، وطوعاً وكرهاً، والغدو والآصال. والقرآن متشابه: لأن بعضه يشبه بعضاً، وهو مثانٍ: يثنى فيه الشيء على ما يقابله: يخالفه، أويكمله، أو يماثله في حالات التكرار.

٦ ــ سجدة التلاوة: موضع السجود قوله: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾، وفي القرآن قرابة خمسة عشر موضعاً يشرع سجود التلاوة عندها، على خلاف في الوجوب والسنية والفضيلة بالنسبة لحكمها.

الفصل التاسع: الربوبية في الخلق والولاية (الآية ١٦). أولاً: مباحث تحليلية: ...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: في الآية خمسة أقوال في الربوبية، وهذا الحديث يتسق مع ما تقدم من صفات الله وخضوع الكون له.

٢ ــ الولاية بالحق وبالباطل: الموالاة والولاء: التأييد والنصرة، وهي بحق إذا كانت لله وللرسول وللمؤمنين، وولاية الباطل تكون لشياطين الإنس والجن.

٣ ــ عقيدة الكفار في الربوبية والإلهية: كفار مكة مشركو قريش عبدوا الملائكة وجعلوهم بنات الله، وثلثت النصرانية، وثنت اليهودية والمجوسية، وعدد اليونانيون ظواهر كونية كثيرة، وهؤلاء جميعاً اتخذوا آلهتهم المعبودة أرباباً مع الله أو من دون الله.

٤ ــ التقديم والتأخير: أنزل القرآن على أسلوب العرب في البلاغة والبيان، ومن ذلك التقديم والتأخير بين السموات الأرض، والولاية الحق والولاية الباطلة، والنفع والضر. والأعمى والبصير، والظلمات والنور. وغالباً ما يكون التقديم للتعظيم، والتأخير للتشويق.

٥ ــ الجمع والإفراد: أمثلته مذكورة في الموضوع السابق. والقرآن كلام حكيم يوضع فيه كل لفظ في موضعه المناسب له، بحيث لا يصلح أن يقوم غيره مقامه في أداء المعنى، وحسن العبارة.

٦ ــ دلالات قل في القرآن: تكررت قل في الآية لتعظيم المقولات، وتعليم المخاطب، وتسليته، وتفريغ ذهنه، ونقل الخصومة لمواجهة الرب، والتدليل على أن القرآن كلام الله.

٧ ــ القدرية وأفعال العباد: القدرية نفاة لبعض معاني القدر، ويقولون: إن العبد يخلق فعله، فكأنهم يجعلونه شريكاً للخالق. ويقولون: إن الله يبدو له فيعلم، فكأنهم يجعلونه جاهلاً كالعبد.

الفصل العاشر: مثل الحق والباطل (الآية ١٧). أولاً: مباحث تحليلية: . . .

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: حول التمثيل بمثلين للحق والباطل في زبد الماء ووسخ المعدن . . .

٢ ــ المياه النازلة مخزونة وسائلة: من حكمة الله أن رفع البخار فجعله سحاباً دفعه إلى حيث يريد تحويله إلى مطر يملأ به الأودية السائلة، أو يتسرب إلى أجواف الأرض مخزوناً لحين الحاجة.

٣ ــ المعادن المذابة متاعاً وحلية: تختلف خصائص المعادن ــ ومعظمها شديد الصلابة ــ وبعد إذابتها تتشكل حسب الطلب في صبها وطرقها، لتكون حلية وآنية وسلاحاً.

٤ ــ الأمثال في التعليم والتربية: والتمثيل يعني نقل تأثير المثل المضروب به في المدح والقدح إلى الممثل له. (تقدم موضوع ٣ فصل ٨).

٥ ــ التفسير الإشاري: حتى القرطبي لم يسلم من الإشارات، كقوله: القلوب أودية، والمحكم صاف، والمتشابه زبد. وليس في التفسير الإشاري محمود، لأنه بديل رديء للتفسير المنشود.

الفصل الحادي عشر: العمل والجزاء (الآية ١٨). أولاً: مباحث تحليلية: . . .

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: بعد قوله: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ شرع في ذكر من

ضربت فيهم الأمثال. وهم المستجيبون وغيرهم.

٢ ــ الجزاء الوفاق من جنس العمل: جزاء الله في الثواب والعقاب موافق للعمل في الخير والشر، والأصل فيه نفاذ الوعد والوعيد.

٣ ــ الحساب بين العرض والمناقشة: من نوقش الحساب عذب، أما العرض فهو الإخبار والتقرير بعد الستر عليه في الدنيا، والمغفرة له في الآخرة.

٤ ــ أسلوب القرآن في البيان: (تقدم موضوع ٧ فصل ٧، وموضوع ٤، ٥ فصل ٩).

٥ ــ دعوى العجمة: قالوا: لفظ جهنم فارسي، وهو لا يصح إلا باعتبار أصله، أما في واقع الحال والاستعمال فعربي مبين.

الفصل الثاني عشر: تذكر أولي الألباب (الآية ١٩). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: بعد تعداد أسماء الرب وصفاته، ناسب أن يذكر الذين يذكرون ربهم.

٢ ــ هل التمثيل بالأعمى لتحقير الممثل به: التحقير هو للممثل له لأنه خرج عن وظيفته ومرتبته.

٣ ــ أعمى البصر والبصيرة: العين آلة موصلة إلى العلم فهي بصيرة، فإذا لم تحقق غرضها كان وجودها كعدمها.

٤ ــ الإنزال بحق وبباطل: إنزال الوحي من الله على الأنبياء المرسلين هو بحق، أما وحي الشياطين لأوليائهم الضالين المضلين فهو بباطل.

٥ ــ الإشادة بالعقل وأهله: الحض على التعقل والتفكر والتدبر من خصوصيات هذا الدين بخلاف الأديان الباطلة التي تؤخذ بطريق التلقين والتقليد.

الفصل الثالث عشر: صفات أولي الألباب (الآيات ٢٠-٢٢). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: تقدم الحديث عن أولي الألباب مع صفة التذكر وهنا تسع

صفات أخرى لهم.

٢ ــ العهد والميثاق: الميثاق: عهد مؤكد، والمراد ما يدخل في هذين اللفظين من تكاليف.

٣ ــ صلة المأمور: هذا تابع لما تقدمه، ويتوسع فيه ليدخل الإحسان في كل شيء.

٤ ــ الخوف والخشية: هذا جانب الوعيد، في مقابلة الرجاء وهو جانب الوعد، والنفس الصالحة تستوي على الطريق المستقيم لتعتدل بينهما.

٥ ــ الصبر الجميل: خلق الإنسان عجولاً، وكلف بالصبر ودفع العجلة. ويكون الصبر جميلاً إذا كان الصابر راجياً مختاراً.

٦ ــ درء السيئة بالحسنة: هذا باب الإحسان في المعاملة ــ والدين المعاملة ــ وتنمية الحسنة وتربية الفضيلة يضعف السيئة والرذيلة..

٧ ــ الاخلاص في العمل: الاخلاص أصل الأعمال قبولاً ورداً، حتى النية لا بدّ لها من توافر الإخلاص فيها، وكثير من الناس لا يفرقون بينهما.

٨ ــ الصلاة والإنفاق: رفيقان كثيراً ما يتلازمان في القرآن، أولهما عبادة بدنية، والآخر مالية، ولهما آثارهما الكبيرة في نفسية الفرد، وعلاقات المجتمع.

الفصل الرابع عشر: ثواب أولي الألباب (الآيتان ٢٣-٢٤). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: بعد تعداد الصفات العشر وهي أعمال لأولي الألباب ناسب أن يذكر جزاءهم بدخول الجنة، وسلام الملائكة...

٢ ــ نعم عقبى الدار: عقبى الدار جنة نعيمها عظيم، وأبوابها ثمانية، وأسماؤها كثيرة، والخلود فيها أبدي.

٣ ــ اجتماع الأمثال والأسباب والأنساب: الإنسان كائن اجتماعي أليف تجمعه أشكاله من الأمثال، وأزواجه من الأسباب، وأصلابه من الأنساب، وهذا في الاجتماع الدنيوي، أما اجتماع الآخرة فيكون على أعمال الخير، وأعمال الشر.

٤ ــ السلام تحية الإسلام: تحية المسلمين رمز السلام لتحرير الإنسان من تسلط الطغاة، كي يعيشوا أحراراً في فكرهم، مختارين في مشيئتهم.

٥ ــ الملائكة في ذواتهم وصفاتهم: الملائكة من الجن لاستتارهم جميعاً، وقد اتخذهم تعالى مرسلين، كما اتخذ من الإنس المرسلين، وفي القرآن بيان لكثير من أحوالهم ووظائفهم.

الفصل الخامس عشر: الملعونون (الآية ٢٥). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: بعدما ذكر صفات أولي الألباب وبين جزاءهم ناسب أن يذكر من يقابلهم ويخالفهم.

٢ ــ المفسدون في الأرض: السنن ثابتة تسير عليها حياة الإنسان على الأرض. ولقد طغى الإنسان في عصرنا فغير من معالم الأرض، وبدل من ملامح الإنسان، ومن طبائعه وغرائزه.

٣ ــ الملعونون: هم إبليس وأتباعه من الجن والإنس، ممن يتصفون بصفات ملعونة يكرهها الله، ويجتنبها أولو الألباب.

٤ ــ سوء الدار: هو من صفات العذاب الأخروي كجهنم وسعير وسقر.. وهذه الصفات أسماء للتعريف والتهويل.

الفصل السادس عشر: مشيئة الله (الآيتان ٢٦-٢٧). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: تقدم الكلام عن جزاء أولي الألباب ومخالفيهم، وهنا سبب جزائهم، وهو مشيئة الرب النافذة في الأقوات، الماضية في الهداية والضلالة.

٢ ــ بسط الرزق وقدره: الرزق مخزون في الأرض خارج، ومقدر في السموات نازل، والله سبحانه يوسع ويضيق لابتلاء عباده بالصبر والشكر.

٣ ــ الدنيا متاع: الأطعمة والأشربة والألبسة والنساء والمساكن متاع ينقلب ويتحول ويزول...

٤ ــ الهداية توفيق ودلالة: (تقدم في موضوع ١٠ فصل ٤).
٥ ــ الإنابة: هي التوبة إلى الله بالرجوع عن المعصية والدخول في الطاعة بشروطها وآدابها. وهي عبادة تذهب السيئات، وترفع الدرجات.

الفصل السابع عشر. ذكر الله. (الآيتان ٢٨-٢٩). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: أجمل في نهاية الآية السابقة هداية المنيبين وشرع هنا في تفصيل أعمالهم وجزائهم.
٢ ــ اطمئنان القلب: القلب يصيبه الوجل عند الخوف، ثم يستقر على الاطمئنان في الرجاء.
٣ ــ الذكر: القلب واللسان إن لم ينشغلا بالذكر، اشغلهما الشيطان بالشر.
٤ ــ طوبى اسم شجرة: في لغة الهند أو الحبشة، ومن قال بهذا عليه أن يكون عالماً بهاتين اللغتين، ومع تسليمنا فهي عربية في لغة العرب، وهندية أو حبشية في تلك اللغتين.
٥ ــ الجمع في العمل بين الظاهر والباطن: كثيراً ما يقترن العمل الباطني وهو الإيمان، بالعمل الظاهري وهو الإسلام، وأحدهما يلازم الآخر ويكمله.

الفصل الثامن عشر: تلاوة الوحي (الآية ٣٠). أولاً: مباحث تحليلية...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: أرسلناك يا محمد إلى أمة من الناس، كما أرسلنا المتقدمين من المرسلين إلى أممهم.
٢ ــ سبب نزول: روي أن الآية نزلت في كتابة صلح الحديبية، أو لقول أبي جهل: أشرك محمد.... ومثل هذه الروايات تصلح مناسبات للتفسير، لا أسباباً يتوقف عليها النزول.
٣ ــ الرسالة رحمة من الله. كما أن الرسالة ضرورة فإنها رحمة بالإنسان لصلاح

حياته وراحة باله ونجاته في آخرته ــ (تقدم في الموضوع ١ المدخل).
٤ ــ الرحمن وصيغة مبالغة: وجه المبالغة هو استعمال صيغة فعلان في الكثرة والامتلاء. وعدم عد الرحمن بين صيغة المبالغة يعد من القصور في التقعيد.
٥ ــ أمة الدعوة والإجابة: أمة الدعوة من وجهت الدعوة إليها، ومن استجاب منها كان أمة الإجابة، والدعوة مرتبة بدءاً بالنفس، فالأهل، فالعشيرة، فالقوم، فعامة الناس.
٦ ــ تلاوة القرآن: أنزل القرآن للدعوة به وتلاوته على الناس، فيجتنب كل ما يعطل ذلك من المظاهر.
٧ ــ أنواع الوحي: يكون الوحي إلهاماً في النفس، أو بواسطة الملك، أو من وراء حجاب، وهناك وحي باطل مصدره الشياطين «كما في ولاية الباطل».
٨ ــ كلمة التوحيد: هذه الكلمة تجمع الدين كله ولها سبعة وعشرون أصلاً في رسالة، «أصول التوحيد في القرآن».
٩ ــ التوكل والتواكل: التوكل جانب التفويض في باب القدر، والجانب الآخر هو الأخذ بنظام الأسباب والعلل، ومن عطل ذلك كان متواكلاً.

الفصل التاسع عشر: هداية القرآن (الآيتان ٣١-٣٢). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: هذا الفصل والذي يسبقه يشتركان في موضوع واحد هو الرسالة، ومن أرسلها، ومن أرسل بها.
٢ ــ كتاب الله قرآن: كتب الله وصفت بصفات كثيرة استعملت اسماء، ومن ذلك تسمية «قرآن»، وقد سمي الزبور بقرآن داود.
٣ ــ سبب نزول: ساق المفسرون روايات حول مطالبة أهل مكة بالخوارق وكأنهم لم يروا في القرآن ذاته معجزة خارقة.
٤ ــ الكاتب الناعس: وردت روايات عن ابن عباس: أن الكاتب نعس فأخطأ في كتابة: «أفلم ييأس»، ومثل هذا يفتح باب الطعن في نقل القرآن.

٥ ــ المشيئة والقدرية: أدلّة عقلية ونقلية تشهد على عموم مشيئة الرب وعلوها على مشيئة العبد، والقدرية يرجحون جانب العبد فيقدمون مشيئته، ويجعلونه خالقاً لفعله (تقدم في موضوع ٧ فصل ٩).

٦ ــ القرآن وخرق السنن: القرآن أنزل لهداية الناس كبقية الكتب، وهذه الكتب لم تنزل لتخرق السنن بل لتبيين حقيقتها، وإحسانِ التعامل معها.

٧ ــ لا يخلف الميعاد: الله لا يخلف الميعاد في وعده ولا في وعيده، وجمهور من الناس اجازوا خلف الوعيد، بل عدوه فضيلة.

٨ ــ سلاح الاستهزاء والاستخفاف: والطغاة يستعملون هذا السلاح للاستخفاف بالعامة، واستضعافهم واستعبادهم.

٩ ــ الإمهال لا الإهمال: الله يمهل ولا يهمل، فهو يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، والعاقل لا يغتر بدار الغرور، بل يتعظ بنفسه ويعتبر بغيره.

الفصل العشرون: القوامة على النفوس (الآيتان ٣٣-٣٤). أولاً: مباحث تحليلية: ...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: الحديث في تفصيل ما أجمله من قبل في مناقشة الكافرين حول صفات الرب سبحانه.

٢ ــ القوامة: الإنسان لا يقوم بنفسه بل هو كغيره من الخلائق التي تقوم بربها في وجودها وبقائها، وجوهرها وعرضها.

٣ ــ الكسب والهداية: الكسب يرادف العمل، وهو أخص من الفعل، لأنه الفعل المبني على القصد. والهداية كغيرها هي فعل للعبد تسبباً وكسباً، وللرب خلقاً [illegible]يراً، (تقدم في موضوع ١٠ فصل ٤ وموضوع ٤ فصل ١٦).

٤ ــ الجمع بين عقوبتين ومثوبتين: الأصل في الثواب أن يكون أخروياً وقد يضاعف فيعجل بعضه في الدنيا تكرماً من الله وتفضلاً، وكذلك يضاعف العقاب فيقع في الدنيا والآخرة.

٥ ــ ظاهر القول وباطن النية: الظاهر مدرك بالحواس كالقول المسموع بالأذن،

أما الباطن فستور في الصدور. والفطرة والشريعة توجبان الموافقة بين الظاهر والباطن، إلا حال التقاة في الضرورة.

٦ ــ التزيين والتقبيح: خلق الله الأشياء على الفطرة واختلف نظر الناس إليها وحكمهم عليها تبعاً لتزيينهم أو تقبيحهم لها.

٧ ــ السبيل الموحد: توحيد السبيل في الحق والخير لوحدة المصدر سبحانه وتعالى. أما الشر أو الباطل فمصادره مختلفة، وأنواعه كثيرة، فجمع.

٨ ــ النفس وعلاقتها بالروح والبدن: البدن مجموعة أجهزة مخلوقة من تراب وماء.
والروح مخلوق علوي دخل البدن فحركه وجعله حياً.
أما النفس فهي العنصر المكلف المسلط على البدن الحي.

٩ ــ المسئولية الدنيوية والأخروية: المسئولية من الأحكام المنزلة في كتاب الله، المقررة في فطرة العقل، وهي ضرورية لتصفية الحقوق، وبخاصة في اليوم الآخر.

١٠ ــ القياس: القياس هنا بين الله القائم على كل شيء، وبين المعبودات الباطلة العاجزة، وفي المقايسة دلالة على مشروعية أصل القياس في الأحكام الفطرية.

١١ ــ الغلظة واللين: لسورة الرعد من اسمها نصيب في التشديد، وذلك ظاهر في هاتين الآيتين بكثرة الإضراب والانتقال، والتهديد والإنكار.

الفصل الحادي والعشرون: مثل الجنة (الآية ٣٥). أولاً: مباحث تحليلية: ...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: بعد معرفة الرب ناسب الترغيب في الطاعة، والسعي لجنة ذات أنهار وأكل وظلال.

٢ ــ أسلوب الحذف والزيادة: في القرآن كثير من المحاذيف، والحذف يعد من الحقيقة ان لم يحتمل إلا وجهاً واحداً فإن احتمل وجوها احتمل المجاز.
أما الزيادة فقد ذكروا أن لفظ «مثل» في قوله: «مثل الجنة» زائد!

٣ ــ مثل الجنة: الجنة موصوفة بصفات كثيرة للترغيب في نعيمها من المطاعم

والمساكن والملابس وفوق ذلك مزيد في رؤية الرب الكريم، الجميل الجليل.

٤ ــ التقابل بين الإجمال والتفصيل: في هذه الآية إجمال لحال ومآل الكافرين، في مقابل التفصيل عن المتقين ووصف جنتهم، وفي مواضع أخرى من القرآن بعكس هذا حسب سياق الترغيب والترهيب.

الفصل الثاني والعشرون: الكتاب المنزل (الآية ٣٧). أولاً: مباحث تحليلية:...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: بعد ذكر الجزاء خيراً وشراً ــ وهو مسبب ــ ناسب أن يذكر السبب وهو العمل طاعة ومعصية.

٢ ــ سبب نزول: لطالما تمنيت استعمال مصطلح مناسبة النزول ــ لولا أنه لا مشاحة في الاصطلاح ــ وقد روي أن الآية نزلت بعد طلب أهل الكتاب الإكثار من ذكر الرحمن في القرآن. وروي ان المشركين دعوا الرسول إلى ملة آبائه فأنزل تعالى ولئن اتبعت هواءهم.. الآية.

٣ ــ أهل الكتاب: الكتب كثيرة هي بعدد الأنبياء المرسلين، أشهرها التوراة والإنجيل وهناك كتب مختلف في نزولها وفي نبوة رسلها كالكتاب الأسود لزرادشت عند الأكراد.

٤ ــ المتفق والمفترق في الكتب: تتفق الكتب المنزلة في الأصول وما نجده من افتراق سببه التحريف، أما الفروع فتختلف بسبب النسخ.

٥ ــ عربية القرآن وترجمته: لغة القرآن هي العربية، لأن من أنزل فيهم كانوا عرباً، وتعلم العربية لازم لمن يجتهد في الأحكام، أو يتعبد بالنص. أما الفهم العام فيكفيه ترجمة معانيه.

٦ ــ العبادة: وللعبادة خلق الإنس والجن، والعبادة: فعل أو ترك، باطن مستور في الصدور، أو ظاهر على اللسان والجوارح، وتكون العبادة: مشروعة بالنص من الرب أو بالنذر من العبد، وللعبادة أصول كثيرة (تقدم في موضوع ٨ فصل ١٨).

الفصل الثالث والعشرون: وظيفة الرسل (الآيات ٣٨-٤٠). أولاً: مباحث تحليلة: ...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: بعد ذكر الرسالة ناسب أن يذكر حملتها من الأنبياء المرسلين ــ ومحمد خاتمهم ــ، وهم جميعاً بشر كغيرهم خصّهم الله بالوحي والمعجزات.

٢ ــ النبي والرسول: النبي من أوحي إليه بنبأ، والرسول من كلف بتبليغ ذلك النبأ، وهما وصفان لموصوف واحد، وعدد الأنبياء المرسلين كبير بعدد الأمم والأقوام.

٣ ــ بشرية الرسول: كل الرسل بشر، خلقوا من ماء وتراب. وتجري عليهم أحكام الزمان والمكان والحياة والممات. ومن الناس من غالى في عصمتهم وتأليهم.

٤ ــ لكل أجل كتاب وعنده أم الكتاب: كل مخلوق في هذا الوجود يحتل مكانه، ويحيا زمانه، تكيفه موازينه، وتحكمه مقاديره.

٥ ــ المحو والإثبات في النسخ والإحكام: النسخ واقع في الآيات التكويينة، وواقع في الآيات التنزيلية، ويسميه بعضهم بالتدرج فينكرونه ظاهراً.

٦ ــ الخوارق من سحر وكرامات ومعجزات: السنن الثابتة ماضية في الخلق والفطرة، وخرقها يكون مشروعاً في المعجزات والكرامات، وهو غير مشروع في السحر.

٧ ــ التقابل: التقابل اللفظي يظهر جمال اللفظ، وحسن العبارة. والتقابل المعنوي يظهر الفروق الدقيقة بين المتقابلات (تقدم في موضوع ٤ فصل ٢١).

الفصل الرابع والعشرون: محاجة الكافرين (الآيات ٤١-٤٣). أولاً: مباحث تحليلية: ...

ثانياً: مباحث موضوعية:

١ ــ المعنى العام: تقدم الحديث عن الرسل وبشريتهم، وهنا بيان لموقف الكافرين ومحاجتهم.

٢ ــ نقص الأرض: الأرض تنقص بعد زيادة، وتزيد بعد نقص، وذلك ظاهر في التعبير القرآني: بالنقص والمد والمباركة والرتق والفتق والقبض والبسط.

٣ ــ سريع الحساب: الزمن يطول ويقصر، فهو نسبي له علاقة بالشخص والمكان.

٤ ــ نسبة المكر للرب: إذا كان المكرُ العملَ المتقنَ فلا شبهة في النسبة، وإذا كان العملَ السيء فالنسبة من باب المقابلة، أو خلق الفعل، والأصل في هذا ومثله أن الله لا يسأل عما يفعل.

٥ ــ كسب النفس: النفس كاسبة، وكسبها فعلها المختار في حدود ما كلفت به، من أمر تفعله، ونهي تجتنبه، ويخرج عن هذا الخواطر والإكراه والنسيان والخطأ (تقدم في موضوع ٣ فصل ٢٠ وموضوع ٤ فصل ١٦ وموضوع ١٠ فصل ٤).

٦ ــ محاجة الكافرين: مجادلتهم بالحجج العقلية، والآيات الحسية والغيبية، لترغيبهم وترهيبهم.

٧ ــ انكار الرسالة جهالة وجاهلية: العامة من الناس ينكرون جهلاً منهم بحقيقة الرسالة، أما القادة الذين يخافون على سلطانهم فينكرون جاهلية وعناداً واستكباراً.

٨ ــ شهادة أهل الكتاب: كتاب الله واحد وإن تعدد نزوله في أزمان متباعدة على أقوام مختلفة، ولذلك صحت شهادة الأولين، وكذلك تفعل آخر الأمم فتشهد لمن سبقها أو تشهد عليهم.

٩ ــ أنواع الكفر: أنواعه خمسة هي: الكفر الأصلي، وكفر الظاهر بالإسلام، وكفر الباطن بالإيمان وهو النفاق، وكفر الردة، وكفر العمل.

الفهرسة

ــ ١ ــ
فهرس المراجع(*)

١ ــ **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط المكتبة الثقافية ببيروت ــ ٢٥، ١٧١، ١٧١، ١٧١.

٢ ــ **أصول التوحيد في القرآن**، محمد صالح علي مصطفى، دار القلم بدمشق ــ ١٠٦، ٣٠٢.

٣ ــ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الشنقيطي، الرياض ــ ١٠٣، ١٠٣.

٤ ــ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، عبد الله بن عمر البيضاوي، دار الجيل ــ ٢٩٣.

٥ ــ **البحر المحيط**، أبو حيان، دار الفكر ط ١٣٩٨/٢-١٩٧٨ ــ ٣٠، ٤٠، ٥٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ٢٦٢.

٦ ــ **تفسير سورة فصلت**، محمد صالح علي مصطفى، مخطوط ــ ٢٧، ٣٥، ٤٢، ٦٩...

٧ ــ **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، الفكر المنار ــ ٤٠، ٥٣، ٥٥، ٦١، ٦٣، ١٢٤، ٢٦٢.

٨ ــ **التفسير الكبير «مفاتح الغيب..»**، الفخر الرازي، العلمية بطهران ــ ٣٠، ٣٣، ٣٩، ٤٣، ٦٨، ١٥٥، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٦، ١٨٥، ١٩٠.

٩ ــ **تفسير مجاهد**، تحقيق عبد الرحمن السورتي، المنشورات العلمية ببيروت ــ ٥٠، ٢٥٨، ٢٧٠.

(*) الأرقام بين الفواصل تدل على الصفحات التي ورد فيها ذكر المراجع.

١٠ ـ **جامع البيان في تفسير القرآن**، محمد بن جرير الطبري، دار المعرفة ـ ٦٣، ٢٥٨.

١١ ـ **الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد القرطبي، دار التراث العربي ـ ٣٠، ٤٠، ٥٠، ٦٣، ٦٧، ٧٨، ١٠٣، ١٥٠، ١٦١، ١٨٩، ٢٤٥، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٣، ٢٩٣.

١٢ ـ **رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار**، محمد بن إسماعيل الصنعاني، المكتب الإسلامي ط أولى ـ ٨٣.

١٣ ـ **روح البيان**، اسماعيل حقي البروسوي، ط العثمانية ـ ١٣٣٠، ٨٨.

١٤ ـ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، محمود الألوسي، إحياء التراث العربي ببيروت ـ ١٢٧.

١٥ ـ **سنن أبي داود**، أبو داود، دار إحياء التراث العربي ببيروت ـ ١٥٠، ٣٢٠.

١٦ ـ **سنن الترمذي الجامع الصحيح**، محمد بن عيسى الترمذي ـ ٤٦، ٥٤، ١٨٧، ٢١٦، ٢٢٧، ٢٥١، ٣٠٠.

١٧ ـ **السراج المنير**، الخطيب الشربيني، المعرفة ببيروت ـ ٣٣.

١٨ ـ **السيرة النبوية**، اسماعيل بن كثير، الحلبي ١٣٨٥-١٩٦٥ ـ ١٩٤.

١٩ ـ **صحيح البخاري**، محمد بن إسماعيل البخاري ـ ٥٤، ١٠٥، ١٦٩، ١٩٥، ٢٠٣، ٢١٥، ٢٢٤، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤٥، ٢٥٠، ٢٥٩، ٢٩٠، ٣٢٩.

٢٠ ـ **صحيح ابن حبان**، ٣١٠.

٢١ ـ **صحيح مسلم**، مسلم بن حجاج ـ ٥٤، ١٠٥، ١٦٩، ١٩٥، ٢١٦، ٢٢٤، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٥٠، ٢٥٩.

٢٢ ـ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي ببيروت ـ ٣٥، ٣٥.

٢٣ ـ **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، الحسن بن القمي النيسابوري، الحلبي ط أولى ١٣٨١-١٩٦٢ ـ ١٠٩، ٢١٥، ٢٣٧.

٢٤ ـ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمود علي الشوكاني، المعرفة الفكر ـ ٣٢، ٥٤، ١٢٤، ١٥٠، ٢٨٥، ٢٨٩.

٢٥ ــ **الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية**، سليمان ابن عمر العجيلي «الجمل»، الحلبي ــ ٣٢، ٣٩، ١٢٣، ٢٦٩، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣١٨، ٣١٨، ٣١٩.

٢٦ ــ **القاموس المحيط**، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ــ ٧٥.

٢٧ ــ **الكتاب**، سيبويه، الخانجي والرفاعي ط الثانية ــ ٢٨٥، ٢٨٩.

٢٨ ــ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، محمود بن عمر الزمخشري، المعرفة ببيروت ــ ٣٩، ٣٩، ٦٣.

٢٩ ــ **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر ــ ٢٠٠.

٣٠ ــ **متن الأربعين النووية**، يحيى بن شرف الدين النووي، دار الكتب الشعبية ــ ٣٢٦.

٣١ ــ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، عبد الحق بن عطية الأندلسي، (١) المجلس العلمي بفاس ١٣٩٥-١٩٧٥، (٢) ط: قطر ٣٥، ٥٦، ٥٧، ١١٠، ٢٤٧، ٣١٢.

٣٢ ــ **مجمع البيان في تفسير القرآن**، الفضل بن الحسن الطبرسي، دار إحياء التراث العربي ببيروت ــ ٣٢.

٣٣ ــ **مسند أحمد**، ٥٤، ١٣٥، ١٩٦، ٢١٦، ٣١٠، ٣٢٠.

٣٤ ــ **معالم التنزيل مطبوع بهامش الخازن**، الحسين بن مسعود البغوي، الحلبي ط ثانية ١٣٧٥-١٩٥٥ ــ ٥٦، ٢١٥.

٣٥ ــ **مفاهيم**، محمد صالح، مخطوط ــ ٨٧، ٢٨١...

٣٦ ــ **المفردات في غريب القرآن**، الراغب الاصفهاني ــ ٤٩، ٥٠، ٦١، ٧٥، ٧٥، ١٢١، ١٣١، ١٦٥، ٢٤١، ٢٥٥، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٧١، ٢٩٣، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٧.

٣٧ ــ **معاني القرآن**، يحيى بن زياد الفراء، عالم الكتب ببيروت ط ثانية ١٩٨٠ ــ ٣٨، ٧٩، ٣٠٦.

٣٨ ــ **معنى لا إله إلا الله**، محمد بن عبد الله الزركشي تحقيق علي القره داغي، دار النصر بمصر ــ ٤٩.

٣٩ ــ **النشر في القرآت العشر،** محمد بن محمد الجزري، مكتبة القاهرة — ١٤٤، ٢٧١، ٣٠٦، ٣١٩.

٤٠ ــ **النهر الماد من البحر،** أبو حيان، الفكر ــ ٩٧.

٤١ ــ **نفائس البيان شرح الفرائد الحسان،** عبد الفتاح بن عبد الغني القاضي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ط أولى ــ ٣٣.

فهرس العناوين

كان الفراغ من تأليف هذا الكتاب يوم الخميس
٧ رمضان المبارك ١٤٠٦ هـ الموافق ١٥ أيار ـــ
مايو ـــ ١٩٨٦ م بمدينة الرياض.

ووافقت رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء
والدعوة والارشاد على طبعه برقم ١٣٢٨/٥/ ٥/٧٠٢٠
وتاريخ ١٤٠٦/١١/١٥ هـ.

طبع: المكتب الإسلامي ببيروت
نشر: دار النفائس/ بالرياض

Exegesis for Ar-Ra'd sura

- Analytical Linguistic topics in:
  Lexicon and syntax.
- 160 Subjective topics in:
  Religious and Scientific concepts.

Dr. Muhammad Saleh Ali Mustafa

Associate Professor of Exegesis,
The Faculty of Theology.

Writing this book was accompolished on Thursday 7th Ramadhan, 1406 A.H. corresponding to 15th January 1986 in Riyadh.
The Presidency of Scientific Researches Directorates has approved the version numbered: 1328/5/7020/5 and dated 15/11/1406 A.H.

Printed by: **The Islamic Bureau,** Beirut.

Published by: **Al-Nafaés Publishing House,** Riyadh.